كتاب
العربية
14

فولفجانج هيرن

中国挑战

التحدي الصيني

ترجمة
محمد رمضان حسين

1432 هـ - 2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

التحدي الصيني

أثر الصعود الصيني في حياتنا

ح) وزارة الثقافة والإعلام، المجلة العربية، 1432هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
هيرن، فولفجانج
التحدي الصيني / فولفجانج هيرن، محمد رمضان حسين.
الرياض، 1432هـ.
312 ص ؛ 21X14 سم
ردمك: 9-08-8079-603-978
الصين – الأحوال الاقتصادية أ. حسين، محمد رمضان (مترجم)
العنوان
ديوي 330,951   1377/ 1432

رقم الإيداع: 1377/ 1432
ردمك: 9-8079-603-978

التحدي الصيني
المؤلف: فولفجانج هيرن
المترجم: محمد رمضان

Title: herausferderung china
Author; Wolfgang Hirn
Publisher: Fischer

تأليف: فولفجانج هيرن

中国挑战

التحدي الصيني

أثر الصعود الصيني في حياتنا

ترجمة

محمد رمضان حسين

الطبعة الأولى

1432هـ - 2011 م

كتاب

14

كتاب العربية

14

رئيس التحرير

د. عثمان الصيني

www.arabicmagazine.com

لمراسلة المجلة على الانترنت

info@arabicmagazine.com

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي

تليفون: 4778990 1 966 فاكس: 4766464 1 966

ص.ب 5973 الرياض 11432

المحتويات

إضاءة

«تنتج الصين اليوم نصف الكاميرات الموجودة في جميع أنحاء العالم، وثلث أجهزة التكييف وربع أجهزة التليفزيون، وقد ترتب على تلك النهضة الاقتصادية الصينية العديد من النتائج الهائلة التي تؤثر علينا بشكل مباشر. وبمجرد البداية نجد أن الصين ليست في طريقها لتكون قوة اقتصادية عالمية فقط؛ ولكن أيضاً تريد أن تصبح قوة سياسة وعسكرية عظمى، بينما يتراجع الآن معدل التصنيع والإنتاج في أوروبا وأمريكا واليابان؛ وبالتالي ترتفع معدلات البطالة والتلوث. وبينما يتزايد ارتفاع الأسعار في الأسواق العالمية بشكل جنوني سواء في النفط أو باقي السلع الأخرى؛ فإن نمو الاقتصاد الصيني يواصل الصعود بشكل مستمر».

المؤلف في سطور

فولفجانج هـيرن، من مواليـد 1954، درس الاقتصاد والعلـوم السياسية في (توبنجـن)، عمل كمحـرر اقتصادي لدى (كولنر شتـات إنتسايجر) و(فـيرت شافتس فوخي)، ويعمل الآن كمراسل لمجلة (مانجر ماجتسين)، منذ عام 1986 وهو يسافر إلى الصين بشكل منتظم.

مقدمة

نحـن الآن علـى أعتاب تحول تاريخـي في الاقتصاد العالمـي والسياسة الدوليـة، عندمـا تضـع إمبراطورية كـبرى كالصين أقدامها علـى الطريق الصحيـح لتصبح قوة عالمية عظمى اقتصاديـاً وسياسياً وعسكرياً، وللمرة الأولى في تاريـخ البشرية تعود قوة عالمية سابقة للظهور مرة أخرى، حيث كانـت الصـين حتى القرن الثامن عشـر واحدة من أكثر الـدول تقدماً في العـالم، وهاهي تستعيـد وضعها من جديد لتسيطر علـى الاقتصاد العالمي المعاصر في الوقت الحالي.

والنتائـج المترتبـة على هذا الصعـود التاريخي ستكـون هائلة، وسوف يشعر بها كل مستهلك وعامل ومدير في الدول التي تأثرت سواء ألمانيا أو أمريـكا أو اليابان، وسيكون للصـين (الجديدة) دور مهم وخطير أيضاً في تغيير حياتنا.

لماذا ترتفـع أسعار النفط والحبوب الغذائية بشـكل جنوبي؟ ولماذا يزداد الطلب على الصلب الخام؟ ولماذا تكثر حالات البطالة في الدول الصناعية الغربيـة؟ ولماذا يتسـع ثقب الأوزون؟ ولماذا يتصاعـد الخوف المستمر من نشـوب حـروب في المنطقة بين وسـط آسيا والمحيط الهـادئ؟ والجواب يكون دائماً هو نفسه في كل الأحوال.. (الصين).

في الوقـت الذي توقـع فيه الكثـيرون -وعلى رأسهم أمريـكا- انهيار اقتصـاد الدول الشيوعيـة بعد سقوط الاتحـاد السوفيتي، فـإن الصين قد خالفـت كل تلـك التوقعات، وأصبحت أقوى مـن أي وقت مضى، لأن الأمة الصينيـة كانت تعمل بالتجارة منذ آلاف السنـين وأيضاً فإن التجار

الصينيـين موهوبون بشكل كبير، فقد استطاعوا إصلاح بلادهم كما أنهم يعرفون جيداً أفضل الطرق لكسب الأموال.

منذ عام 1978 وعنـد تسلم (دينج شياو بينج) مقاليد الحكم؛ وأصبحت الصـين ملتزمة بالإصلاح نحـو الرأسماليـة، ومنذ عـام 1986 وأنا أسافر بشكل منتظم إلى الصين؛ وقد فتنت بتلك البلاد منذ اللحظة الأولى.

وقـد قضيـت مؤخراً في النصـف الأول من عـام 2004 بضعة شهور في جمهوريـة الصين الشعبية، وقد دونت بعض انطباعاتي خلال فترة إقامتي في بكين وشنجهاي ورحلاتي العديدة التي قمت بها في شتى أنحاء البلاد؛ في الشمال البارد والجنوب الاستوائي والغرب الذي لم يكتشف بعد، وقد جمعت حوارات كثيرة من تلك الأماكن في هذا الكتاب.

وكان (يـورج فوتكه) إحدى أهـم الشخصيات التي أجريت معها أحد حواراتي، وهو مديـر الفرع الصيني لشركة باسـف الألمانية للكيماويات ورئيـس الغرفة التجاريـة الألمانية في الصين، وقد قـال لي: «هذا هو البلد الأكثر إثارة في العالم»، ومعه كل الحق في هذا الكلام؛ بل يمكننا أن نضيف أيضاً على ما قاله إن الصين هي البلد الأكثر نشاطاً وحركة في العالم، ولكي نفهم ذلك علينا مقارنتها اليوم بما كانت عليه قبل 15 أو 20 عاماً.

رأيـت في شوارع بكـين أعداداً هائلة من سيـارات الأودي، وBMW، والفولكسـ فاجن، كمـا شاهدت تحول مناطق المـزارع والمستنقعات في شنجهـاي في بداية التسعينيات واحتل مكانهـا اليوم المئات من ناطحات السحـاب، كما اصطحبـت العديد مـن رجال الأعمال مـن هونج كونج ومقاطعـة (قوانج دونج) المجاورة والمزدحمة والتـي تحتوي على أكبر عدد

من المصانع في العالم.

إن سرعة التغير اليوم في الصين قد أصبحت تسبق الأنفاس ولا يستطيع أحد ملاحقتها، ولم يحدث من قبل أمر مماثل لما يجري الآن في تلك الأمة العظيمة عبر التاريخ من سرعة تقدم وصعود في الاقتصاد العالمي.

وبالطبع هناك العديد من المشاكل التي تقابل هذا الصعود، فهناك خلل إقليمي واجتماعي ومصرفي؛ ولكنني لا أرى أنها تمثل كارثة؛ لأن الحكومة هناك تعرف جيداً كيفية التصدي لتلك المشكلات والتعامل معها وهي تتقدم بنجاح ملحوظ حتى الآن.

ويزداد معدل النمو السنوي للاقتصاد الصيني حتى أصبح متوسط نموه الحالي من 7٪ إلى 8٪ سنوياً. ويعد من أهم أسباب هذا النمو السريع والمتزايد عودة عشرات الآلاف من الصينيين الذين درسوا في كبرى الجامعات الأمريكية، وأسسوا العديد من المشاريع الناجحة في وادي السليكون ثم عودتهم إلى أوطانهم؛ ليقوم هؤلاء المغتربين باستثمار مليارات الدولارات في مشاريع قومية داخل بلادهم، تأسست في هونج كونج وتايوان والصين.

وهذا مزيج فريد من رأس المال والمعرفة، والأعداد الهائلة من العمالة الرخيصة، وأسواق ضخمة تنعش حركة الاقتصاد وتعين على ازدهاره أكثر من أي بلد آخر في العالم.

واليوم قد أصبحت الصين بالفعل هي: (مصنع العالم)، وذلك من خلال العمالة الرخيصة والمتوفرة بأعداد كبيرة، حيث أن ما يقرب من 700 إلى 800 مليون صيني يقبلون العمل مقابل تقاضي دولارين فقط كأجر عن اليوم الواحد، وهذا هو ما جذب العديد من الشركات الأجنبية العملاقة

ونقــل مراكز تصنيعهــا وإنتاجها إلى الصين على حســاب أمريكا واليابان وأوروبا؛ مما أسفر عن انتشار البطالة بأعداد هائلة في تلك البلدان الكبرى.

ولم يقتصر الأمر فقط على احتكار أسواق الأحذية والمنسوجات؛ ولكن تعــدى ذلــك ليشمل العديد من قطاعــات الصناعة الحديثــة مثل: الرقائق الإليكترونيــة، وأجهــزة الكمبيوتــر، والهواتف المحمولــة. لقد وضعت الصــين أقدامها بالفعــل لتصبح في طريق الدول العظمــى في التكنولوجيا الحديثــة، كما أن الصينيــين تمكنوا بالفعل من إرســال رواد فضاء إلى العالم الخارجي.

ولا يعتمد النمو الصيني فقط على استثمارات الشركات الأجنبية المتعددة الجنسيات، ولكن قد أصبح لدى الصين اليوم بالفعل شركات ومؤسسات صينيــة ترقــى إلى مستــوى العالمية. وكما غــزت سوني وباقــي الشركات اليابانيــة الأسواق العالمية منذ 50 عاماً، ثم غزت سامسونج وشركات كوريا الجنوبيــة الأسواق منــذ 20 عاماً؛ فإن الماركات الصينيــة قد بدأت الآن في غــزو الأســواق العالمية، وربما مــازال العديد من الأشخاص في الغرب لم يسمع بعد بأسمــاء مثل: هواوي، ولينوفو، وهاير، ولكننا سنتعرف عليها جيــداً في وقت قريب، حيــث ستكون تلك الأسمــاء في منافسة أشد قوة وشراسة من تلك التي مرت بشركات سوني وسامسونج.

وقــد أدى أيضــاً الصعود السريــع للصين إلى عواقب خطــيرة على البيئة العالميــة؛ فقد زادت نسبة التلوث البيئي هنــاك، ولم تقف فقط عند حدود الصــين بل انتقلت إلى البيئة العالمية، فعلــى سبيل المثال زيادة انبعاثات ثاني أكسيــد الكربون التي من شأنها التأثير الضار علــى طبقة الأوزون وزيادة

تآكل ثقبها.

وكذلك المشاكل المتعلقة بتوفير الغذاء والطاقة لـ 1,3 مليار نسمة؛ واحتياجهم المتواصل إلى استيراد المزيد من محاصيل الحبوب الغذائية والنفط والغاز، مما يؤدي إلى ارتفاع جنوني في الأسعار العالمية فضلاً عن باقي المواد الخام اللازم توفرها والتي يتم استخدامها بكميات ضخمة في الصناعة هناك.

وكذلك حاجة الصين إلى المزيد من الطاقة التي تدفعها للمشاركة والتواجد في تلك المناطق التي تملك احتياطيات عالية من الطاقة، على أعتاب بحر الصين الجنوبي، وآسيا الوسطى، وأيضاً منطقة الشرق الأوسط.

وسوف تنشأ العديد من الصراعات والتوترات في العلاقة بين الصين وأمريكا في العقود القادمة بغرض فرض السيطرة على السياسة العالمية. وبسبب قوتها الاقتصادية فإن الصين في طريقها للسيطرة على السلطة السياسية العالمية. وبسبب عدم انعزالها فإن الصين ستحصل على المزيد من المشاركة في السياسة الدولية من خلال لعب دور أكبر في الأمم المتحدة، لتصبح بذلك القوة العالمية العظمى الثانية بعد الولايات المتحدة. ولكن القضية الأهم هي كيف يمكن لقوتين عظيمتين أن يتعاملا سوياً (سواء بشكل متعاون أو مضاد)، وسيكون هذا أمراً مهماً بالنسبة للسلام العالمي في القرن الحادي والعشرين.

كل هذه المشاكل والتحديات التي تواجه النهضة الاقتصادية للصين لا يعلم بشأنها الكثيرون في الغرب، وقد أصبحت الآن تلك الصورة التقليدية القديمة الموجودة في الذاكرة عن الصين بعيدة جداً عن الواقع، وتساهم

وسائـل الإعلام بشيء قليل في نقل الصورة الحقيقية إلا أنها مازالت تحمل في كثير من الأحيان بعض الأحقاد القديمة.

نعـم، الصينيـون (في الجنـوب) مازالـوا يأكلـون الثعابـين وغيرها من الحيوانـات الغريبة، ويبصقون على الأرض، ومازالت السلطات تفرض هناك أحكاماً بالإعدام بشكل كبير. نعم؛ ولكن هذا جانب واحد فقط من الصين، وهو الجانب غير المفهوم لنا، بل هو الجانب القبيح.

ولكـن في المقابل فإنني أصف في هذا الكتـاب ديناميكية الصين وسرعة التغير بدون خوف؛ فإني أريد أن يفيق القارئ الأوروبي والأمريكي وأريد تشجيعهم على إلقاء نظرة عن قرب على الصين تلك القوة العظمى الناشئة من أجل فهم أفضل لهم في النهاية، حيث أننا لم يعد يمكننا تحمل المزيد من الجهل تجاه الصين.

هامبورج – مارس 2006

الفصل الأول

ظهور قوة عالمية جديدة

الصعود والانهيار والعودة للإمبراطورية القديمة

«من بين كل الحضـارات المتقدمة في وقتنا الحالي لا نشعر بميل نحوها كما نشعر به تجاه الحضارة الصينية»

بول كيندي في (صعود وانهيار القوى العظمى)

هناك بعض أشياء تلقناها في الماضي ثم صارت أموراً مسلماً بها بالنسبة لـما كاختراع يوهـان جوتنبرج للطباعـة أو كون كريستوفـر كولومبوس أعظم البحارة في التاريخ ولكن في الحقيقة الأمر بخلاف هدا، فقد اخترع الصينيـون الطباعة قبل القرن التاسع الميلادي، وقد كان هناك بحار صيني يدعـى (تشانج خـي) من أعظم البحارة في العالم وقـد سبق كولمبوس بعدة عقود في إنشاء أسطول بحري هدفه اكتشاف العالم.

تلـك الأخطاء الشائعة التي تلقناها في أثنـاء درسنا للتاريخ؛ في حين أنه لم يـرد ذكر للصين على الإطلاق بينما كان المعلم يقضي ساعات طويلة في شرح حياة وعصور حكم المصريين والإغريق والفرس والرومان.

لقـد كان في الشرق الأقصى حضارات مهمـة أخرى، ولم يكن مدرسو التاريخ يتعمدون إخفاءها ولكن من الجهل بها، فلم ندرس عير تجمع قبائل المغول الهمجية تحت قيادة السفـاح الشهير جنكيز خان وغزوهم العديد مـن البلاد حتى تمكنوا من الوصـول إلى منتصف أوروبا في عام 1241 قبل أن ينتهوا فجأة.

ظهـرت الصـين لدينا في الصـورة التاريخية منذ بضعة قـرون قليلة قبل القرن التاسع عشر ثم صعودها بعد ذلك كواحدة من أكبر القوى الشيوعية مـع ماو تسي تـونج في منتصف القرن العشرين، ومع فـترة الحرب الباردة تقدمت الصـين في ظل الحكم الثوري حتى صار ينظـر إليها الغرب على

أنها تشكل تهديداً كبيراً عليه.

الجهل والإعجاب والغطرسة والقلق، هذه نظرة الغرب للصين، والسبب الرئيس في نشر هذه الصورة في الغرب هو أن الناس هناك في الصين لا يفهمون غير لغتهم القديمة ولا يطلعون إلا على تاريخهم وثقافتهم.

وسبب تلك النزعة القومية المفرطة في الصين هو أنها كانت بلاداً لها حضارة عظيمة في الماضي واستمر تقدمها بعكس مصر واليونان فقد تهمش دورهما وتقلص حجمهما بعد أكثر من 5000 سنة من الحضارة.

يقول العلماء إن الإنسان بحاجة إلى دراسة التاريخ والحضارة الصينية حتى يفهم سبب النزعة القومية التي ما زالت مسيطرة على هذا الشعب حتى الآن. كذلك ينبغي أن ندرك أيضاً أن السبب الرئيس الذي يجمع بين كل قوى الغرب واليابان هو اتحاد الجميع ضد الصين على مدى قرن كامل من الزمان، وهذا يفسر لنا العديد من سياسات الصين الخارجية غير المفهومة حتى الآن. وينبغي أن ندرك كذلك أن الصين كانت من البلاد الأكثر تقدماً في العلوم والتكنولوجيا منذ عدة قرون مضت، وأن لديها اليوم من الإرادة والكفاءات البشرية ما يمكنها من العودة إلى سابق عهدها مرة أخرى.

التفوق المبكر

في صيف 1271م حيث كانت أوروبا تغرق في عصور الظلام؛ سافر الشاب البندقي ابن السابعة عشرة والذي يدعى ماركو بولو في صحبة أبيه نيقولو وعمه مافيو نحو الشرق في رحلة استغرقت أربع سنوات، مروا في أثنائها عبر بلاد فارس وأفغانستان وعبروا العديد من الجبال والصحاري

حتى وصلوا إلى مكان بالقرب من مدينة بكين الحالية؛ حيث وجدوا في شرف استقبال ركبهم الخان الأعظم قوبلاي الذي كان يحكم البلاد الصينية في ذلك الوقت.

بعد أربعة وعشرين عاماً من رحيلهم جرفهم الحنين للعودة إلى البندقية، فأملى ماركوبولو ما شاهده في أثناء رحلاته الطويلة على أحد أصدقائه؛ والذي قام هو الآخر بجمعها في كتاب أطلق عليه اسم (وصف العالم)، والذي يعد واحداً من أكثر كتب الرحلات شهرة في عالم الأدب؛ وأيضاً من أكثرها إثارةً للجدل، لأن صاحبه لم يكتبه بنفسه، لدرجة أن بعض المؤرخين شكك في قيام ماركوبولو بتلك الرحلات من الأساس.

منذ عدة سنوات كتب عالم الصينيات الإنجليزي فرانسيس وود كتاباً بعنوان: (هل ذهب ماركوبولو إلى الصين؟) وأجاب على هذا السؤال في كتابه بوضوح شديد بأن ماركوبولو لم يذهب إلى الصين من الأساس.

وبغض النظر عن مدى صحة زيارة ماركبولو للصين من عدمها، وبعيداً عن الصياغة الأدبية المستخدمة في سرد رحلاته، نجد اليوم أن ماركوبولو قد قدم لنا صورة كاملة للمجتمع الصيني عن فترة مبكرة للغاية من تاريخه، ونجد أنه قد كان في الكثير من أوصافه قريباً من الواقع بشكل أو بآخر؛ حتى أنه قد ساهم في نقل التصورات الأولى عن الصين للقارئ الأوروبي والتي تثير دهشتنا عندما نرى مدى التفوق التقني المبكر للشعب الصيني وكيفية استغلاله لثرواته بشكل جيد في بناء حضارته وأسلوب معيشته.

ومما كان مثيراً للإعجاب في تلك الرحلات؛ وصفه لتجمع أكثر من اثني عشر ألفاً من جنود الحرس وما يقرب من عشرين ألف أسرة واصطفاف

مائة ألف مـن الخيول وقرابة خمس وعشرين ألفاً من الفتيات والراقصات الصغيرات في بكين لتحية الخان الأعظم قوبلاي في يوم ذكرى مولده.

مـا ذكـره ماركوبولو من تعـداد السكان هناك في تلك الفـترة يعد أمراً مبالغاً فيه، لأن تعداد سكان البندقية في تلك الفترة (وهي ثالث أكبر مدينة أوروبية بعد نابولي وباريس حينها) لا يتجاوز المائة ألف نسمة، بينما كان يحتشـد في نفسـ الوقت (طبقاً لروايـة ماركوبولو) أكثر مـن 1،2 مليون شخص في بلاط الخان عام 1270 بالطبع هذا أمر لا يكاد يصدق.

في الفترة بين عام 500 إلى 1500 ميلادية كانت الصين متفوقة على أوروبا في معظـم المجالات تقريباً، وكانت الحضـارة الصينية مهيمنة على الشرق الأقصى في الوقت الذي لم يبد الغرب أدنى اهتمام بها.

كان التفـوق الصيني في مجال العلـوم والتكنولوجيا يبدو واضحاً للغاية منذ وقت مبكر، كما يقر بذلك المؤرخ بول كيندي بأنه كان لدى الصينيين (نضـج تكنولوجـي) واكتشافات عظيمـة أحدثت ثورة كـبرى في شتى المجـالات والتي لم يتمكن الغـرب من التواصـل إلا في القرنين الأخيرين فقط، ولإيضاح ذلك بمثال بسيط؛ فقد صنع الصينيون أفراناً لصهر المعادن منـذ القرن الرابع الميلادي حيـث كانوا حينها قادرين علـى إنتاج الزهر، وبحلول القرن السادس الميلادي كان الصينيون قد بدؤوا بالفعل في إنتاج الصلـب بينما استغرق ذلك الأمـر في أوروبا منذ القرن الثالث عشر حتى كان أول إنتـاج للصلب علـى يد مارتن سيمنز في عـام 1864 بينما كانت لدى الصين صناعة ضخمة لمعادن الصلب في القرن الحادي عشر.

اهتـم الصينيون بالاختراعات والاكتشافات التي تمس حاجتهم للتقدم؛

فعلى سبيل المثال صنعوا الورق في القرن الثاني الميلادي، وتفننوا في صناعة الخزف وإنتاجه منذ القرن الثالث الميلادي، كما ابتكروا البوصلة المغناطيسية في القرن الثالث أيضاً، وقاموا بإنتاج أول كتاب مطبوع في منتصف القرن الثامن، كما قاموا بإنتاج مسحوق أسود لاستخدامه كحبر في القرن العاشر.

وقد كانت روح الصناعة الصينية في ذلك الوقت تقوم على أساس واسع، حيث كانت الصين قوية للغاية في مجال العلوم كما يذكر ذلك ماو يشنج في كتابه (العلم في الصين القديمة):

«في علم الفلك، والرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وعلم التنبؤ بالزلازل، وكانت الصين تظهر تفوقاً كبيراً على الغرب على مدى عدة قرون».

وقد كانت تكنولوجيا الزراعة والري من أكبر ميادين التفوق الصيني على الغرب، فقد استخدم الصينيون المحاريث الحديدية، وأنشؤوا قنوات مائية للري الزراعي لم يكن يعرفها الأوروبيون في ذلك الوقت، لكنهم استخدموا تلك التقنيات بالفعل بعد أن وصفها لهم ماركوبولو في كتاب رحلاته التي كانوا يتشككون فيها ويسخرون منها وكانوا يروونها على أنها مجرد حكايات خرافية للتسلية.

كانت الصين طوال تلك الفترة في أوج عظمتها، وقد أثار الباحث كونراد سيتز تساؤلاً افتراضياً؛ لماذا لم تحاول الصين السيطرة على العالم في هذا الوقت؟ لقد توافرت حينها لدى الصين كل المقومات المطلوبة لكي تجعل منها قوة عالمية عظمى، العديد من الموانئ والأساطيل البحرية، الكثير

من الأيــدي العاملة، والعقول المستنيرة، ولو كانوا أقدموا على فعل ذلك؛ لحدث تغير في شكل تاريخ العالم الحديث، لكنهم لم يفعلوا ذلك؛ وبدلاً من صعـود التنين الصيني نحو العالمية بـدأ في التراجع والتدهور والانسحاب إلى داخل حدوده الإقليمية.

الانهيار من الداخل

لم يكـن حلول عــام 1433 حدثاً ذا أهمية في أوروبــا؛ بينما على النقيض في منطقــة الشرق الأقصى فقد حدثت وقائـع تاريخية عظيمة ذات أهمية قصوى لتلك البلاد.

عاد في هذا العام البحار الصيني العظيم تشانج خي من رحلته السابعة عبر المحيطات، وقد قام برحلاته تلك في الفترة من 1405 إلى 1433 أبحر في تلك السنوات عبر بحر الصين والمحيط الهندي والخليج العربي والفارسي حتى وصل إلى أفريقيا، كان يعمل تحت إمرته أسطول بحري ضخم به ما يقرب من 400 سفينة؛ منها تسعة سفن ضخمة ذات صوارٍ عالية، وكان هذا العدد ضعــف عدد الأسطــول المصاحــب لكريستوفر كولومبوس الذي طاف العوالم الجديدة لاكتشافها بعــده بعدة قرون، وكان يرافق تشانج مائة سفينة للإمــداد بالمؤن الغذائية والمياه العذبــة؛ والبعض منها كان يحوي شاحنات خيول وزوارق حربية، وكان معه أكثر من 28,000 من البحارة والجنود.

ويحدثنــا لويس ليفسيس عن هذا الأسطـول في كتابه (عندما حكمت الصين البحار):

«لم يــرد في أي كتاب مما كتبت عن تلــك الفترة ذكر لأسطول في حجم

وقوة أسطول تشانغ 5 حتى عهد الحرب العالمية الأولى».

بعد ثلاث سنوات من آخر رحلات تشانغ في حوالي عام 1436 أمر الإمبراطور بمنع بناء المزيد من السفن البحرية العابرة للمحيطات ومصادراتها من ملاكها.

لكن لماذا حدث هذا التغير المفاجئ؟ يرجع المؤرخون هذا الأمر لعدة أسباب مختلفة؛ أحدها أن البلاد في تلك الفترة كانت متجهة لإنشاء العديد من المشاريع الكبرى مثل تشييد قصر ضخم للإمبراطور في بكين؛ وكان هذا يمثل عبئاً ضخماً على ميزانية الدولة. أو ربما بسبب بعض التهديدات التي واجهتها الإمبراطورية من ناحية حدودها الشمالية ضد المغول؛ وربما كان هذا السبب ذا أهمية قصوى بالنسبة للطبقة الحاكمة أكثر من مسألة الاكتشافات البحرية الجديدة.

ولكن السبب الأهم في انحصار الأنشطة التوسعية للإمبراطورية هو العودة للقيم والمبادئ الكنفوشيوسية القديمة، وكان من أهم مبادئ السيد كونفوشيوس هو وضع عبء إنشاء حضارة مدنية على عاتق رجال الجيش.

لم يكن أحد يتوقع على الإطلاق أن تصل تلك الرحلات إلى ما وصلت إليه، ونتج عن ذلك محاولة بعض التجار الصينيين التواصل مع بعض البلدان الأخرى؛ لكنهم حظوا في مقابل ذلك على الكثير من التوبيخ من قبل الحاكم آنذاك، لظنه أن هذا الأمر سوف يضعف من قوة الصين وأنه ينبغي عليهم إنتاج كل ما يحتاجونه بشكل ذاتي.

«كان هذا واحداً من أكبر الأخطاء التي وقعت فيها الصين» هذا ما قاله البروفيسور جيفري ساكس في كلمته أمام الجمعية الآسيوية في هونغ كونغ معلقاً على انسحاب الصين من المحيطات في الوقت الذي بدأ فيه الإنجليز

والهولنديون والبرتغاليون والإسبان اكتشافاتهم وفتوحاتهم.

يفضل الصينيون حماية بلدانهم عن بناء الأساطيل واكتشاف المحيطات، وبسبب هذا تقهقرت الصين مرة أخرى وعادت إلى الانعزال على مدى أربعة قرون أخرى.

كانت هناك الكثير من التوترات في تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، في عام 1644 أسقطت أسرة تشينج حكم أسرة مينج في انقلاب دموي.

إنهم لا يزالون ينظرون بغطرسة شديدة للآخر في بكين ولا يهتمون هناك بأمر الدول الأجنبية الأخرى ورعاياها، كانت مجرد فكرة التبادل التجاري تثير الكثير من الامتعاضات، لدرجة أنه عندما يقدم أحد التجار الصينيين على تبادل تجاري مع بعض التجار الأجانب كان يواجه تهمة الخيانة. وكثيراً ما كان يرفع الأجانب بعض الدعاوى القضائية ضد التجار الصينيين بسبب خلافات من هذا الشأن، لذلك فقد قام ملك بريطانيا جورج الثالث بتكليف اللورد جورج ماكارتيني بالذهاب إلى بكين في صحبة مائة من ذوي الخبرة في عام 1792، وقد كانت المهمة الرئيسة لذلك الفريق إقامة علاقات دبلوماسية بين لندن وبكين، وتدشين خط ملاحي للتشجيع على المزيد من التعاون التجاري بين البلدين.

حاول ماكارتيني في سبتمبر 1793 التودد للإمبراطور الصيني تشيان لونغ، لكن لقي طلبه رفضاً حاسماً من ناحية الإمبراطور وأعطاه رسالة يوصلها إلى ملك بريطانيا جاء فيها:

«ليس لدينا ما يصلح ولسنا بحاجة إلى منتجاتكم»

بعد عدة سنوات من تلك الواقعة حاول بريطاني آخر تجربة حظه في

بكين، في عام 1816 سافـر اللورد أمهرست إلى العاصمة الصينية، وكانت لديـه نفس تلك التطلعات والرغبات التي سبقه فيهـا ماكارتيني؛ إلا أنه لم ترفض صداقته فحسب بل قـام الإمبراطور بطرده من البلاد بشكل مهين ليخرج محملاً بالخزي والعار من تلك البلاد.

ولكـن منـذ فترة طويلـة أدرك الحكام في الصـين أن موقفهم هذا لم يعد يحتمل خاصة بعد ما تغـيرت موازين القوة العالمية، فكان على الحكام أن يتعلموا قبول الآخر وإلا سوف يبقون متجمدين خارج التاريخ، ولم ينتهوا لتلـك النتيجة إلا بعد خوضهم حرباً ظهـر فيها مدى الضعف الصيني في مقابل التفوق الكبير للدول الأخرى وخاصة بريطانيا.

قرن من الذل

لديكم الشاي؛ ولدينا الأفيون. كانت مقايضة غريبة تلك التي استخدمها الإنجليز مع الصينيين في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا ترغـب في شراء الشاي الصيني والقطن الهندي ولكنها كانت تحرص على عدم دفـع مقابل مادي من العمـلات الفضية واستخدمت تجـارة الأفيون التـي ازدهرت في المستعمرات البريطانية بالهند كمقابل لتلك البضائع وقد انخرطت الصين في تلك التجارة لعدة سنوات، ولكن استخدام المخدرات في التجارة أدى إلى انتشار إدمانها بسرعة فائقة بين سكان الشرق الأقصى، فقـد زاد عدد المدمنين في الصين بشكل مهول لدرجة أنه وصل إلى حوالي ستـة ملايين مدمـن مع بداية ثلاثينيـات القرن التاسع عشـر، في عام 1838 أصدرت الحكومة الصينية قرارها بتكثيف مراقبة هذا النشاط وبدأت تشن

حملات لمكافحته، في يونيو/حزيران عام 1839 توجه لين زيوكو أحد كبار المسؤولين الصينيين والذي يملك خبرة واسعة إلى جوانجتشو (مركز تجارة الأفيون البريطانية) واعتقل التجار البريطانيين وأجبرهم على تسليم كل مخزون الأفيون لديهم ثم قام بحرقه، حيث يقدر ما فيه أكثر من عشرين ألف صندوق من الأفيون الخام، وكان هذا التصرف يمثل تحدياً كبيراً للتاج البريطاني والسبب الرئيس في نشوب حرب الأفيون الأولى.[1]

بريطانيا وهي القوة الإمبريالية العظمى في هذا الوقت أرسلت أربعة آلاف جندي من قواتها البحرية إلى الشرق الأقصى، ووصلت في يونيو 1840 إلى ميناء جوانجتشو ، ونشبت العديد من المناوشات العسكرية بطول الساحل الصيني حتى أسوار بكين، ولكن الجيش الصيني لم يعلن استسلامه أمام التفوق العسكري البريطاني إلا بعد محاولات عدة.

في نهاية أغسطس 1842 تم توقيع معاهدة نانجينج (واحدة من أهم المعاهدات في التاريخ الصيني الحديث)، والتي يقول عنها جوناثان سبنس في رائعته (الطريق الصيني نحو المجتمع المعاصر):

«جعلت هذه المعاهدة الموانئ الصينية الخمسة؛ جوانجتشو، وشيامن، وفوتشو، ونينجبو، وشانجهاي مفتوحة أمام التجار البريطانيين بعدما كان أمامهم فقط جزيرة هونج كونج الصغيرة»

---

(1) حرب الأفيون: سميت بهذا الاسم وهي حربان قامتا بين الصين وبريطانيا في أثنائه، انضمت فرنسا إلى جانب بريطانيا وكان السبب هو محاولة الصين الحد من زراعة الأفيون واستيراده، مما حدا ببريطانيا أن تقف في وجهها بسبب الأرباح الكبيرة التي كانت تجنيها بريطانيا من تجارة الأفيون في الصين. قامت حرب الأفيون الأولى عام 1840 والثانية في عام 1888 ميلادية وكان من نتائجها أن أصبحت هونج كونج مستعمرة بريطانية (المترجم)

بـدأت الصـين مع معاهدة نانجينـج قرناً جديداً من الـذل، كما وصفها أوسكا فيجل الخبير في الشؤون الصينية، حوالي مائة سنة امتدت حتى نهاية الحـرب الصينية اليابانية عـام 1945، في أعقاب حرب الأفيون بدا واضحاً الصعـف العسكري الصيني وبدأ التدخـل الأجنبي الأوروبي والأمريكي والياباني وحتى الألماني في الشؤون الصينية مع بداية القرن العشرين.

مـرة أخـرى وقعـت الصين تحت نـيران الحـرب عندما اضطـرت إلى المواجهـة العسكرية ضـد اليابان عامي 1894-1895 وانتهـى الأمر بتوقيع معاهدة شيمونوسيكي التي بسببها قدمت الصين تنازلاً عن بعض أراضيها وقامـت بدفع مبالغ كبيرة لليابان على سبيـل التعويض، والأسوأ من ذلك هـو مدى الذل الذي تعرضـت له الصين، ولأول مـرة يحدث تفوق من الجانـب الياباني على الجانـب الصيني، وفقدان الصـين لدورها الإقليمي الآسيـوي، وحتى ذلك الحـين ظلت القوى الغربيـة في الأراضي الصينية حتى بعد إعـلان الجمهورية في 1912، ونشـأت في اليابان (العدو اللدود للصـين) قوى اقتصادية متنامية، وفي عـام 1931 استقلت مانشوكو (الجزء الصينـي الذي يتبع اليابـان) وأصبح لها علمهـا ونشيدها الوطني الخاص بهـا، وأصبح أمـر استيلاء اليابان على باقي الأراضـي الصينية مجرد مسألة وقت حتى وقعت حادثة جسر ماركوبولو بالقرب من بكين.

ففي السابع من يوليو 1937 نشبت الحرب الصينية-اليابانية وبدأ اليابانيون في السيطـرة السريعة على بعض المدن الإستراتيجيـة المهمة مثل شانجهاي ونانجينج وجوانجتشو ، خسرت الحكومة الوطنية (الكومينتانج) تحت قيادة (شيانج كاي شك) كل معاركها تقريباً، ولم تنجح سوى المقاومة الشيوعية

المسلحة، ولكن عند دخول الحلفاء والولايات المتحدة انقلبت دفة الحرب تماماً، والذي انتهى بإعلان اليابان استسلامها في أغسطس 1945.

بعدما تحررت الصين كان ينبغي عليها خوض معركة أخرى داخلية لتحديد من الذي سوف يحكم البلاد، حزب الكومينتانغ أم الشيوعيون؟، (شيانج كاي شك) أم (ماو تسي تونج)؟

وبعد أن ازداد الأمر صعوبة لم يكن هناك بد عن المواجهة العسكرية، ثلاثة ملايين جندي ينتمون لحزب الكومينتانغ ويقاتلون في الجيش النظامي للبلاد ضد مليون مقاتل شيوعي مسلح، في واحدة من أشرس الحروب الأهلية التي خاضتها الصين عبر تاريخها، ولكن ثبتت فيها براعة مقاتلي الشوارع وأسلوب حرب العصابات الذين تمكنوا من تشتيت قوات الجيش النظامي وأجبروهم على الفرار نحو جزيرة تايوان حتى رجعوا مرةً أخرى بعد أن أعلنوا استسلامهم التام وخضوعهم للنظام الحاكم الجديد.

في الأول من أكتوبر عام 1949 أعلنت قيادة الحزب الشيوعي الصيني قيام جمهورية الصين الشعبية وكان الحاكم الجديد هو (ماو تسي تونج).

سنوات (ماو) الضائعة

ما يزال الصينيون حتى الآن يضعون صوراً ضخمة لـ(ماو) عند مدخل كل مدينة، لكي يحاول الجميع تلمس خطاه وتتبع سيرته، ولا يزال أيضاً الآلاف حتى اليوم يذهبون لزيارة ضريحه لكي يلقوا نظرةً على الجثمان المحنط للزعيم الأسطوري، ويقيمون احتفالات سنوية في ذكرى مولده ووفاته تستمر لعدة أيام ويحضر إليها سياح من شتى أنحاء العالم.

عندمـا ننظر لفـترة حكم ماو بشـكل واقعي ومحايد نجـد أن ثلاثين في المائـة من إنجازاته أمـور جيدة والسبعين الأخرى سيئـة تماماً، إذ لعب ماو دوراً مهمـاً في استقلال البلاد، فعندما أعلن قيام جمهورية الصين الشعبية تزاحم قرابـة الثلاث مائة ألف شخص في ساحة تيانانمن، معلناً أمامهم أنه تم استعادة البلاد لكي يصـير حكمها ذاتياً، وأعلن أيضاً إجراء إصلاحات شاملـة لتحسـين أحوال الفلاحين ومـلاك الأراضي وكان هـذا الأمر مما أكسبه شعبيةً واسعة بين الناس.

بيـد أن الراحـل ماو جلب أيضـاً الكثير من البؤس والشقاء على بلاده وشعبه، ولعل أسوأ ما فعله يتلخص في أمرين:

القفزة الكبرى للأمام (1985–1961).

الثورة البروليتارية العظمى (1966–1976).

إذ لقـي ما يقرب من ثلاثـين إلى أربعين مليون نسمـة من سكان الصين مصرعهـم عـن طريق تلك الكـوارث، أراد مـاو زيادة الإنتـاج الزراعي والصناعـي لبلاده خلال فـترة (القفزة الكبرى للأمـام)؛ وبالتالي فقد قام بإنشـاء نظام خاص لسكان الريف عبارة عن وحدات تجميعية يحتشد في كل وحـدة آلاف من العمال أو المزارعين بشكل تعبوي وهدفهم من ذلك زيـادة الإنتاج عن طريق زيادة الجهد المبذول، لكن العكس تماماً هو ما قد حدث؛ فقد انخفضت معدلات الإنتاج بشكل جزئي ولكن ذلك بسبب بعض الكـوارث الطبيعية، وبنفس هذا السخـف استهدف زيادة الإنتاج القومـي من الصلب بأية وسيلة؛ فقـد أقيمت أفران لصهر المعادن حتى في أصغـر القرى، وكان يطلب من الفلاحين إحضـار كل ما لديهم من أشياء

يمكــن صهرها حتى أواني الطعام الخاصة بهم وذلــك بالطبع بدون مقابل ولصالح الدولة، وبسبب سياسة تقليل الاستهلاك وزيادة الإنتاج لقي أكثر من عشرة ملايين شخص مصرعهم بسبب أمراض سوء التغذية.

مــع بداية الستينات بــدأ ماو يعطي المزيد من الحريــات بعد أن انتعشت البلاد اقتصادياً بعض الشيء، لكنه سرعان ما شعر ببعض الانشقاقات التي تحــث بين صفــوف الشيوعيين فبــدأ في صيف 1966 (الثــورة البروليتارية العظمى) والتي يطلق عليها أيضاً (الثورة الثقافية)، استخدم خلالها الراتنج (الحــزب الشيوعي) ضد أولئــك المثقفين المنشقين سياسيــاً أبشع أساليب القتــل والتعذيب والنفي والتشريد، وكانت أداة ماو الفاعلة في تنفيذ ذلك هم الشباب من طلاب وتلاميذ وبعض المتعصبين من الحرس الأحمر، وقد انتهت المرحلة الأولى من هذا النزاع في أبريل/نيسان 1969؛ ولكن مطاردة المنشقين عن الحزب استمرت حتى عام 1976.

بعد فترة قليلة من انتهاء تلك المعارك الفكرية التي دارت على مدى عقد كامل توفي ماو، وقد أطلق على هذه الفترة اسم (العشر سنوات الضائعة)، وقــد تمكن ماو ورفاقه من تأسيــس اقتصاد صيني جيد في تلك الفترة لكن بعدما تسببوا في إصابة العقــل الصيني بحالة ضياع فكري، لكن الشعب الصينــي كان قــد اعتــاد منذ القــدم على مثل تلــك المعاناة فقــد مروا عبر تاريخهم بالكثير من الزلازل والفيضانات والحروب ولم يزد على كل ذلك في الفــترة الأخيرة غير (ماو)، لكنهم مازال يمكنهــم الحصول على ما هو أفضــل فقد حدثت ولادة جديدة لجمهورية الصــين الشعبية في عام 1978 على يد (دنج شياو بينج).

الانفتاح في ظل حكم (دنج شياو بينج)

كان أحـد رجال الدولـة؛ وبدونه لم تكن الصين لتصـل إلى ما هي عليه الآن، استطاع هذا الرجل القيام ببعض الإصلاحات الاقتصادية التي دلت علـى بعد نظره وأدت في نهاية الأمـر إلى ظهور تلك المعجزة الصينية التي نشهدها في عالم الاقتصاد اليوم.

حـاول دنج الإصلاح مراراً وتكراراً في عهـد ماو، لكن دائماً ما كانت تصطـدم آراؤه بتلك الأفكار الرجعيـة حتى وفاة ماو في يوليو 1977، كان دنج وقتهـا نائبـاً لرئيس الوزراء وأحـد أعضاء المكتـب السياسي للحزب الشيوعـي، لكنه كان يؤمـن بالضرورة الملحة للإصـلاح الاقتصادي وأن الصـين لا تـزال قابعة في العصر الحجـري والمراحـل الشيوعية الأولى في تاريخ البشرية.

في مارس/آذار 1978 ألقـى دنج خطابـه الأسطـوري في مؤتمـر العلـم القومي، حيث طالب الشعب الصيني بالنهوض في أربع مجالات: الزراعة، والصناعـة، والدفاع الوطني، والعلـم والتكنولوجيا، وذلك لكي تتمكن الصـين من مسايرة التطور العالمي، ولا يكون أمامها إلا هدف واحد وهو وضـع الصين بين القوى العالمية المتقدمة بحلول عام 2000، فقط عن طريق مضاعفـة الإنتاج القومي حتـى أربعة أمثاله في الفترة مـن 1980 إلى 2000 وهذا هو ما قد تم إنتاجه بالفعل.

بـدأت أولى إصلاحـات دنج السياسية في مجال الزراعـة؛ وأهم أعماله هـو سماحه للمزارعين بزراعـة جزء من أراضيهـم المستأجرة من الدولة

وفقـاً لرغباتهم، وإمكانية بيع ريعها لصالحهـم في الأسواق المحلية، كما عمل على زيادة دخل المزارعـين وتأمين احتياجاتهم اليومية، وبعد تحول قرارات دنغ في مجال الزراعة إلى واقع عملي وبدأت تؤتي ثمارها اتجه إلى الإصلاح في قطـاع الصناعة، أعطى مديري الشركات -مثل المزارعين- المزيد مـن الحرية، على سبيل المثال فقد أصدر بعضـ الأوامر التي تشمل بعضـ الإعفـاءات الضريبيـة على صافي ربـح الشـركات والتي رجعت بدورهـا إلى عجلـة الاستثمار ثانية ممـا ساهم في نمو اقتصـادي ملحوظ بمجال الصناعة.

أدى النجـاح الكبـير لتلك الإصلاحـات الاقتصاديـة إلى ظهور بعض الأصوات التي تطالب بالإصلاح السياسي أيضاً، بعد وقوع مذبحة هائلة في ساحة تيانانمين في يونيو/حزيران 1989 عندما تجمع العديد من الطلاب المناديـن بتطبيـق الديمقراطية ولكن حاصـرت قوات الجيشـ المتظاهرين ودهسـت الدبابـات الحربيـة بعضاً منهـم، لكن لم يظهر تقريـر دقيق عن أعـداد الضحايـا التي تجاوزت الألف، أحدثت هـذه المذبحة ردود أفعال غاضبـة في المجتمـع الغربي، لكن لم يستغرق ذلك وقتـاً طويلاً، فقد كان المجتمع الغربي ينظـر للصين باعتبارها شريكاً أساسيـاً في مجال الاستثمار الاقتصادي، في الوقت الـذي اهتمت فيه القيادة الصينية بقمع المعارضين السياسيـين كانوا يعملون بجد في الإصلاح الاقتصادي، وكانت هذه هي رسالة دنغ لشعبه وللعالم الخارجي.

كان عام 1992 من أكثر الأعوام نشاطاً في فترة حكم دنغ البالغ من العمر حينهـا 87 عاماً، كان هذا العام تحديداً هو المسار الحاسم للمزيد من تطوير

جمهوريــة الصين الشعبية الذي يمكن أن نطلق عليه، التطوير الأسطوري.
في يناير وفبراير زار دنج المدن الجنوبية؛ جوانجتشو، وشنتشن، وتشوهاي، وكلهــا تقع في مقاطعة كانتون (جوانجــدونج) كان يريد دنج أن يوصل إلى كل منتقديه الرسالة التالية:

«انظروا مــاذا تفعل الإصلاحات الاقتصاديــة، سيكون هناك المزيد من المــدن المزدهرة والمتقدمة زراعياً وصناعياً وأيضــاً سيكون هناك المزيد من فرص العمل».

بعــد وقت قصــير في ربيع 1992 أقر دنج بعضــ العقوبات على شانجهاي باعتبارهــا المعقل السابق للمعارضــين لسياسة بكين، في صيف 1992 عين دنج محافظ البنك المركزي تشو رونج جي منصب عمدة مدينة شانجهاي قبل أن يصبح رئيساً للحكومة في وقت لاحق.

بعد فترة من الهدوء النسبي استطاع دنج التقاعد حيث توفي بعد ذلك في فبراير/شباط 1997 لكي تحصل الصين على قيادة جديدة على يد تشو الذي تسلم مهام منصبه لتدخل الصين معه عهداً جديداً.

حكم التكنوقراط[1]

بعد حكم مــاو ودنج ظهر في الصين ما يسمى بالجيل الثالث من القادة؛ تشو رونج جي (الرئيس)، جيانج تسه مين (الأمين العام للحزب الشيوعي)،

---

(1) التكنوقراط هم النخب المثقفة الأكثر علماً وتخصصاً في مجال المهام المنوطة بهم، وهم غالباً غير منتسبين للأحزاب والتكنوقراط كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين (التكنولوجيا) وتعني المعرفة أو العلم، و(قراط) وهي كلمة إغريقية معناها الحكم، وبذلك يكون معنى تكنوقراط حكم الطبقة العلمية الفنية المتخصصة المثقفة (المترجم)

قال لي بنج (رئيس الوزراء).

جسدت هذه القيادة جيلاً كاملاً ممن لا يملكون ماض في العمل الثوري وكانوا أفضل بكثير ممن سبقهم فقد كان لديهم العديد من الشهادات والدرجات العلمية التي حصلوا عيها في مجالات العلوم المختلفة وأيضاً الكثير من الخبرة في مجال الإدارة البيروقراطية، يشرح سباستيان هايلمان الباحث في العلوم السياسية في كتابه (النظام السياسي لجمهورية الصين الشعبية والطرق الإدارية الحديثة)؛ يقول ما يلي:

«في الواقع إن العديد من هذا الجيل الجديد في القيادة الصينية يتعاملون مع المشاكل السياسية كنوع من أنواع التحدي بالنسبة إليهم، وبدون التصميم على آرائهم كما كان يفعل ماو ودنج في السابق، ولكن عن طريق تبسيط آليات العمل الإداري وتنظيمها».

تزايد التكنوقراط في التسعينيات، ليس فقط بسبب التفوق الإداري للحكومة الصينية ولكن أيضاً داخل الحزب والمؤسسات الإدارية التابعة للدولة، في نفس الوقت كانت تحدث جميع الانتقالات والتغيرات بين مديري المكتب السياسي القديم والجديد بسلاسة شديدة؛ بينما ارتبطت فيما سبق بصراعات ومؤامرات عديدة، ويلاحظ سباستيان هايلمان أن صعود التكنوقراط هو أكبر تغير سلمي حدث في التاريخ الصيني ويضرب على ذلك مثالاً بما حدث في أكتوبر 2002 حيث انتقلت الإدارة بدون أي خلاف واضح إلى الجيل الرابع من الزعماء.

(هو جين تاو) الرئيس الجديد للبلاد، و(ون جيا باو) رئيس مجلس الدولة، (وكلاهما من مواليد 1942) استطاعوا تحويل الصين إلى أكبر شركة

في العالم كما أكد ذلــك أستاذ الاقتصاد في الولايات المتحدة ليستر ثورو: «لدى الصــين الآن حكومة مركزية فاعلة، واستراتيجيات لتصميم وصنع القــرارات التي يمكــن تنفيذها»، في الوقــت نفسه تــكاد تخلو الحكومة الصينية من الايدولوجيا في طريقة عملها، إنهم أقرب إلى البرجماتية[1] في نموهم الاقتصادي الكبير.

لم تعد تستخدم المصطلحات الأيدلوجية والمفردات الفكرية إلا في داخل مؤتمرات الحزب، والخطــب الحماهيرية، والنقاشــات الماركسية اللينينية، أمــا في خارج تلك الدائرة وفي ســوق العمل فإن الحياة رأسمالية خالصة، تحــاول القيادة الصينية الحالية الانتقال من مرحلة الديكتاتورية البروليتارية التــي تعد المرحلة النهائية في الفكر الشيوعي، لدى القادة الصينيين العديد مــن الطموحات المختلفة جداً، يريــدون التحول من الماضي إلى عالم اليوم في موعد أقصاه غداً.

قوة عالمية عظمى جديدة/قديمة

انشغل رجال الاقتصاد على مدار السنوات الماضية بالرهان على فكرة: (الصين .. متى..؟؟)

ففــي الوقت الذي لا تــزال تستمر الصين في النمو بمعــدل سريع للغاية؛ يستمر الأوروبيــون واليابانيون والأمريكيــون في حالة ركود وانخفاض

(1) البرجماتية: مذهب البرجماتية في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، ويعني ببساطة أن المنفعة العملية هي المقياس لصحة أي شيء. (المترجم)

متزايد ومستمر لمعدلات نموهم، وتبقى مسألة التفوق الصيني على الجميع مجرد مسألة وقت لا أكثر.

حصل مؤخراً أحد المحللين الاقتصاديين على جائزة بنك جولدمان ساكس الاستثماري[1] في بحث تحليلي عبارة عن استقراء لمعدلات النمو في الدول الكبرى، وقد نشرت نتائج توقعاته تلك في دراسة بعنوان: (الحلم مع بريكس؛ الطريق لعام 2050)، وكانت نتيجة ما استطاع التوصل إليه أن الصين سوف تتحرك خلال العقود القادمة في جميع الدول الصناعية الكبرى، وسوف تتجاوز ألمانيا في 2008 واليابان في 2015 والولايات المتحدة بحلول عام 2039.

إن هذه الدراسة لا تتلاعب بالأرقام ولكنها تحاول إيصال رسالة مفادها أن الصين سوف تتفوق أكثر في المستقبل القريب، ولا أحد يشكك في مسألة أن الصين في طريقها لتصبح القوة الاقتصادية الكبرى في العالم.

ليس كثيراً على أمة بحجمها وحضارتها التي تتجاوز الخمسة آلاف عاماً وخاصةً بعدما أصبحت قوة سياسية لها وزنها لدى الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان، ووفقاً لتوقعات المؤرخ بول كينيدي في تاريخ العالم من حيث الصعود والانهيار، توقع حدثاً مهماً في كتابه (صعود وانهيار القوى العظمى)، وهو أنه عندما تنهار أمة عريقة فإنها لا تلبث أن

(1) مجموعة جولدمان ساكس هي شركة الاستثمار المصرفي العالمي وشركة الأوراق المالية التي تشترك في الخدمات المعرفية الاستثمارية، وإدارة الاستثمار والخدمات المالية الأخرى. تأسست شركة جولدمان ساكس في عام 1869، ويقع مقرها الرئيسي في مدينة نيويورك. وتملك الشركة مكاتب في جميع المراكز المالية الدولية الرئيسية. وتقوم عمليات الدمج والتملك والاستشارة وإدارة الأصول وخدمات الأوراق المالية لعملائها؛ والتي تشمل الشركات والحكومات والأفراد من أصحاب الثروات في مختلف أنحاء العالم. (المترجم)

تعاود الظهور من جديد.

تعرضـت الحضـارة الصينية للكثير مـن الإذلال على أيـدي الأجانب، وكانـت على مـدار أكثر من ستة قـرون لا تلعب سـوى دور ثانوي على هامش تاريخ العالم، لذلك فإننا نعيش الآن نقطة تحول تاريخية كبرى، لأن أعظم أمة على وجه الأرض ستعود من جديد كقوة عالمية عظمى؛ وسوف يتبع هذا العديد من العواقب الخطيرة علينا جميعاً.

الفصل الثاني

ملايين العقول الذكية

من المخترعين والعائدين والناسخين

«إننــا نعيشــ الآن عصر نهضة فكرية في الصين، وهــو يتسع ويتعمق كما حدث في عصر النهضة الغربية منذ بضع مئات من الســنين».
عزرا فوجل – جامعة هارفارد

نــادى البعض في الغرب منذ بضع سنــوات بحتمية إدراك التحرك نحو مجتمــع معرفي جديد من شأنه تكويــن إدراك جديد للشعوب والذي يعتبر مــن أهم عوامل زيادة الإنتاج، وهــذا عن طريق الاستمرار في توجيه تعلم الأفراد.

في الصــين ينظر المرء نحــو تلك الأفكار (الجديــدة) بسخرية، فقد كان كونفوشيوس يلقنهم في تعاليمه منذ أكثر من 2500 سنة أن التعلم هو أفضل الأمــور، وكان الصينيــون يستوعبون هــذا الأمر جيداً علــى مدى قرون طويلة مضــت، فقد كانت الصين أمة التعلم والجــوع، وبعد عدة سنوات مــن الفوضى والثورات الثقافية التــي كان ينكل فيها بالمثقفين بلا برحمة، بدأ الإصلاح الثقافي في السنوات التالية كمشهد للتحرر الفكري.

كانت الأمة بأكملها تتعلم عن طريق الدروس الخصوصية، كانوا يرسلون الأطفال في سن مبكرة لتعلــم دروس اللغة والموسيقى قبل ظهور المدارس والجامعــات وانتشارها في وقــت لاحق، كانت تحض الدولــة دائماً على الاستمرار في التعلم من خلال تشكيل المؤسسات التعليمية التي تسعى إلى التقدم باستمــرار، بدأ الأمر بجامعة في بكين وأخرى في تشينجهوا، وقد احتشدت النخبــة المثقفة وتكاتفوا في تشييد معاهــد بحثية للمرحلة التي تلي الجامعة مثل الأكاديمية الصينية للعلوم.

استطاعت الصين الإفادة من العدد الكبير للسكان والذي يبلغ نحو 1,3

مليـار نسمة؛ في اختيار الكوادر المتعلمـة، فمن بين 250 مليون من تلاميذ المدارس الابتدائية يستطيع خمسة ملايين فقط من أفضل العقول الوصول إلى الجامعـات، وتستغـل الصين تلك الميزة أكثر وأكـثر كما كتب جورج بلومه في صحيفة دي تسايت الأسبوعية:

«لـن تتصدى الصين للغرب بالدبابـات والصواريخ؛ على غرار الاتحاد السوفييتي القديم، وليس أيضاً مـن خلال السيارات والأجهزة اللاسلكية كمـا فعلت اليابان، ولكـن الصين سوف تنافس الغـرب من خلال القوة العاملة الرخيصة والعقول الأكاديمية الماهرة».

تتضمـن إستراتيجيـة الحكومـة الصينية دراسـة الكـوادر التعليمية في الخـارج، لكي يخـرج من بينهم من يتحمـل مسؤولية الحكـم فيما بعد، ومؤخـراً التحـق 95 من كبار المسؤولـين بدورة تدريبية في مجـال الإدارة العامة لمدة ستة أسابيع في جامعة هارفارد الأمريكية.

لا يوجـد بلد في العالم كلـه لديه كل تلك الأعداد مـن الطلاب المغتربين الذين يدرسون بالخارج مثل الصين، ففي الولايات المتحدة تحتل الصين منذ زمن طويل المرتبة الأولى في نسبة الطلاب الأجانب، والأمر نفسه نجده في بريطانيـا، وحتى في ألمانيا؛ فإن العديـد والعديد من الصينيين يحضرون في الجامعات والمؤسسـات التعليمية الألمانية، وعلى سبيـل المثال فإن مؤسسة مثـل همبولت الألمانية والتي تقدم العديد من المنح البحثية فإن أغلب الذين يتقدمـون إليهـا من الصين، وهـذا الأمر يحدث في ألمانيـا كما حدث من قبل في الولايـات المتحدة، ومعظم الذين يأتون للدراسة في ألمانيا لمدة أربع سنـوات جامعية يـؤدون بعدها الامتحان النهائي بشـكل ممتاز، ثم يظلون

مقيمـين في البلـد المضيف لسنتـين أو ثلاث أخرى للحصـول على الخبرة العمليـة في إحـدى الشـركات أو المؤسسـات ثم يعودون مـرةً أخرى إلى وطنهم، ويشكل مئات الآلاف مـن العائدين إلى وطنهم المحملين بالعلوم والخبرات؛ خليطاً من التجارب الإنسانية التي لا مثيل لها في العالم، بالتأكيد لو كان كونفوشيوس موجوداً لاستقبل العائدين من ذريته بفرحة عظيمة.

أطفال مدللون

بيلا.. طفلة صغيرة في العاشرة من عمرها، تمثل الطفولة غير المرحة نظاماً أساسياً لأسلوب حياتها اليومية؛ كما وصفت صحيفة وول ستريت روتين حياتها اليومية بأنه يشبـه تقريباً نظام المدير المشغول طوال الوقت، تنهض الفتاة الصغيرة من فراشها في تمام السادسة صباحاً لتستقبل يوماً حافلاً مليئاً بالتعلم، إنها ترغب في هذا الأمر كما أن أبويها أيضاً يريدان لها ذلك، بيلا هـي الابنة الوحيدة لـ(وتشو) و(تشي) اللذيـن يبذلان كل ما في وسعهما لمساعدتهـا؛ فقد انتقلا للسكن في شقـة جديدة على مقربة من مدرستها، تعتـبر مدرسة (يانجـو) الابتدائية هي مدرسة النخبـة في شنجهاي، حيث يدفعـون لبيلا 1500 دولاراً سنويـاً في الوقت الذي يبلغ مجمل دخل الأسرة فقـط 4000 دولار في السنـة، تمثل مصاريف بيلا فقـط أكثر من ثلث دخل الأسرة؛ ولكن لأنهم ينظرون لمسألة تعليم بيلا باعتباره نوعاً من الاستثمار المستقبلي لأسرتهم ولبلدهم، لأن بيلا من خلال التعليم الجيد سوف يمكنها كسـب الكثير من الأموال في وقت لاحق مـن خلال الوظيفة التي سوف تتـاح لها بعد التخرج، تتمنى بيـلا أن تصبح محامية، وتحلم بكسب الكثير

مــن المال عن طريق مهنتها تلك في المستقبل، وهي لا تحلم بمفردها، فوفقاً لاستطـلاع للرأي أجرتــه إحدى المجلات في شنجهــاي على من هم في المرحلــة العمرية من سن 12 إلى 18 سنة؛ كان 53 ٪ منهم يرغبون بالحصول على فرصــة عمل ناجحة بينما 41 ٪ يحلمون بــأن يصبحوا من أصحاب الملايــين، ويحاول الآباء والأمهــات مساعدة أبنائهــم بكافة الطرق لكي يتمكنوا من تحقيق أحلامهم.

إن ما يحدث في داخل الأســر الصينية التي أنجبت طفلاً وحيداً يعد أمراً فريــداً من نوعه عن أي بلد آخــر، فإن مجمل الأموال التي ينفقها الصينيون علــى تعليــم أبنائهم بلغ 40 مليــار دولار في عام 2002 ثــم زاد إلى 90 مليار دولار بحلول عام 2005 وفاقاً لإحصاءات العديد من الخبراء في هذا المجال، وينتشر أيضاً بين الأسر الصينية مساعدة الأجداد لتلك الأسرة وحيدة الابن: (فم واحد يطعمه ستة جيوب)، يقصدون الابن الوحيد الذي يرعاه أبوان وجــدان من ناحية الأب وآخران من ناحية الأم، ويتحدث (شيه وي خه) نائــب رئيس الجامعة التربوية في بكين في مقال لصحيفة دي تسايت: «إن الاهتمــام الرئيس اليوم لدى الأسر الصينية موجه فقط نحو التعليم؛ وحتى الأسر الفقيرة ترغب في مستقبل جيد لأبنائها».

كما أن دور رعاية الأطفال قبل المرحلة الابتدائية تحولت إلى مشروعات استثماريــة للقطاع الخاصــ، كما يحدث في هونغ كــونغ وتايوان، وهذه الرياضــ الأطفال الخاصــة تكون مصروفات الالتحاق بهــا باهظة للغاية؛ بحيث يصل البعض منها إلى عشرة آلاف دولار في السنة الواحدة، ويقول دولســي ليم وولر مديــري شركة ديزني في هونغ كونغ وفقــاً لما نشرته مجلة

بيزنس ويك: «الاستثمارات الترفيهية الأمريكية لرياض الأطفال تعمل ببراعة شديدة في الصين، لأن الجميع هناك يحاولون توفير مناخ جيد يساعد الأطفال على اكتشاف مواهبهم الخاصة وتنميتها».

الأكثر طلباً

تعد دراسة اللغة الإنجليزية والتمرين على فن رقص الباليه ودروس العزف على البيانو هي الأمور الأكثر طلباً وهذا لا يتوقف على رغبة الآباء في توجيه أبنائهم ولكن على مقدرة الطفل ومميزاته الفردية التي تؤهله لذلك، وبالفعل فإن الأطفال الذين ينبغون في بعض الأمور منذ الصغر تظل مرافقة لهم طوال مراحل التعليم وبعد التخرج في الجامعة.

الحياة أصعب مدرسة

في تموز/يوليو من كل عام تتكرر تلك المأساة بنفس فصولها في العديد من العائلات الصينية، يؤدي ملايين الطلاب اختبارات الفيزياء أو الرياضيات أو الكيمياء أو الجغرافية أو اللغة الإنجليزية، وعلى مدى ثلاثة أيام يسميها البعض (الأيام السوداء) ويترتب على تلك الاختبارات وصول عدد من هؤلاء الطلاب إلى المرحلة الجامعية، ويستعد لتلك الاختبارات معظم خريجي المدارس الثانوية، حيث يعدون العدة لهذا اليوم الحاسم، كذلك الوالدين فهما ليس أقل عصبية من أبنائهم، فتلك الاختبارات هي التي تقرر حصول أبنائهم على مقاعد جامعية أم لا؟

وبعض الدين لا يجيدون التعامل مع تلك الضغوط يفكرون في

الانتحـار؟ فقد أثبتـت الدراسات أن واحداً مـن كل خمسين ناجح في الثانويـة تراوده فكرة الانتحار في أثناء فـترة الامتحانات تلك، وبالرغم من ذلـك فإنه في تموز/يوليـو 2004 تقدم 7,23 مليـون طالب للقتال من أجـل الحصـول على مقعد في الجامعـة من بين أربعة ملايـين مقعد فقط هـي المتاحة، وعلى الرغم من تزايد عدد السـكان باستمرار فإن العرض لا يواكب الطلـب؛ لذلك فإن كل شخصين يتنازعان للوصول إلى مقعد واحد في الجامعة.

وتلـك الامتحانـات الصينيـة الصعبة ترجـع أصولهـا إلى تقاليد قديمة أدخلتها أسرة هان (حكمة الإمبراطورية الصينية من عام 200ق.م. إلى عام 220م.) وطوال تلك القرون الماضية تم تعديل طرق وضع الامتحان مرات عديدة ومع ذلك تظل دائماً في غاية الصعوبة.

ويعـد اجتيـاز امتحان تحديد القـدرات والمهارات الفكريـة هو الشرط الأساس والسبيـل الوحيد الذي يمهد للشباب فرصـة الوصول إلى مراكز إداريـة في السلطة الإمبريالية، فقط عن طريـق التعليم العالي الجيد يستطيع الفرد الارتقاء بمستوى معيشته، وتعديل وضعه الاجتماعي، والمشاركة في المنظومة الاقتصادية المزدهرة للبلاد.

والنظام الدراسي هناك هرمي التدرج؛ ويبنى على الطاعة العمياء، ويعطي الأولوية للأداء الجيد في الاختبارات؛ يربي طلابه على حفظ كميات كبيرة من النصوص؛ دون الحاجة لها فينتج طلاباً ذوي ذاكرة قوية ويتمهلون في التفكـير واتخاذ القرارات، ونتيجة لذلك: «النهم الهائل في دراسة العلوم والرياضيات بشكل نظري لا تكون لديهم المقدرة على المناقشة في داخل

حلقـات بحثية»؛ كما يقـول الأمريكي كيفن كروتشـت الذي درس في إحـدى المدارس المتوسطـة في سوتشو -معلقاً على أن قلـة النقاش تخلق مناخاً غير ملائم للإبداع- ويقول (لي تاينج) رداً على تساؤل عن المقدرة الإبداعيـة للطلاب الصينيين: «لدينا نظام جيد في الصين يمنع الإبداع، إننا نزود الطلاب بالمعرفة الميكانيكية».

بيما أدرك واضعـو السياسات التعليمية في كوريا وسنغافورة أن تزويد الطلاب بالمعرفة فحسب لا يصلح للتعامل خلال القرن الحادي والعشرين؛ لذلك قرروا بـدء إصلاحات تعليمية تهدف إلى زيـادة المساحة الإبداعية لـدى الطلاب، وكذلك رأت الحكومة الصينيـة في أواخر التسعينيات أن نظامهـا التعليمي قد أصبح باليـاً وعفا عليه الزمن وينبغـي المبادرة بتقديم المزيد من الإصلاحات لتطوير السياسات التعليمية الخاطئة.

في أيلول/سبتمـبر 2001 بدأت إصلاحـات التعليم مع أكثر من 420 ألف طالـب وتم وضع برنامـج يكتمل في موعـد أقصـاه 2010 وأصبح النظام الحديـث الآن يعتمد أكثر على الحـوار بدلاً من التلقين، ومع الإصلاحات الشاملة للتعليم في المدارس سوف يستعد الطلاب الصينيون بشكل أفضل لمواجهة الحياة بعد ذلك في المرحلة الجامعية.

جامعات خاصة بالنخب

في الوقـت الذي تـدور فيـه النقاشـات في ألمانيا حول الحاجـة لإقامة جامعـات خاصة بأبنـاء النخب؛ كان هـذا موجوداً بالفعـل لدى الصين (الشيوعيـة) منـذ مدة طويلة، ويعـد هذا أمراً جيـداً في صالح البلاد التي

تحاول اللحاق بركب التطور التكنولوجي.

توجـد العديد من الجامعات في الصين التـي يطلق عليها (جامعات النخـب)، قامت أكاديمية العلـوم الإدارية بعمل رصـد شامل وتقييم لتلـك الجامعـات واختـارت في مقدمتهـم أربـع جامعـات: (بيدا) و(تشينجهـوا) في بكـين، و(فـودان) في شانجهـاي، و(تشيـانغ) في هانجتشـو. وكانت مـن أفضلهم جامعتـي بيدا وتشينجهـوا، وسيتم تمويلهـم من قبل الحكومة المركزية، وتحصل هاتان الجامعتان على دعم مـالي قدره 360 مليـون يورو سنويـاً في إطار برنامـج لتشجيع ودعم جامعـات النخب؛ في حين أن باقي الجامعـات في كل البلاد الصينية تحصل فقط على 240 مليون يورو.

تقـع جامعتي بيـدا وتشينجهوا في شمال غرب بكـين، وقد تأسستا في مطلـع القرن العشرين، في مقاطعة هايديـان، وهو حي راقٍ يعج بالشباب المرفهـين والأجواء فيه تنبض بالحياة، وقـد أوجدت تلك الجامعات فرصاً لتوظيـف خريجيها في كبرى الشركات متعـددة الجنسيات، وبالرغم من وقوع الجامعتـين بجوار بعضهم البعض تقريبـاً واشتراكهما في أمر كثيرة فيمـا بينهم إلا أن جامعة بيدا كانت تعتبر دائماً هي حامعة (الثوريين)، في حين أنه ينظر لطلاب تشينجهوا باعتبارهم من المترفين.

وقـد انطلقت معظم الأنشطـة والحركات الطلابية مـن جامعة بيدا في الوقـت الذي كان يتحصن فيه طلاب تشينجهوا داخل مبانيهم، لا عجب إذن عندما نرى جامعة بيدا في مقدمة الإصلاحات الجامعية، وحتى وقت قريـب كان الأستاذ الجامعي في الصين يظل متفرداً بمنصبه لوقت طويل لا

يجـرؤ أحد على منازعته أو معارضته لكن تلـك الأيام قد ولت وعاصفة التغيير تجتاح جميع الجامعات الآن.

«التحركات الداخليـة ضعيفة بينما التفاعل الخارجي مع الآخرين قوي ومؤثر» هكذا قال تشانغ فاينج الذي يدير خطة تنفيذ الإصلاح في جامعة بيدا وفقاً لصحيفة تشينا ويكلي؛ لم يشكك تشانغ في أن جامعة بيدا واحدة مـن أسـوأ الجامعات في انغلاقها علـى نفسها، منذ ظهـور بيدا في قطاع التعليـم الجامعي الصيني وقد صارت أنموذجاً يحتذى به، وتبعتها في ذلك جامعات أخرى، جامعة تشينجهوا تعمل الآن على التوظيف من الخارج، بـل إنها قد ذهبت لخطوة أبعد من ذلك فهي تعمل على جلب واستقطاب ثلاثين أستـاذاً جامعياً من خارج البلاد للتدريس فيهـا لبضعة أشهر وكان من بينهم أساتذة من هارفارد [1] يعمل بعضهم لدى صندوق النقد الدولي، لدرجة أنهم قد نجحوا في إحضـار جون ثورنتون؛ رئيس التحرير السابق لصحيفـة وول ستريت وأسطورة جولدمان ساكس، وصل إلى تشينجهوا وفـوق أكتافه حمل خمسين عامـاً من الخبرات والتجـارب في عالم المال والاقتصاد.

تشعـر هنا بشيء غامض؛ كما لو أنك عـثرت على عالم جديد، وعندما نظـر ثورنتـون في مسألـة جامعات النخـب في بكين؛ وجـد أن: النسبة بـين الطلاب والمعلمين تكاد تتساوى مع النسـب الأمريكية في مثل تلك

(1) جامعة هارفارد هي أقدم وأعرق الجامعات الأمريكية والجامعة الأولى في الترتيب العالمي للجامعات، تقع في مدينة كامبردج بولاية ماساتشوستس الأمريكية، أسسها جون هارفارد عام 1636 لتناظر جامعتي كامبريدج واكسفورد في بريطانيا (المترجم)

الجامعات، ثلاثة عشر ألف طالب في مقابل تسعمائة أستاذ ومعلم جامعي في تشينجهوا، ولا يختلف الأمر كثيراً عنه في بيدا، ومن أجل أن يظل الوضع مستقراً هكذا في المستقبل فإنه يتعين عليهم قبول عدد قليل جداً من الطلاب سنوياً (تستقبل بيدا ثلاثة آلاف طالب سنوياً بينما تستقبل تشينجهوا فقط ألفان) حشد قليل ولكن بمستقبل أفضل.

أولئك الذين درسوا في بيدا أو تشينجهوا قد صاروا الآن في الطليعة ويحتلون مناصب مهمة في بعض المؤسسات العالمية ولديهم سمعة جيدة في العالم كله، ومن المتوقع أن تصبح معايير الجودة في تلك الجامعات مقياساً للجودة في جامعات النخب الغربية لأنها استطاعت التفوق عليها، حيث تعد جامعة بيدا ذات ريادة عالمية في مجالات: تكنولوجيا المعلومات، والطب الحيوي، وتكنولوجيا النانو[1]، وفي المقابل فإن تشينجهوا تتميز أكثر بالعلوم الإنسانية ولكن لديها كليات طب قوية، وبالرغم من الاهتمام الرسمي بجامعتي بيدا وتشينجهوا فإنه توجد ثلاثون جامعة حكومية أخرى لم تهملها الدولة، لأننا نجد أن عدد الطلاب في تلك الجامعات الأخرى قد تضاعف بين عامي 1992 و2002 إلى أربعة أمثاله تقريباً، وزاد عدد الموظفين إلى النصف، وقد بدأت وزارة التربية والتعليم في تنفيذ خطة لزيادة جامعات النخب منذ عام 1993، وكان التركيز في هذه الخطة يهدف

---

(1) تكنولوجيا النانو أو تقنية الصغائر هي دراسة ابتكار تقنيات ووسائل جديدة تقاس أبعادها بالنانومتر وهو جزء من الألف من الميكرومتر أي جزء من المليون من المليمتر. عادة تتعامل هذه التقنية مع قياسات بين 0.1 إلى 100 نانومتر أي تتعامل مع تجمعات ذرية تتراوح بين خمس ذرات إلى ألف ذرة. وهي أبعاد أقل كثيراً من أبعاد البكتيريا والخلية الحية. ولكنها حتى الآن لا تختص بعلم الأحياء، بل تهتم بخواص المواد. (المترجم)

إلى الوصــول بمستــوى التعليم إلى أفضل مراحله في العــالم مع بداية القرن الحادي والعشرين.

ذهــب يورجن ملينيــك رئيس جامعة هومبولت[1] عــام 2002إلى الصين لدراسة مشاريع التوسع الجامعية هناك، وقال في كلمته التي ألقاها في حرم إحدى الجامعــات الصينية: «هكذا ينبغي أن يكون إصلاح التعليم العالي، إن مــا يحــدث في ألمانيا مــن تطور في هــذه المسألة يبــدو متواضعاً بعض الشــيء مقارنةً بالصــين»، ومن أمثلة تلك الإصلاحــات الصينية المشروع 211 الــذي نمــا بالجامعات الصينية للوصول بهــا إلى درجة لا تقل فيها عن جامعــة هارفارد، مائة من أساتذة هارفارد يقومون بالتدريس في جامعات صينيــة مختلفة؛ وهذا رقم ضخم جــداً ويثير الإعجاب بشدة، وفي الوقت نفســه نجد أن آلافاً من الطلاب الصينيين يحصلون على فرصة للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية.

العائدون من الولايات المتحدة

أصبحــت الحكومة الصينيــة شديدة الكرم مع رعاياهــا الذين أقاموا في الولايــات المتحدة بهدف العودة للإقامــة في وطنهم من جديد، بالطبع لا يقــدم شيء مجاني ولكــن تم دعم تذاكر الطيران لتصبــح بثمن أقل وقدمت الفنــادق عروضــاً للإقامــة بأسعار زهيــدة للعائدين من أمريــكا، وتجري

(1) جامعة هومبولت: أسسها الليبرالي البروسي المصلح فلهلم فون هومبولت في 1810 في برلين، وتعد من أقدم وأعرق الجامعات الألمانية (المترجم)

الحكومـة تسوية تلك الأمور الماليـة بسخاء شديد في إطار خطة موضوعة لاستقطـاب أكبر عدد من الصينيـين المقيمين بعيداً عن أوطانهم خاصةً في الولايات المتحدة.

لأكـثر مـن عقدين مضيـا كان يذهب الطـلاب الصينيـون للدراسة في الخـارج وخاصـةً في الولايات المتحـدة، ويمكثون هناك بعـد انتهاء فترة دراستهـم لأنهم يجدون في تلك البلاد المضيفة لهم زيادة في فرص العمل وفرصاً أفضل لتحسين الدخل. لم تسر حكومة بكين بهذا الأمر وبدأت في وضع خطة لاستعادة عقول أبنائها والإفادة منهم في وطنهم.

في العشريـن عاماً الماضية درس ما يقرب من ستمائة ألف صيني خارج الصـين، كانت الغالبيـة العظمى منهم مـن نصيب الولايـات المتحدة، لم يذهبوا كي يدرسوا في جامعات ضعيفة من الدرجة الثانية ولكنهم درسوا في أفضـل الجامعـات هناك: يـالي، وهارفـارد، وبرنستـون، وكورنيل، وكولومبيا، ودارتموث، وبراون، وبنسلفانيا، وبيركلي، وستانفورد.

وبطبيعة الحـال فإن الأماكن التـي يتجمع فيها الصينيـون بأعداد كبيرة يكونـون روابط ومنظمات خاصة بهم على سبيـل المثال: رابطة الطلاب والعلمـاء الصينيين في جامعتـي ستانفورد وبيركلي، ويعـد الصينيون هم الأكـثر تنظيمـاً في الجامعـات الأمريكية، وهـم هناك كمـا وصفهم عالم الاجتماع والفيلسوف الألمـاني يورجن هابرماس: «يثير التفوق الآسيوي والنجاح الصيني في الجامعات الأمريكية الحسد بين زملائهم من الطلاب الأمريكيين؛ لذلك فإنهم يسخرون منهم بشدة منذ الثمانينيات كالأطفال الصغار، إلا أن تلك النظرات والمخاوف الشديدة من وصول الصينيين إلى

مناصــب عالية هناك بسبب تفوقهم العلمــي تتصاعد في الدوائر السياسية الأمريكيــة؛ لأنهــا سوف تــؤدي في النهايــة إلى قــوة الصينيين في مختلف المجالات».

مــن بين الستمائة ألــف صيني الذين سافروا للدراســة في الخارج لم يعد منهــم إلى الصــين ســوى مائة وستــين ألفــاً، ويشبهــون في عودتهم تلك السلاحــف: تخرج من بيضها على اليابس (الصــين)؛ ثم تسبح نحو الماء (أمريــكا)؛ وبعد أن تكبر فيها ترجع مــرةً أخرى إلى اليابس بعد أن تكون قد اكتسبت قوةً وصلابة.

تقول العالمة آنا لي الأمريكية عن أولئك العائدين: «ليست هجرة عقول؛ لكن تبادل للخبرات والتجارب».

يذهبون للدراسة ثم العمل ومن ثم يرجعون للولايات المتحدة بين الحين والآخــر ليظلوا على اتصال بمعارفهم هنــاك، فهم يعيشون في كلا العالمين على حد سواء إن جاز التعبير.

وتنظــر الحكومــة الصينية نحو أبنائهــا العائدين من الخــارج بقدر كبير مــن الأهمية؛ فتنظــم مؤتمراً سنوياً، كما يحظون برعايــة شديدة وود فائق مــن الرئيس الصيني (هو جين تــاو)، ورئيس مجلس الدولة (ون جيا باو)، وجميــع العاملــين في مختلف المجالات يــرون في أولئــك العائدين أهمية كبرى في المساهمة لإنجاح الاقتصاد الصيني وازدهاره ورعاية المجتمع.

هناك العديد من البرامج التــي تضعها الحكومة الصينية لجذب المواطنين المتميزيــن الذين يعملون في خــارج البلاد؛ فيغرون من يعــود بالإقامة في منــازل فخمة والحصول علــى راتب أعلــى ومنح مالية تــتراوح بين مائة

ومائتـي ألـف يورو، وقـد نجحت تلك الإغـراءات الماديـة في استقطاب العديد من العلماء ورجـال الأعمال الصينيين أصحاب المشاريع الضخمة في الولايـات المتحدة الأمريكية؛ فعلى سبيل المثال مدير موقع sina.com على شبكة الإنترنت (دانيال ماو)، والعضو المؤسس والمشارك في مجموعة شـركات إيشنـت الأمريكية (هاي سن تـان)، والعديد مـن المتخصصين في مجالات: البحـوث الصناعية، والتكنولوجيـا الحيوية، والمستحضرات الصيدلانيـة، وغيرهم، كما تم البدء في تشغيـل العديد من المشاريع المهمة بمبادرات من بعض أولئك العائدين.

عندما يصبح العلماء رجال أعمال

اتخذت جامعة تشينجهوا عدة خطوات لجعل أبنائها أكثر تميزاً، فنظمت مسابقـة سنوية لأفضل خطة عمل؛ وهي تعتبر واحدة من أوائل الجامعات التـي قامت باحتضان طلابهـا بداخلها فيما يعـرف بـ(تشينجهوا بايونير بـارك)، وهذه الفكـرة تتلخص في أن يتحول الطـلاب بعد تخرجهم إلى المشاركة في إقامة مشاريع علمية استثمارية يحصلون فيها على دعم يصلح كبدايـة ثم يتوسعون بناء على ما يتيحه نشاطهـم خطوة بخطوة في طريق العمـل الحر. على سبيل المثال (ليو جرين)، حصـل في أواخر الثمانينيات علـى شهادة الدكتوراه في مجال علوم الكمبيوتر من جامعة نورث إيسترن في مدينة شيانج، وبدأ بالفعل في التدريس في الجامعة ولكنه اكتشف ميوله التجاريـة؛ فتمكن بمساعـدة مالية من الجامعة في إنشـاء شركة نيو سوفت للبرمجيـات، يعمل الآن لـدى نيو سوفت أكثر مـن خمسة آلاف شخص،

وتحقق الشركة أرباحـاً سنوية تقدر بـ(250) مليون يورو سنوياً ولها العديد من المشاريـع المشتركة مع كبرى الشركات العالمية مثـل: نوكيا، وتوشيبا، وساب، ولا تزال تحصل جامعة نورث إيسترن حتى الآن على نسبة الثلث في الأرباح مقابل مساعدتها في أصل رأس مال الشركة.

لم يحدث هذا مع (ليو جرين).بمفرده، يقول الأمريكي (روبرت تيليين) مؤسـس ورئيس مجلس إدارة إحدى الشـركات الرأسماليـة الكبرى في حديـث لمجلة فوربس: «إن الجامعات هي واحدة من أكـثر المناطق التي ساهمت في النمـو الاقتصادي السريع للصين في العشـر سنوات الماضية؛ لأن الجامعـات الصينية توفر ظروفاً مثالية للاستثمـار كما أنها تمثل مركزاً للإبداع الفكري».

لكـن في المقابل فـإن بعض تلك الأنشطة الاستثماريـة لم يحظ بالنجاح اللازم؛ لذا قررت الحكومـة الصينية في منتصف الثمانينيات إيقاف تمويل العديد من مراكز الأبحـاث الاستثمارية التي كان أصحابها يهدفون فقط للإفادة من الدعم المالي المقدم لهم، وكانت وجهة النظر الحكومية أنه ينبغي علـى تلك المراكز الاتجاه للتمويل الذاتي عن طريق تسويق تكنولوجياتها، ولكـن أيضـاً بعضاً مـن تلك المراكـز نجـح في الاستمرار وتوفـير فرص عمل بالآلاف وتـدرج أسمائها في البورصة باعتبارهـا من أكبر المشاريع الناجحـة، ومن بين هؤلاء: شركة (تونجفانغ تشينجهـوا) التي تسمى الآن (لينوفـر)، وكانت قـد تأسست في منتصف الثمانينيـات، وأنشأها بعض العلمـاء المتخصصين في مجـال تكنولوجيا تصنيع الكمبيوتـر، وعمل بها العديد من أفضل الكوادر العلمية وأذكى العقول في البلاد.

حاويات ضخمة للأفكار

يتحدث (يونغ شيانغ لو) الألمانية بطلاقة ولا عجب من ذلك لأنه قد حصل على درجة الدكتوراه من جامعة العلوم التقنية في مدينة آخن الألمانية، ويعمل اليوم في الأكاديمية الصينية للعلوم مع سبعمائة آخرين ممن يعدون من أعظم العلماء الصينيين، وتقف اليوم هذه الأكاديمية بمحاذاة الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة والجمعية الملكية البريطانية للعلوم. يذكر أنها أنشئت في عام 1949 مع بداية الإعلان عن الجمهورية الشعبية في الصين، وبخلاف الجامعات؛ فإن تلك الأكاديمية لا تعمل إلا على أبحاث الأكاديميين المتخصصين فقط، وقد لعبت تلك الأكاديمية دوراً مهماً في أثناء ثورة الإصلاح السياسي والثقافي في أواخر السبعينيات.

اليوم توجد ثلاث أكاديميات نتحت عن الأولى، أكاديمية العلوم الاجتماعية 1977، وأكاديمية العلوم الهندسية 1994، وتعتبر تلك الأكاديميات اليوم بمثابة حاويات ضخمة للعقول الصينية؛ إذ يتبعها أكثر من مائة وعشرين مؤسسة ومعهد علمي وستين ألف موظف وعشرين ألف باحث، ومثل المصانع الصينية (الحقيقية) تقدم تلك الأكاديميات فوائد وخدمات على نطاق واسع للغاية عن طريق المشاريع الخدمية التي تتبعها.

دعم رئيس الأكاديمية (لو) الباحثين الشبان؛ فبعد ما كان أغلب أعضائها في سن السبعين فإن معظم العاملين الآن لا يتجاوز عمره الخامسة والأربعين وأجبر الكبار على التقاعد لإتاحة الفرصة للشبان، كما غيّر (لو) في قواعد إنتاج الأبحاث؛ التي كان يحكمها قانون: (ما الذي يعود

بدخل أفضل؟)؛ ليقيم برامج بحثية تنمي مجالات المعرفة والابتكار، وكان (لـو) في قراراتـه تلك يتبع الفكـر الغربي القائم على مبـدأ: (لا يمثل المال أدنى مشكلـة)؛ وذلك عند الحديث عن مشاكل تمويـل الأبحاث العلمية هناك، وقد اكتسب ذلك من خلال حراته السابقة أثناء فترة رئاسته لجمعية ماكس بلانك البحثية والجمعية الألمانية للأبحاث الاجتماعية.

وقـد ضاعفـت الحكومـة الصينيـة ميزانيتها التـي كانـت تنفقها على أكاديميات البحث العلمـي، كما أن بعض الصينيين المخلصين لوطنهم من المقيمين بالخـارج يدعم تلك الأكاديميات بإرسـال شيكات لها بين الحين والآخر، وهناك اهتمام فائق في مختلف الأكاديميات بالأبحاث الاقتصادية التي يعدها الحاصلون على درجة الماحستير في إدارة الأعمال.

هدف الحصول على ماجستير إدارة الأعمال

تمت مناقشة ثلاث رسائل علمية كتبت عن الشباب الصيني أولئك الذين يحاولون الحصول على درجة الماجستير في مجال إدارة الأعمال، وهل يعد انتشـار مثـل تلك الظاهرة شيء جيـد أم لا؟ لأن كثيرين يستخدمون تلك الدرجة العلمية كتذكرة للحصول على مهنة مربحة في عالم الأعمال.

منـذ ثلاث أو أربع سنوات لم يكن ينتشر مثل هذا الهوس بالحصول على درجـة علميـة في مجال إدارة الأعمـال، ومع انتشار هـذا الطوفان الهائل من برامـج وخطط بحثيـة لماجستـير إدارة الأعمال؛ عملـت العديد من المؤسسات التعليمية الصينية للحصول على تراخيص منح درجة الماجستير في إدارة الأعمال.

أصبحت الآن مائة وخمسون مؤسسة تعليمية صينية تمنح درجة الماجستير في إدارة الأعمال؛ وبطبيعة الحال ليست جميعها ذات سمعة طيبة، ويتحدث (رولف كريمر) نائب رئيس المدرسة الصينية الأوروبية الدولية لإدارة الأعمال (CEIBS) في شانجهاي؛ وإحدى أفضل المؤسسات التعليمية التي تمنح درجة ماجستير معتمدة دولياً في مجال إدارة الأعمال في حديث له عن انتشار تلك المؤسسات: «إن هذا الانتشار قد صار أمراً مربكاً، وأيضاً فإن الشركات الكبرى تضع في أولوية الاختيار المرشحين الذين يحملون درجة ماجستير في إدارة الأعمال». ولا تزال الأكثر رواجاً في هذا الشأن أفرع المؤسسات الأمريكية الموجودة في الصين والمتخصصة في مجال إدارة الأعمال مثل: كيلوج، وأولين؛ ولكنها باهظة التكاليف مقارنةً بمثيلاتها حيث أن بعض الذين يدرسون فيها من أساتذة أمريكيين يحضرون من الولايات المتحدة خصيصاً ليلقوا بعض المحاضرات ويحصل الواحد منهم على مبلغ يتراوح بين الأربعة والستة آلاف دولار مقابل بضع ساعات فقط.

عشرة آلاف صيني تقدموا بطلبات لنيل درجة الماجستير في إدارة الأعمال بعد انتهائهم من دراستهم وبالرغم من أن تكلفة نيل تلك الدرجة تتراوح بين ألفي يورو وعشرين ألف اعتماداً على مستوى سمعة الجامعة أو المؤسسة التعليمية التي تقوم بمنح هذه الدرجة إلا أن العديد من الطلاب مستعدين لدفع أي مبلغ في مقابل الحصول على تلك الدرجة، كما أن بعض الشركات الحكومية أصدرت قراراً بوجوب حصول المسؤولين التنفيذيين فيها على تلك الدرجة، وعلى الرغم من زيادة المؤسسات

المانحة لدرجة ماجستير إدارة الأعمال وبالرغم أيضاً من ارتفاع رسومها إلا أن الإقبال عليها يتزايد بشدة.

مقلدون بدرجة امتياز

يمر أي سائح في بكين بالكثير من الأكشاك التجارية الصغيرة التي تبيع ملابس مزينة بأشهر العلامات التجارية الغربية والعالمية مثل: لوران، وأرماني، وهوجو بووس، وتومي هيلنجر، وأديدس، ونايك، ونورثرن فيس، وتمبرلاند.... أحياناً يغيرون في بعض حروف العلامات التجارية ولكنهم في النهاية يضعون بطاقات علامات تجارية عالمية على منتجات محلية الصنع، وبطبيعة الحال فإن تلك المنتجات المقلدة تكون رخيصة الثمن؛ ولا تكلف سوى عشر الثمن الحقيقي الذي تباع به تلك السلعة في المحلات التحارية الغربية، وجودة الصناعة تعد أمراً ثانوياً مقابل المظهر الخارجي للمنتج المزيف الذي يحمل علامة تجارية عالمية.

تراقب الشرطة ما يحدث من أمور غير قانونية بلا مبالاة إذ تتركهم يعرضون سلعاً مقلدة رخيصة علانيةً في الأسواق الصينية بدون أية مساءلة.

يجد السائح أيضاً في تلك الأسواق الجانبية من يرحب به قائلاً: «مرحباً يا سيدي.. هل تريد دي ڤي دي؟»، فتجد سوقاً آخر لا يقل عن سوق الملابس يعرض فيها المقلدون نسخاً مقرصنة من أحدث أفلام هوليوود على أقراص مدمجة (DVD). الخبراء يقدرون أن حوالي نسبة تسعين بالمائة من تلك البرامج التي تباع في الصين يتم تصنيعها بطريقة غير شرعية.

انتهت الرابطة الألمانية للصناعات الميكانيكية وهندسة المنشآت

(VDMA) في تحقيق أجرته بخصوص المنتجات المقلدة إلى النتيجة التالية: «إن نصف المنتجات المزيفة في العالم توجد في الصين»، ويضيف (كريستيان شتاينبرجر) مدير الشؤون القانونية بتلك الرابطة: «يتتبع الصينيون كل ما يرونه جيداً في العالم ثم يعيدون نسخه بصورة فائقة».

وفي الوقت نفسه لم تنج حتى قطع غيار السيارات من التقليد؛ بل وصل بهم الأمر إلى درجة تقليد نوعيات سيارات برمتها، فقد فوجئ مديرو كبرى شركات السيارات بوجود العديد من السيارات في الأسواق تكاد تتطابق نماذجها مع سياراتهم بشكل لافت للنظر، لكنها لم تخرج من مصانع معتمدة، قامت إحدى تلك الشركات المتضررة (تويوتا) باتخاذ إجراءات ضد المزورين، ولكنها لم تستطع متابعتهم في كل الأماكن، فمن المستحيل التدقيق في أمر كهذا في مثل هذا البلد الواسع، وعلاوةً على ذلك فإن المحاكم الصينية تصدر أحكاماً بمنع تداول المنتجات المقلدة ولكن يصعب تنفيذ تلك الأحكام في الواقع، فكلما أغلقت إحدى الورش التي تحترف التقليد؛ تنشأ عشر ورش في أماكن أخرى.

لا يوجد أي معنى لكلمة (مخالفة حقوق الملكية الفكرية)، ويعتبر هذا الكلام بالنسبة إليهم مجرد مصطلح أجنبي فقط لا غير.

تعني حقوق الملكية بالنسبة للصينيين فقط الأشياء المادية التي يمكنهم لمسها وتخص أشخاصاً محددين، لذلك فهم يرون أن من حقهم إنتاج نسخ مقلدة تؤدي نفس الغرض الذي تقوم به المنتجات الأصلية الأعلى سعراً.

الفصل الثالث

الرأسماليون الموهوبون

من رجال الأعمال وذوي المليارات

«المجتمع الصيني دائم التكلم عن إيجاد نموذج ناجح لتطوير السلوك الاقتصادي، باعتبار أنه عنصر طبيعي لدى الثقافة الصينية»

فرانسيس فوكوياما – كونفوشيوس والاقتصاد السوق

جمهورية الصين الشعبية دولة يحكمها النظام الشيوعي، كما يقر بذلك الدستور الصيني، ولكن في حقيقة الأمر فإن النظام المالي للصين الشيوعية يتجه بشكل متزايد نحو نظام رأسمالي للبلاد، ولقد ظهر هذا المجتمع منذ عدة قرون كأكبر المتعاملين بأمور التجارة.

نرى الآن بوضوح ما يحدث في تلك المنطقة الساخنة خلف البحار الصينية في دول جنوب شرق آسيا، بدايةً من تايلاند وعبر ماليزيا ووصولاً إلى إندونيسيا، قد تتفاوت درجاتهم، تزيد أو تقل، لكن في النهاية يظل الاقتصاد هو الرابط المشترك بين تلك البلاد جميعاً، وأيضاً بعيداً عن المجتمعات الآسيوية نجد أن الصين قد بحثت في الانتشار والتسويق، فعلى سبيل المثال: مشروع إنتاج السليكون في ولاية كاليفورنيا، والمشاريع التكنولوجية ذات التقانة العالية في مكة المكرمة، كل تلك المشاريع تتولاها شركات صينية. أصبح الصينيون يحلون محل الأمريكيين في معظم الأعمال التي يسحبون منها.

ربما يكون السبب الأساس في نجاح تلك المشاريع هو استمتاع الصينيين بممارسة أعمالهم، فهم يغامرون بالمقامرة في بورصات الأوراق المالية، ويستعدون جيداً لتحمل كل المخاطر المتوقعة، يدفعهم لذلك رغبتهم الجامحة في كسب المال وإيمانهم القوي بالنجاح، كانت الصين قادرة على تطوير مهاراتها في مجال تنظيم المشاريع بشكل تام

فقـط في هونغ كونغ وتايوان حتى الآن، لكن العديد من قصص النجاح تحققـت في تلك البلاد، فعلـى سبيل المثال: (لي كا شينج) جاء من هونغ كونغ مجرد بائع زهور بلاستيكية متجول إلى أن صار أغنى رجل في آسيا كلها.

كانـت هـونغ كونغ وتايوان جـزءاً مـن إمبراطورية الصـين في الماضي، لكنهمـا نجحتا في الحصـول على استقلالهما حديثـاً، وكل واحدة منهما عبارة عن دويلـة فالأولى بها سبعة ملايين نسمة والثانية بها اثنين وعشرين مليـون نسمة، لكن بالرغم من كل الظـروف العصيبة التي مرتا بها خلال العقـود الماضية فقد نجحتـا في الوصول إلى قائمة أهم دول العالم في حجم التبـادل التجـاري، وكلتاهمـا تمتلكان نسبة مـن أعلى احتياطـات النقد الأجنبـي في العالم، وقد أثار هذا النجاح الاقتصـادي الكبير الذي حققته تلـك الكيانات الصينية الصغيرة سؤالاً مهماً؛ ما الذي يمكن أن يحدث إذا نالت العديد من المدن الصينية الأخرى استقلالها؟

إمبراطوريات أخرى للمغتربين الصينيين

(فانكوفـر)، مدينـة كندية جميلة تطل علـى شاطئ المحيـط الهادئ، عندمـا تجلس بإحدى المقاهي الواقعة بشارع روبسون وتنظر نحو المارين حولـك؛ سوف تتساءل: «أين أنا؟! هل أنا حقاً في كندا؟!»، لأنك سوف تجد مـن حولك العديد من المهاجرين البريطانيـين والفرنسيين ومن بعض الجنسيـات الأوروبية الأخرى، وتجد أيضـاً أن نصف عدد السكان هناك تقريبـاً من الآسيويـين: بين كوريين، ويابانيين، والأكثر هـم الصينيون. إذ

نجدهـم منتشرين في كافة الأماكن؛ مطاعم ومحلات تجارية، كما أن لديهم أيضـاً تجمعاتهم الخاصة بهم؛ التي تعتبر تقليداً للحي الصيني (ريتشموند) بولاية فرجينيا الأمريكية، والسؤال هو؛ هل فانكوفر مدينة آسيوية؟

كمـا لوحظت أيضـاً أنماط مشابهة لذلك في العديـد من المدن الأخرى مثل: أوكلاند (أكبر مدن نيوزلنـدا)، وسيدني (في أستراليا). وانتشر ذلك النموذج الصيني للتجمعات والأحياء الصينية في العديد من المدن الكبرى المطلة على المحيط الهادئ، وفي العديد من مدن أمريكا الشمالية وجنوب شرق آسيا، كما يعتبر الصينيون أقلية مؤثرة في مدن سنغافورة.

كم يبلغ عـدد الصينيين المقيمـين بالخارج؟ عشرون، ثلاثـون، أو حتى خمس وخمسون بحسب بعض الإحصائيات لكن لا يوجد شيء مؤكد، وبالرغم من ذلك نجدهم منتشرين في شتى أنحاء العالم.

عندمـا تنطلـق إحدى دعاوى تجميـع الصينيين المقيمـين خارج حدود بلادهـم تقابل تلك الدعـاوى بأنهم بعض العمـلاء المغرضين من الطابور الخامس، ولكن ما الأسبـاب التي أدت إلى نزوح الملايين من الصينيين إلى خارج البلاد؟ يعد الفقر واحـداً من أهم تلك الأسباب؛ لأن أغلب هؤلاء المهاجريـن كانوا يعيشـون في مستوى متـدنٍ للغاية قبـل اتخاذهم لقرار الهجرة.

وقعت أولى موجات الهجرة الكبرى بين القرنين الخامس عشر والسادس عشـر الميلاديين، عند حدوث العديد من الكـوارث الطبيعية والمجاعات، والتزايـد المستمر لأعداد السـكان دفع الكثير منهم للزحـف جنوباً نحو المـدن السـاحلية مثل فوجيان وقـوانج دونج واستطاعوا من هناك الفرار إلى

دول جنوب شرق آسيا.

يذكر أن ثاني أكبر موجات الهجرة الصينية وقعت في منتصف القرن التاسع عشر، وكانت وجهتهم هذه المرة نحو أمريكا الشمالية، إذ كانت الصين وقتها تعج بالحروب والمجاعات، وفي الوقت نفسه زاد الطلب على العمالة الرخيصة في أمريكا الشمالية لأنهم كانوا بصدد إنشاء خط سكة حديد يربط بين مدن المحيط الهادئ. ومن بين عشرة آلاف عامل في هذا المشروع كان هناك تسعة آلاف صيني، كان عملاً شاقاً وقاسياً؛ لكن أثبت الصينيون مدى كفاءتهم لعمل أي شيء، كما عمل العديد منهم في مناجم الفحم ومزارع الفاكهة.

اضطرت حكومات أمريكا الشمالية من تحديد هجرة الصينيين في عام 1882 تحت ضغوط عديدة من النقابات العمالية التي كانت تحرص على توفير العمل لأعضائها، وفي عام 1924 اضطروا لإصدار ما يسمى بقانون استبعاد الصينيين.

مع حلول عام 1965 وبعد تنسيقات كثيرة مع إدارة الهجرة تم تعديل القوانين لتستقبل الولايات المتحدة موجة جديدة من المهاجرين الصينيين ولكن تلك المرة لم يكونوا عمالاً ولكنهم كانوا من أصحاب المصانع والمتقفين الفارين من نظام (ماو تسي تونج)، وكان الجميع في الولايات المتحدة يتطلعون إلى تلك الطائفة (الأقلية الصينية) باعتبارها ذات انضباط نموذجي، وعمل دؤوب، وتعليم جيد، وتوجه ناجح اقتصادياً في الحياة العملية.

كلما ظهر صينيون بأمريكا تجد أن نجاحاً أو إنجازاً اقتصادياً يصطحبهم، يعملون في شتى أنحاء الولايات المتحدة؛ المطاعم، والمغاسل، ووادي

السليكـون[1] الذي تعتمـد عليه صناعـات كبرى شـركات التكنولوجيا الفائقـة، ولاسيما أيضاً الشركات الصينيـة الناجحة في دول جنوب شرق آسيا التي تتبع القطاع الخاص، مثل شبكة الخيزران.

والمثـال الأوضح هو إندونيسيا، حيـث يبلغ تعداد الصينيين هناك 3,5٪ مـن إجمالي عـدد السكان البالـغ 150 مليون نسمة، ومع ذلـك فإن ثلثي الشركات العملاقة هناك إدارتها صينية بالكامل، مثل مجموعة شركات ليبو ومجموعة شركات زاليم.

وفي تايلانـد حيث يمثل الصينيون عشر السكان هناك ولا يكاد أحد يميز أسماءهم التي تتشابه إلى حد كبير مع الأسماء التايلاندية نجدهم يسيطرون علـى نسبة 81٪ مـن رأسمال القطاع الخاص هناك. أيضـاً في ماليزيا التي يشكل فيها الصينيون نسبة 29٪ من السكان يسيطرون على نحو 60 ٪ من رأس المال الخاص هناك. وفي سنغافورة وجنوب شرق آسيا يمثل الصينيون أغلبية طاغية عرقياً وسياسياً واقتصادياً.

كما يمثل الصينيون المهاجرون أنماطاً مختلفة من المهاجرين في شتى أنحاء العـالم؛ فإن لديهم قـدرة عالية من التكيـف مع البلدان التـي يحلون فيها ضيوفـاً وتكون لمعظمهـم بمثابة هجرة مؤقتة. يقـول البروفيسور جوردن ريدنغ الأستاذ بجامعة هونغ كونغ:

(1) وادي السليكون: هو الجزء الجنوبي من منطقة خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا الشمالية، الولايات المتحدة، وهذا المصطلح نسبة إلى شرائح السليكون المستخدمة في أغلب صناعات الشركات الموجودة به، ويمثل وادي السليكون اليوم العاصمة التقنية للكرة الأرضية بفضل آلاف الشركات العاملة في مجال التقنيات المتقدمة التي تتخذ من هذه البقعة الجغرافية مركزاً لمقراتها الرئيسة (المترجم)

«الغالبية العظمى منهم -يقصد الصينيين- لا يحبون مغادرة بلادهم».

لذلك فإنهم دائماً ما يحتفظون بعاطفة شديدة نحو أوطانهم، ويساهمون وهم في بلاد غربتهم بتكوين تجمعات لهم تحميهم مثل الشبكات الخيزرانية؛ وهي عبارة عن منظمة مغلقة تهدف إلى مساعدة كافة الأطراف وهي حليف للصينيين في بلادهم أو غربتهم.

نجوم في وادي السليكون

تعد شركتي ياهو وجوجل (Yahoo & Google) من أكثر شركات الإنترنت شعبيةً وشهرة في مختلف أنحاء العالم، لكن الكثيرين لا يعرفون شيئاً عن أولئك الأشخاص الذين يقفون خلف هذا النجاح الساحق، ديفيد فيلو وشريكه جيري يانج من هؤلاء الأشخاص.

هاجر جيري مع والدته ليلى وشقيقه الأصغر كين وهو في العاشرة من عمره من تايوان إلى مدينة سان حوسيه في ولاية كاليفورنيا، كان والده قد توفي واضطرت أمه إلى العمل كخادمة في البيوت كي تتمكن من توفير مستوى جيد من التعليم لولديها، واستطاع جيري تقديم الشكر لأمه عملياً من خلال تفوقه الهائل في دراسته والذي مكنه من الحصول على منحة لدراسة الهندسة الإليكترونية بجامعة ستانفورد المرموقة حيث التقى هناك بزميله الطالب ديفيد فيلو.

في أثناء دراستهم في ستانفورد قاما بعمل دليل إليكتروني على شبكة الإنترنت للطلبة والباحثين وذلك عن طريق إنشاء موقع خاص بهم على شبكة الإنترنت في عام 1993، ولكن لم يستطع التعامل مع هذا سوى

المختصـين فقط في هذا المجال، في عام 1994 قاما بتأسيس شركة ياهو التي تمكنت من الصعود إلى قمة شركات الإنترنت في سوق الأسهم.

أصبحـت شركة ياهو اليوم هـي البوابة الأولى للدخـول على الإنترنت في جميـع أنحاء العالم، وأصبـح جيري يانج الذي لم يتجاوز منتصف العقد الثالث من عمره لديه ثروة تقدر بحوالي ثلاثة مليارات دولار وأصبح أحد أغنى الشبان في العالم.

جـيري يانج واحد مـن الصينيين الذين استطاعـوا أن ينجحوا في وادي السيليكـون حيث تعتبر تلك البقعة الواقعة بـين مدينتي سان فرانسيسكو وسان خوسيه المكان الأكثر ابتكاراً في العالم، حيث يوجد هناك العديد من الشركات الكبيرة والصغيرة التي تعمل في مجال التكنولجيا.

تجذب تلك التوليفة الفريدة بين المال والإبداع أنظار العديد من الطلاب والعلماء ورجال الأعمال من مختلف أنحاء العالم، هناك يمكنهم أن يتطوروا ويبحثـوا ويكتشفوا ويتاجروا، وبالطبع فإن الأمريكيين يسيطرون بشكل كبـير على وادي السليكـون؛ ولكن توجد هناك أيضـاً العديد من القوى الصاعدة وخاصةً من الآسيويين، ويعتبر الهنود والصينيون الآن على رأس تلـك القوى ذات النفوذ الواسـع في وادي السليكون، ولكن فقط توجد لغة وحيدة يجيدها كل من في الوادي؛ لغة التكنولوجيا.

ولكن بشكل عام فإن نجاح وادي السليكون يعتمد على المهاجرين من (الهند والصين) بجوار الأمريكيين، ولكن الصين تظهر تفوقاً ملحوظاً على الهندي.

منذ حوالي عشرين عاماً والصينيون يعمرون وادي السليكون لأنها تعتبر مـن أفضل البلدان التي لديها تعليم جيد لذلك فإن ذوي الخبرات منهم في

هذا المجال يتوجهون إلى أمريكا -كعبة التكنولوجيا- مابين ستين وسبعين ألف مهندس صيني يعيشون ويعملون هناك.

تقول (آنا لي) أستاذة العلوم السياسية في جامعة بيركلي بولاية كاليفورنيا: «كان للمهندسين الصينيين فضل بالغ في تأسيس العديد من أهم شركات التكنولوجيا في كاليفورنيا».

وتقدر قيمة الشركات ذات الأصول الصينية والتي تساهم اليوم في أسواق تداول المال بحوالي عشرة مليارات دولار أمريكي.

أثرياء من هونج كونج

يعتبر (لي كا شينج) البالغ من العمر 76 عاماً ولديه ثروة تزيد عن عشرة مليار دولار من أغنى أغنياء آسيا كان (لي) يعمل في مهنة غسل الصحون مثل العديد من أثرياء هونج كونج الذين فروا من الصين أثناء فترة الحرب.

جاء الشاب (لي) إلى هونج كونج بعد مقتل والده في الحرب وتعرض عائلته إلى الإفلاس الشديد وعمل في العديد من المهن حتى تمكن من إنشاء شركة لتصنيع وبيع الزهور الصناعية وبعد ثلاثين عاماً أصبح يطلق عليه ملك الزهور الصناعية، واستطاع تدريجياً بعد خوض العديد من المعارك التجارية اضطر فيها إلى الشراء والبيع. أصبحت إمبراطوريته التي تدعى (هوتشيون وامبوا) تسيطر اليوم على تصدير الزهور الصناعية لكبرى الفنادق العالمية والعديد من العقارات والموانئ وشركات الاتصالات ووسائل الإعلام...إلخ.

احترف (لي كا شينج) العمل في العديد من المحالات حيث يتيح

نــادي جوكي الملكي بهونج كونج فرصة التقاء أثريـاء المجتمع بالمؤسسات الاجتماعيــة في هونج كونج حيث يتداولــون الأعمال التجارية فيما بينهم. أصحــاب المليارات مثل: (تشن)، و(تشينج)، و(كو)، و(ونج) يتحكمون بأهم الشركات التي اتجه أغلبها للعمل في مجال سمسرة العقارات عن طريق تــداول الأوراق الماليــة من خــلال البورصة ثم توسعت دائــرة نشاطاتهم لتشمل العديد من المجالات.

زحــف الكثير مــن الصينيين إلى تلك المستعمرات بعــد عام 1949 حيث كان لديهم الكثير من الدوافع للعمل الجاد، وقد نجحوا بالفعل في النهوض باقتصــاد (شانجهــاي)، و(قوانج دونج)، و(فوجيان) ولكــن بعد أن أحكم الشيوعيــون السيطــرة على تلك المستعمــرات وجد رجــال الأعمال أن الجمهوريــة الشعبية لــن تسمح أبداً بقيــام أو نهوض تكتــلات رأسمالية بداخلها وبالتالي وجدوا في هونج كونج الملاذ الآمن لهم.

في غضــون بضعــة عقــود ازدهــرت مدينة الستــة ملايــين نسمة حتى أصبحــت واحــدة من أهم عشــر مدن تجاريــة في العالم. بعــد نظر رجال الأعمــال مع الإبداع غير المتناهي بالإضافــة إلى قوة الإرادة والعزيمة جعل كل هذا من تلك المعجزة الاقتصادية أمراً يمكن حدوثه، وعن طريق العديد من التجارب في حقل العمــل الاقتصادي استطاعت هونج كونج اكتساب مرونة شديدة وأصبحت قادرة على النجاح أكثر وفي استطاعتها الاستجابة للظروف المحيطة بها ومتغيرات السوق الاقتصادي العالمي أكثر من قبل.

كانــت البداية في التركيز الشديد على الصناعات الاستهلاكية الرخيصة من قمصان ولعب أطفال وساعــات، ثم ازداد إنتاجها مع فترة الستينيات

والسبعينيات، ومع دخول الصين إلى هذا المجال بقوة في الثمانينات تحولت هونج كونج إلى إنتاج السلع الاستهلاكية ذات القيمة العالية مثل الأجهزة الكهربائية وغيرها.

وتمثل هونج كونج الآن أهم جزيرة صناعية في العالم؛ حيث تعد عاصمة آسيا في مجالات: الصناعة، والخدمات المصرفية، والنقل، والإعلام. وكل تلك الصناعات هي ما يهيمن على السوق الآن في هونج كونج.

تعد هونج كونج دليلاً حياً على مرونة الاقتصاد الصيني ومدى تحمله للانفتاح الاقتصادي لدى جيرانه المنافسين، وقد كانت هونج كونج ولا تزال واحدة من أكثر البلاد المتحررة اقتصادياً في العالم وهذا ما أثبتته العديد من الدراسات المختلفة.

ومنذ أن كانت هونج كونج واقعة تحت ظلال الحكم البريطاني؛ كانت بريطانيا تمنحها بعضاً من الاستقلال الذاتي، وعن طريق ذلك تم إدخال العديد من الثقافات المختلفة، حيث اعتمدت في بداية نهضتها الاقتصادية الحديثة على الأفراد وقد تم فرض حد أدنى من الضرائب على الدخل بمقدار 17,5٪.

أصبحت هونج كونج خارج حكم التاج البريطاني منذ الأول من يوليو عام 1997 ولكن وقعت لندن وبكين اتفاقية بأن تظل هونج كونج تحت الحكم الذاتي مدة خمسين عاماً أخرى[1]، أي حتى عام 2047، لكي

---

(1) اتفاقية لندن - بكين 1984 بعد اتفاق بين جمهورية الصين الشعبية والحكومة البريطانية في ديسمبر 1984 أصبحت هونج كونج ومنذ 1 يوليو 1997 تعرف باسم (منطقة هونج كونج الإدارية الخاصة لجمهورية الصين الشعبية) بعد أن كانت تابعة لبريطانيا منذ عام 1842 (المترجم)

يتمكن نظامها الاقتصـادي من الصمود في ظل تلك المتغيرات حتى ذلك الحين، ومن هنا انطلقت فكرة: (دولة واحدة ونظامين).

من الناحية السياسية تتبع هونغ كونغ النظام الصيني الاشتراكي[1] والنظام الإنجليـزي الرأسمـالي[2]، أما مـن الناحية الاقتصادية فهـونغ كونغ نظامها الوحيد هو الرأسمالية.

وكذلك الوضع حالياً في الجمهورية الشعبية؛ يتجه بقوة نحو الرأسمالية ولذلك سوف تصبح القضية تحول النظام الاقتصادي للجمهورية الشعبية العظمى إلى نظام هونغ كونغ وليس العكس.

الأخ الصغير للجزيرة

تبعـد ضاحية (كونشان) عن مدينـة (شانغهاي) مسافـة قليلة، وكالعديد مـن أحياء المدن الكبرى فإن (كونشان) تمتلئ بالكثير من ناطحات السحاب والمصانع والطرق، توجد العديد من المطاعم والمتاجر في الطريق غير الرسمي لمدينـة تايبيه، وقـد صممت بنيـة معمارية ضخمة مـن مدارس ومنظمات عمـل أهلية وأندية رياضية لرعايتهم، وقد مضى خمسين عاماً منذ انفصلت تايـوان عن الصين وهذا سبب العديد من الخلافات في الثقافة والحضارة بين الشعبين، (كونشان) واحدة من أكبر المدن التايوانية، يقيم فيها حوالي مليون

(1) النظام الاشتراكي: نظام اجتماعي اقتصادي يقوم على أيديولوجيا تقول إن الجماهير العاملة من الشعوب هي التي يجب أن تمتلك وسائل الإنتاج (المترجم)

(2) النظام الرأسمالي: نظام اقتصادي تكون فيه وسائل الإنتاج بشكل عام مملوكة ملكية خاصة أو مملوكة لشركات، وحيث يكون التوزيع، والإنتاج وتحديد الأسعار محكوما بالسوق الحر والعرض والطلب، ويحق للملاك أن يحتفظوا بالأرباح أو يعيدوا استثمارها (المترجم)

تايواني، والذين يمثلون نحو خمس الشعب التايواني، كما أن هناك العديد من الصينيين الذين انتقلـوا للعيش هناك مابين الحياة الزراعية والصناعية وهؤلاء يبلغ عددهم بين خمسين ومائة ألف شخص فلا توجد إحصائية دقيقة لهم.

منـذ فترة قريبة لم يكن مسموحاً للتايوانيـين السفر إلى جمهورية الصين الشعبيـة، وفي بداية عام 1987 ألغت حكومـة تايبيه قرارها بحظر السفر، لقـد كان قراراً اقتصاديـاً في الأساس، وحتى الآن تمكنـت تايوان بجوار هـونج كونج من تحقيق نجاح مثير للرأي العام العالمي وكان نجاحهما يشكل عبئاً إضافياً على الاقتصاد الصيني ويضعه في مأزق كبير.

في أربعـين عاماً فقط استطاعت تلك الجزيرة الصغيرة المحرومة من كافة المـوارد (تايـوان) أن تصبح واحدة من أهـم الدول الصناعيـة الرائدة في العالم، بدأت منذ الستينيات الإنتـاج في مجال الفطر والهليون والقصدير، ثـم تحولـت في السبعينيات والثمانينيـات إلى تصنيع السلـع الاستهلاكية كالأحذية والملابـس الجاهزة، ومع حقبة التسعينيـات حدث تطور هائل في مجـال التكنولوجيـا الحديثـة في تايوان فقـد تصدرت قائمـة مصنعي الكمبيوتر واللاب توب والشبس[1] والفارات ولوحات المفاتيح، ولكن في مرحلـة معينـة اكتشفوا أن إنتاجهـم لتلك السلع مكلـف للغاية فأخذ رجـال الأعمال ينشطـون في البحث عن بدائل ذات تكلفـة أقل، ولكن مـا تزال الاستثمارات في تزايد رغـم كل العوائق التي تواجهها ليس فقط

(1) الشبس: رقائق الكترونية صغيرة تتألف أساساً من أجهزة أشباه الموصلات وشرائح السليكون، أحدثت ثورة في عالم الالكترونيات. (المترجم)

من ناحيــة الصين ولكن أيضاً من جانب الحكومــة التايوانية نفسها والتي وضعــت حداً أعلى للاستثمــارات الأجنبية على أراضيهــا خوفاً منها من سيطرة الاقتصاد الصيني على السوق أو اعتماد مستثمريها على الشركات الصينية بشكل أساس، ولكــن يحتال رجال الأعمال في تايوان على تلك المشكلــة من خلال الاستثمار عن طريــق دول وسيطة (طرف ثالث) ومن تلك البلدان التي تلعب هذا الدور جزر فيرجن وهونج كونج وسنغافورة.

وهنــاك أيضــاً مشكلة النقل وعدم إيجاد وسائل نقــل مباشرة بين تايوان والبلــدان المستــوردة الرئيســة حيث يعتمــد الآلاف من رجــال الأعمال والسائحــين على الطيران إلى هــونج كونج والتغيير من هــاك، حيث يعتبر مسار الرحلات مــن تايبيه إلى هونج كونج واحداً من أشد الطرق ازدحاماً وأكثرها ربحاً.

ليس فقــط رجال الأعمال يحتالــون للاستثمار في الصــين ولكن أيضا المديريــن والطلاب يحاولــون الحصول على فرصة للخــروج من تايوان، وفقــاً لاستطلاع رأي فإن ستين بالمائة مــن التايوانيين يرغبون في الانتقال للصين للحصول على فرصة أفضل في العمل.

بدآ سوياً

توجــد العديــد من الحــالات المثــيرة للاهتمــام في عالم الأعمــال، وفي وادي السليكــون الكثير مــن المشاريع المهمة تتم برئاســة صينية وإشراف مــالي وإداري مــن هونج كــونج أو تايــوان حيث يكون قــد اكتسب خبرة واسعة في مجال العمل البنكــي والتدريب المصرفي ويبدأ بوضع المقايسات

ودراســات الجدوى اللازمة لإنجاح المشــروع، وهكذا تبدأ المشاريع تحت قيادة صارمة، والذي يتم إنجازه على نطاق ضيق يتحول لأعمال ومشاريع عملاقــة، وهكذا نمت الصين وهونغ كونغ وتايوان والمستثمرون الصينيون المقيمــون في الخارج ونهضوا سوياً بشكل متزايد وأصبحوا يمثلون جميعاً تكتلاً اقتصادياً واحداً ولكن الأمر لم يكتمل من الناحية السياسية فلا تزال مشكلة تايوان قائمة وتنتظر الحل.

منذ حوالي خمسة عشر عاماً أصبح رجال الأعمال الصينيين أكثر اقتراباً مما يعطي انطباعاً وكأن أحدهم قد صاح:

«يا رجال الأعمال الصينيين في كل أنحاء العالم.. اتحدوا!!».[1]

استطاعــت تلك الرباعية الصينية المكونة من الجمهورية الشعبية وهونغ كــونغ وتايوان والصينيين المغتربين خلق نظاماً راقياً للتعايش، فكل واحد مــن هؤلاء لديــه شيء لا يملكه غــيره، لدى تايــوان بعضــ التكنولوجيا المتقدمــة التــي استطاعت تطويرها خلال العقود الأخــيرة، بينما تمكنت هــونغ كونغ من تحقيق نجاح كبــير في مجال التجارة العالميــة كما أن لديها الكثــير من الخــبرات في قطاع خدمات: (التسويــق، والعلاقات العامة، والنقــل)، والصينيون المغتربــون لديهم عالم افتراضــي واسع المجال عبر شبكة الإنترنت، هؤلاء الثلاثــة لديهم رأس مال ضخم وهم جميعاً على استعــداد لاستثماره داخل وطنهــم الأم، وأخيراً فإن الصــين لديها أكبر مخــزون بشري من العمالــة الرخيصة في العالم بالإضافــة لكونها من أكبر

(1) صيغة تهكمية على نمط وزن الشعار المعروف لدول الاشتراكية «يا عمال العالم اتحدوا!!» (المترجم)

الأسواق العالمية المفتوحة.

يعتبر هذا المزيج من التكنولوجيا المتقدمة ورأس المال المتوفر واليد العاملة؛ ظاهرة فريدة من نوعها، كما أنه يضع الصين في مقدمة أهم الدول اقتصاداً في العالم، وقد أصبح هذا العملاق الجديد له أبعاد كثيرة لا يمكن تصورها؛ فعلى سبيل المثال فإن احتياطي النقد الأجنبي للتكتل الاقتصادي الصيني (الصين وهونغ كونغ وتايوان) حوالي 800 مليار دولار، بينما في الولايات المتحدة أقل من 40 مليار، وفي دول منطقة اليورو 188 ملياراً، ولم يكن ممكناً النمو السريع للصين بدون مساعدة أبنائها في الخارج من إسهامات في زيادة نمو رأس المال المتداول مع دخول الصين مرحلة الإصلاحات الاقتصادية الضخمة في عام 1978، وقد حدث هذا فقط مع الصينيين بينما لم يحدث للأمريكيين ولا للأوروبيين أو اليابانيين.

لقد لعب هؤلاء المستثمرون الصينيون دوراً بارزاً نحو اقتصاد بلادهم مع بداية الإصلاحات عن طريق المشاريع الصغيرة والمشتركة التي وصل عددها إلى حوالي 150 ألف مشروع، برأس مال يتجاوز 100 مليار دولار، وقد شكلت تلك المشاريع نقلة مهمة للاقتصاد الصيني الحديث، يقول (وليام أوفرهولت) المصرفي الأمريكي الشهير في كتابه: (الصين تلك القوة الاقتصادية العظمى القادمة):

«أصبحت الصين مدرسة اقتصادية كبرى للمستثمرين الصينيين الذين صاروا أقرب لبلدهم من أي وقت مضى».

كان هناك العديد من المشاريع الاقتصادية الناجحة التي أعطى الصينيون من خلالها درساً في الاقتصاد للعالم كله وسرعان ما تعلموا في الصين

وتخرجت شريحة جديدة من المستثمرين الشبان الناجحين الذين ظهروا بقوة على الساحة الاقتصادية.

السماح بتواجد المستثمرين

(ريتشارد يفاي) شاب في أواخر العشرينات، يظهر دائماً وهو يرتدي الجينز والقمصان المقلمة المألوفة بينما يكون جالساً خلف مكتبه الذي يوجد في إحدى أعلى ناطحات السحاب بشنجهاي؛ أمامه الكمبيوتر المحمول (لاب توب) والهاتف والهاتف المحمول (موبايل)، ويردد كثيراً بين الحين والحين لفظ (sorry) كلما التقطت يده إحدى الهواتف ليعتذر إلى محدثيه مرة بالصينية وأخرى بالإنجليزية وتعد تلك الأحرف الأربعة من أحب الاختصارات إليه (ASAP) وهي اختصار لجملة:

(as soon as Possible) = (كلما كان الوقت أسرع كلما ممكنا منه)

الوقت هو المال بالنسبة لريتشارد، أنشأ ريتشارد مع والده تشن يفاي، وهو فنان ناجح في البلاد، سلسلة متاجر كبرى في الصين، وبدأ الأمر بمحلات متخصصة في الملابس الحريمي (تلك التي تحمل العلامة التجارية layefe)، ثم تطور الأمر ليشمل الملابس الرجالي ثم الأسرة كلها (Home).

يقول ريتشارد: «نريد أن نثبت أنه يمكن للتجارة الصينية أن تكون ناجحة في إنتاج بعض العلامات التجارية الخاصة بها وذلك عبر 350 شركة عالمية تتعامل مع يفاي».

فجأة ومع روح المبادرة التي مثل نموذجها ريتشارد يفاي أصبح الصينيون

أكثر إقبالاً على القطـاع الخاص ليس فقط الفقراء الصاعدين من بين طبقة البروليتاريا[1] ولكن أيضا أصحاب التوجه الرأسمالي.

في مارس 1999 قرر نواب الشعب تعديل بعض مواد الدستور والقانون حيـث تم الاعـتراف فيها بـأن: «القطـاع الخاص يشكل جـزءاً مهماً من اقتصـاد السوق الاشتراكي الصيني»، ثم في خريف 2003 وبعد العديد من المناقشـات الساخنة بين أعضاء الحـزب قرروا في النهاية أنه يمكن السماح لأصحـاب المشاريـع الخاصة بأن يصبحـوا أعضاء في الحـزب الشيوعي الصينـي، وفي فترة قصيرة تمكن بعضـ مستثمري القطـاع الخاص أمثال ريتشـارد يفاي من السيطـرة على أجزاء كبيرة من اقتصـاد السوق هناك، فقد كان عدد المشاريع الخاصة لديه في عام 1993 حوالي 240 ألفاً بينما يبلغ عددهـا حالياً نحـو ثلاثة ملايين استطاع خلالها تحمـل الكثير من الأعباء كبديـل للمؤسسات الحكوميـة وإتاحة فرص عمل جديـدة تشتد الحاجة إليها.

الشباب أصحاب المشاريع الناجحة

يصـف (روبـرت هوجيـورف) الشبـاب الصينيـين مـن أصحاب المشاريـع الناجحة في مقال له بمجلة فوربس الأمريكية عام 2003 بأنهم شبـان صغار استطاعـوا عن طريق أفكارهم الذكيـة التخطيط لمشاريع صغيرة وناجحة وتحقق ربح سريـع جعلهم يساهمون في رفع مستوى

(1) البروليتاريا: الطبقة التي لا تملك اي وسائل انتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي او الفكري (المترجم)

الاقتصاد القومي لبلادهم.

نجلس في مبنى إيلمنست فريش (Element Fresh) وهو من أعلى ناطحات السحاب في شنجهاي، حيث يمتزج فيه الأجانب بالصينيين، يروي لنا (هيو جورف) قصة حياة أحدهم عندما جاء شنجهاي كان مجرد مراجع حسابات لكنه سرعان ما أصبح أحد أهم الشخصيات هناك.

أعد (هيو جورف) بعد ذلك بحثاً ميدانياً وكان ما يثير الدهشة أن معظم أصحاب المشاريع الصينية الناجحة من الشباب وكذلك أغنى الشخصيات الصينية معظمهم شباب، ومن بين هؤلاء في شنجهاي وبكين ثلاثة رجال أعمال شبان تميزوا في مجال الإنترنت: (دينج لي) صاحب موقع (Netease.com)، و(تشن تيانكيو) صاحب موقع (.Shanda com)، و(تشانج تشاو يانج) صاحب موقع (Sohu.com)، هؤلاء الثلاثة أصحاب تلك المشاريع الناجحة والتي يقدر رأس مالها بحوالي 750 مليون يورو تتراوح أعمارهم جميعاً بين الثلاثينات والأربعينات.

إنهم يعيشون في زمن المعجزة الاقتصادية الكبرى (الصين) حيث لم تعد القوة للأغنياء فقط بل للشباب الأذكياء وهم يحاولون الإفادة من كل الفرص المتاحة أمامهم.

الرأسمالية الصينية

معروف أن سكان مدينة (ونتشو) ليسوا مشهورين بنواياهم ولكن بنجاحهم وغناهم.

يسافر سكان (ونتشو) في حافلات ضخمة نحو المدن الكبرى يحملون

حقائبهــم الخاصــة وكاميرات تصويــر في رحلات سياحــة داخلية، تعتبر مدينــة (ونتشو) مدينــة رأسماليــة داخل جمهوريــة الصــين الشعبية ولا توجــد طبقات سكانيــة ناجحة في أية مدينة صينيــة أخرى كما يوجد في هــذه المدينة، على بعد 360 كيلو متر جنوب شنجهاي تقع تلك المدينة التي يسكنها 1,2 مليون نسمــة أمامها البحر وخلفها الجبال، تبدو بكين بعيدة جداً من هنا، في هذا العالم الصغير نمت الرأسمالية الصينية التي تكاد تكون فريــدة من نوعها بين نماذج الرأسماليــة العالمية، حيث هناك حوالي ثمانين بالمائة من المشاريع الناجحة مملوكة للقطاع الخاص.

(شيه هاو)؛ رئيس أحــد مكاتب التسويق في ونتشو يقول في حوار مع صحيفــة فايننشال تايمز: «الناس هنا لا يرهقــون عقولهم بتلك النظريات الاقتصادية الضخمة، إنهم فقط يريدون أن يصيروا أغنياء».

وعلــى سبيل المثال فــإن السيد (يو) كان أمياً، وكانــت بدايته في العمل على إصــلاح الأحذية عندما دعاه (دينج شياو بينــج) في العمل معه، ابنه (جينهوا) يدير حالياً شركة (جــيردا) التي يعمل فيها 2500 موظف وبرأس مــال قدره 70 مليون يورو ويتــم تصدير حوالي 60٪ مــن إنتاجها، وسيتم افتتاح مكتب لها قريباً في برلين.

هنــاك العديد من تلــك النماذج الناجحة في (ونتشــو) في مجالات عدة للتجارة والتصديــر، تتميز (ونتشو) بإنتاج وتصديــر الولاعات حيث أن 70٪ مــن الولاعــات في العــالم تأتي من هنــاك، وكذلك الجــوارب فإنهم ينتجون هناك حوالي ثلث الجوارب في العالم.

يمكننــا دراسة كيفية التحــول الرأسمالي الصيني المعاصــر في (ونتشو)؛

إنهـا ليست رأسمالية شركات ولكنها أعمال تجارية عائلية نموذجية، حيث يسيطـر أربـاب العائـلات الكبار على سـوق العمـل ولا يستطيع الترقي والصعـود سـوى أفراد من نفسـ العائلة؛ ولكن مع ذلـك يظل الموظفون والعمـال الغربـاء أوفياء جـداً لتلك الشـركات التي يعملون بهـا، وتنمو الشركات التي بهذا الشكل حتى تستوعب الآلاف من العمال والموظفين، ويمثل التزايد المستمر لتلك الشركات إضافة للقوة الاقتصادية الصينية والتي قررت الصين نفسها وجودها منذ فترة طويلة.

الفصل الرابع

بناء في الشرق وانهيار في الغرب

تحوّل الصين لمركز إنتاج عالمي

«القوة الإنتاجية الصينية أصبحت ذات تأثير قوي وانتشار عالمي واسع، كما حدث من قبل في الإنتاج بالسوق الأمريكي».

آندي شيه – محلل اقتصادي صيني

لمجلة مورجان ستانلي بهونغ كونغ

تحدث الآن ثورة صناعية أخرى من نوع جديد بعد 150 عاماً من الثورة الأولى التي حدثت في منتصف القرن التاسع عشر وأصبحت بعدها إنجلترا في طليعة الأمم الصناعية في العالم.

يحـدث هذا في الصين اليـوم بشكل سريع ومتلاحـق أصبحت الصين اليـوم هي: (مصنع الإنتاج العالمي) كما عـبر (هاينرش فون بيرير) الرئيس التنفيذي لشركة سيمنز، تظل تنتج الصين المزيد والمزيد من السلع بكميات كبيرة لكـي تباع في الأسواق العالمية. معظم مـاركات الملابس والأحذية نجدها الآن مختومة بجملة:

صنع في الصين = Made in China

ويستـوي في هذا الماركات السويدية الرخيصة مثل هيزر أند موريدز أو الأمريكية الغالية مثل رولف لورين، كما نجد أن الأحذية والملابس الرياضية قـد تم احتكار إنتاجها بشكل حصري في الصين مثل أديدس ونايك وبوما وسرعان ما تبع ذلك الصناعات الإلكترونية والأجهزة المنزلية وإنتاج نحو 50٪ من الكاميرات و30٪ من أجهـزة التليفزيون ومكيفات الهواء و25٪ من جميـع الغسالات و20٪ من الثلاجات تنتـج في الصين، وطبقاً لما تنبأ بـه (كينث كورتس) الخبير بالشؤون الآسيوية ببنك جولدمان ساكس فإن الصين هي قوة الإنتـاج العظمى في العالم طبقاً للتطورات الاقتصادية التي

حدثت مؤخراً والصين بالفعل رابع أكبر بلد صناعي في العالم بعد أمريكا واليابان وألمانيا، وهي بالفعل في طريقها لتحطى الأخيرتين كي تصبح قريباً البلد الثاني بعد الولايات المتحدة.

الآن تنتج المصانع الصينية 7٪ من الإنتاج العالمي للصناعة ويتوقع (جونثان فوستل) أن تقفز تلك النسبة حتى تصل إلى 25٪ في خلال العقدين القادمين، هذا التحول له عواقبه الوخيمة على بقية البلدان المتقدمة في العالم، والصين لا تسحب البساط فقط من تحت أقدام ثالوث الصناعة العالمية (أمريكا واليابان وأوروبا) فقط ولكن أيضاً من تحت أقدام الكيانات الاقتصادية الناشئة مثل المكسيك وتسحب منها العديد من الصناعات مثل صناعة المنسوجات والصلب وبناء السفن وتلا ذلك العديد من الصناعات التي أظهرت الصين تفوقاً مميزاً فيها مثل السيارات والرقائق الإلكترونية والهواتف المحمولة ومع احتكار الصين للعديد من الصناعات تختفي هذه الصناعة في دول الإنتاج الأم مما يؤدى إلى نمو معدلات البطالة بتقليل عدد العمال وإيجاد فرص عمل جديدة فقط داخل الصين.

وهناك مخاوف ثانية تدور بالرؤوس حيث يتساءل (جيفرى جارتن) عميد كلية الإدارة بجامعة (يال) «هل السيطرة الصينية على سوق الصناعة العالمي سوف يؤدي بها في الوقت القريب للوصول إلى نفس وضع المملكة العربية السعودية في سوق النفط العالمية؟»، أي أن المخاوف من تحكم الصين في أسعار الإنتاج العالمي بحيث تكون كل الدول المنتجة خاضعة لسلطة الصناعة الصينية في واقع الأمر عندما

تصبـح الصين بـين اليوم أو الغـد لأي سبب من الأسبـاب هي واضعة الحـدود والقواعـد فإن بقيـة العالم سـوف يكون أمـام مشكلة عظيمة وسوف توجد فجوة كبرى.

في السوق العالمي

يقيم (كارل جونـار) في استكهولم بينما لديه تأثـير قوي على الاقتصاد الصينـي وهو مدير المشتريات لمتاجر الملابـس السويدية هاينز أند موريدز (إتشـ آند إم) التـي لديها العديد من الفروع في كافة أنحاء العالم، يتج من أستكهـولم مع فريقه المكون من 200 شخص ما يقرب من 500 مليون قطعة ملابـس سنوياً تحمل علامة (إتشـ آند إم) ويتزايد الإنتـاج كلما افتتحت أسواق جديـدة للتوزيع في بنجلاديش والهند وتركيـا وتصل الأوامر من أستكهـولم إلى شانجهاي عبر البريد الإلكـتروني وهناك فيما يسمى مكتب إنتاج هاينز يجلس حوالي 20 صينياً تحتاج أستكهولم حوالي 50,000 قميص أسبوعيـاً و30,000 حمالة صدر شهريـاً لا توجد مشكلة بالنسبة للصينيين في مكتـب شانجهاي لديهم خطط إنتاج مدروسة جيداً تدار عبر ما يقرب مـن 100 مصنـع في كل إنحاء البلاد حيث تستطيـع في وقت قياسي إنتاج كل الكميـات التـي يحتاجها السوق، وتعتبر هاينز مـن أكبر الموزعين في الأسـواق الصينيـة ويطلق عليهـا جنة التسوق حيث يمكـن أن تجد كل ما تحتاج إليه.

هـناك أيضاً (وول مارت) واحدة من أكبر الشـركات التجارية في العالم لديهـا مكتـب مشتريات في شنتشن مدينة مجـاورة لهونج كونج بيعت هذه

الشركـة في عـام 2003 بمبلغ 12 مليـار دولار ويتوقـع أن تتضاعف قيمتها خلال 5 سنوات حتى تصل إلى ما بين 25 و30 ملياراً.

كما توجد منافسة قوية أيضاً من شركة كارفور الفرنسية التي لديها مركز تسوق ضخم وعالمي في الصين ويتم بيع جميع السلع هناك، ويوجد 25٪ مـن السلع والمنتجات في أسواق كارفور صينية الصنع، كما توجد منافسة أيضـاً من شركات مترو وكارشتات وكافيللـي ونيكرمان؛ تلك الشركات الألمانية العالمية تواحدت بالفعل منذ عدة عقود في الأسواق الصينية حيث بـدأت ببيع اللعب والساعات وزينة أعياد الميـلاد وتعمل بعضها اليوم في صناعـات الكمبيوتر والأجهـزة الكهربائية والملابـس وأصبحت أغلب منتجاتها التي تسوقها في فروعها العالمية صينية الصنع.

احتلت الصين مكانة بارزة للغاية بين جميع دول العالم في تصنيع وإنتاج الملابس وذلك نظراً للعمالة الكثيفة وآلاف المصانع المنتجة لكل الماركات العالمية بجميـع أنواعها بداية من الرخيصة جـداً وحتى أغلاها لدرجة أن (باولو زينيا) ابن مؤسس الشركة الأسطورية فورنا سيتي يقول: «إن الصين تمثل خطراً كبيراً بالنسبة لنا».

وتـزداد الهيمنة الصينية في قطاع الملابس يومـاً بعد يوم مما أدى لفرض ضرائـب ضخمة علـى حصص الصـادرات من المنسوجـات الصينية في جميـع أنحاء العـالم بنهاية عام 2004 كمـا أثار إغراق الأسـواق الأوروبية بالمنسوجـات الصينيـة ردود فعل عنيفة من قبل لجنـة الاتحاد الأوروبي مما أدى إلى فرض حصص ضرائب جديدة على المنسوجات الصينية في أوائل صيف 2005.

البداية من دلتا بيرلفلوس

قبل نحو 20 عاماً كانت توجد مزرعة في بلدة دونجوان جنوب الصين في غفلة عن باقي العالم حيث يعيش هناك 5,000 نسمة مع ماشيتهم ومزارع الأرز الخاصة بهم، ويسيطر اللونان الأزرق والرمادي على أغلب أيام معيشتهم، وإذا كان من أحد لديه سيارة فإنه يحتاج إلى ساعات طويلة من القيادة حتى يصل إلى المباني الحديثة في هونج كونج من ناطحات سحاب ومصانع وشركات.

ولكن في ذلك الوقت (منتصف الثمانينات) تفاجأ أصحاب المصانع في هونج كونج بسيطرة بعض البلدان الآسيوية على أسواق الملابس والأحذية ولعب الأطفال والسلع الكهربية وأصبحت منتجاتهم رديئة وغالية مقارنة بمنتجات الآخرين، وانتقلت الطاقة الإنتاجية إلى ماليزيا وإندونيسيا وتايلاند والفلبين، في تلك الأثناء شهد اقتصاد هونج كونج والمناطق الداخلية الصينية عطلاً كبيراً، ولكنهم استطاعوا مواجهة تلك الأزمة بالعمالة الرخيصة، حيث قاموا بإنشاء أماكن إيواء لهم بجوار المصانع وزيادة عدد ساعات عملهم طوال 6 أيام والسماح لهم بالعودة إلى منازلهم في نهاية الأسبوع ودعمت حكومة بكين التوجه الرأسمالي لهونج كونج عن طريق بناء مقاطعة قوانج دونج المجاورة والمناطق الاقتصادية الخاصة وهكذا نشأت بين هونج كونج وقوانجتشو مساحة اقتصادية مزدهرة سميت دلتا بيرلفلوس.

يسكن دنجوان اليوم حوالي 7 ملايين نسمة منهم لا يقل عن 5 ملايين من العمال المهجرين الذين جاؤوا من المقاطعات الغربية الفقيرة حيث تنتشر البطالة هناك ليحصلوا على وظيفة بمقابل 150 دولاراً شهرياً، فيوجد في دنجوان 20,000 مصنع. ويقول المدير التنفيذي للفرع الآسيوي لشركة (آى

بـي إم): «نعمل جاهدين في الصين على التوسـع في إنتاج الحاسب الآلي لتغطية الاحتياجات العالمية منه».

وعـبر 140 كيلومتر من الطرق السريعة بين قوانجتشو وهونج كونج تتوقف الحركة المروريـة في الكثير من الأحيان بسبب تلـك الشاحنات الضخمة التـي تنقل البضائع بين مصانـع بيرلفلوس وموانئ هونج كـونج وشنتشن. حوالي 480,000 مصنع موجودة الآن في بيرلفلوس، لو كان القائد الراحل (ماو تسي تونج) حياً اليوم لكان أمر مواطنيه بالذهاب نحو بيرلفلوس.

وتكـررت تجربة دلتا بيرلفلوس في شنجهاي وبكين وشمال شرق البلاد وغربها أيضاً.

رؤوس التنانين وألسنة اللهب

رأس التنـين هـي رمز الحـب الصينـي، وأطلقـوا عليها اسـم دلتا نهر اليانجتسـي حيـث يعيش 70 مليـون نسمة، منهم 20 مليـون من شانجهاي حيث يتزايد معدل النمو في هذه المدينة بشكل أكثر ديناميكية من أي بلدة أخـرى في العالم، ربما لأنها تريـد أن تعوض ما فاتها خلال سنوات الحكم الشيوعـي؛ لقد كانت لؤلؤة المشـرق في إهمال ونسيان من حكومة بكين حتى ثمانينيات القرن الماضي.

وليس هناك دليل على سرعة التحول الهائلة التي شهدتها تلك المدينة أكثر من ذلك المنظر الذي يطل عبر شرفة فندق السلام منذ 15 عاماً لم تكن ترى سوى الشاطئ والطرق الرئيسة وبعض المباني القديمة والأراضي الزراعية، ولكن اليوم تجـد مشهداً مختلفاً تماماً ناطحات سحاب عملاقة وبرج مبنى

التليفزيـون وطرق وحدائق ومطـار والعديد من وسائـل النقل المختلفة، لقـد تغيرت شانجهـاي تماماً في غضـون 15 عاماً من الناحيـة الاقتصادية، فبعدمـا كانـت تسيطر عليهـا تلك المؤسسـات المملوكـة للدولة احتلت مكانهـا اليوم مشاريع ضخمـة مشتركة مع شـركات أجنبية كبرى حيث يتـم إنتاج السيارات العملاقة جـنرال موتورز وفولكس فاجن كما يوجد أيضـاً هناك أكبر مصانـع رقائق إلكترونية ويتم أيضـاً تجميع هواتف شركة سيمنـز، لقد بدا واضحاً تمامـاً قوة التغيير التي تحـدث في شانجهاي لدى البلاد المحيطة بها حيث نمت معدلات الإنتاج ونمت معها مدن أخرى مثل هانختشـو وسوتشو ونيجبو ووتشي وأصبحت كلهـا أسماء معروفة لدى الغـرب، والعديد من تلك المدن المليونية لها تاريخ عريق مثل سوتشو التي يرجع تاريخهـا لأكثر من 2500 سنة وكانت مشهـورة بحدائقها المزدهرة وقد أصبحـت الآن مشهورة بتجمعاتها الصناعيـة الكبيرة التي يعمل بها ويسكنها حوالي 400,000 شخص.

استفـادت شانجهاي وباقي المنطقة المحيطة بهـا في فترة التسعينيات من بعض أبنائها الذين كانـوا يشغلون مناصب كبرى داخل الحزب الشيوعي مثل المدرب (جيانج تسه مين) ورئيس مجلس الدولة (تشو رونج جى) وقام هذان الزعيمان بضخ العديد من المليارات نحو مدينتهم وبعدها استطاعت شانجهاي تحقيق طفرة كبرى عن طريق قيادتها الجديدة وأصبحت في مأمن من تلك الأزمة التي ضربت منطقة الشمال الشرقي والغرب.

الآن تقـع منطقة بكين-تيانجين (التي يسكنها حـوالي 45 مليون نسمة) علـى الطريق بين دلتا بيرلفلوس ونهـر اليانجتسي وعلى امتداد حوالي 100

كيلـو متر بين العاصمة بكين ومدينة تيانجـين الساحلية؛ لقد حدثت طفرة كـبرى في التنميـة الاقتصاديـة والتكنولوجيـة لمنطقة تيـدا (تيانجين) وقد أصبحـت بالفعل واحدة مـن أكثر المناطق الصناعيـة ديناميكية في الصين، كمـا أن عمـدة مدينة تيانجـين (داي شيانج لـونج) هو المديـر السابق لبنك الصـين المركزي وقـد أعيد تعيينه حيث سيتولى الإشـراف على بناء منطقة نمو جديدة.

وعلـى بعد أكثر من ألف كيلومتر شمـال شرق بكين تقع منطقة روست جوريـل وهي بمثابة حوض رور صيني[1]، وقد كانت منطقة مزدهرة قديماً وأصبحت اليوم تضج بالعديد من المشاكل لأنه ما زال بها بعض الصناعات القديمة التي تمثـل ضرراً كبيراً على البيئة وارتفاع معدلات البطالة وانتشار العشوائيات.

وقـد اعترف رئيـس الحكومة في بكين (ون جين بـاو) بوجود مشكلة في تلك المنطقة منذ عـام 2003 وأصدر قراره بإعطاء الأولوية لتطوير تلك المنطقة المهملة وأطلق على تلك الحملة شعار (تطوير شمال شرق البلاد).

لقـد أولت الحكومـة المركزية اهتماماً عالياً بالمـدن السياحية الغربية مع نهاية التسعينيات وهذا مما أحدث انقساماً ضخماً هدد أمن وسلامة البلاد؛ لذلك أعـادت الحكومة نظرهـا في الاهتمام بالمناطق الشرقيـة والشمالية لجـذب أكبر عدد مـن المستثمرين الأجانـب وبالتالي تـزداد معهم فرصة

(1) حوض الرور: منطقة في ولاية شمال الراين وستفاليا الألمانية تشتهر بكثافتها العمرانية واقترانها تاريخيا باستخراج وتصنيع الفحم والصلب، مما أدى أن تسميتها بحوض الفحم. (المترجم)

الاستثمارات في الأراضي الصينية على حساب دول العالم الأخرى.

المكسيك. معركة خاسرة

(سانتا آن شياوتمبان)؛ بلدة صغيرة تقع في شمال المكسيك بها العديد من مصانع الغزل والنسيج التي يعمل بها السكان ولكن ذلك لم يدم لفترة طويلة، لقد أصبحت الصين التي تقع على مسافة بعيدة عنها تمثل الآن موضوع الحديث الأهم هناك؛ حيث تخرج الصحف المحلية بموضوعات كثيرة تكون الصين هي العدو الأول فيها الذي ينبغي هزيمته.

هذا العدو القادم من الشرق الأقصى تمكن من سرقة وظائف أغلب الناس هناك حيث أنه منذ عام 2001 فقد مايزيد على 218 ألف شخص وظائفهم في صناعات النسيج والملابس المكسيكية.

وبعد عدة كيلومترات غرب (سانتا آن) تقع مدينة (تيجوانا) وهي التي كان يطلق عليها عاصمة صناعة التلفاز حيث كان يوجد بها العديد من المصانع اليابانية والكورية التي تميزت بإنتاج ماركات تلفاز عالية الجودة مثل: هيتاشي وباناسونيك وسامسونج وسانيو وسوني؛ ولكن الآن قد ارتفعت البطالة هناك لعدم توافر عمالة بديلة لهم.

وقد وضعت الحكومة المكسيكية الكثير من آمالها على خطط تصديرية تهدف إلى خلق قاعدة إنتاجية كبرى سوق الاستهلاك في أمريكا الشمالية ولكن بحلول عام 2000 نجحت الصين في إغراق السوق في أمريكا الشمالية ببضائع أقل تكلفة وأعلى جودة؛ ويرجع ذلك إلى العمالة المستخدمة في الإنتاج فإن متوسط أجر العامل في المكسيك حوالي 300

دولار شهرياً بينما نظيره الصيني لا يتعدى دخله 100 دولار شهرياً.

تم إغلاق نحو 500 شركة تصدير من بين 3,700 شركة مكسيكية وبالتالي قل معدل الاستثمار المكسيكي الخارجي ويشير إلى هذا البنك الاستثماري (ميرل لينش) في تقريره: «حسرت المكسيك معركتها بسبب الصناعات التي يعتمد إنتاجها على عمالة كثيفة لأنه ببساطة لا يمكنها التنافس مع الصين في هذا المضمار»، وكان المحال الوحيد الذي لم يستطع الصينيون منافسة المكسيكيين فيه هو صناعة التكيلا (المشروب القومي المكسيكي) ولكن مع تدني الأجور الصينية هل توجد فرصة أمام أحد لمنافستهم في العالم الصناعي؟

تفكيك الصناعة في الولايات المتحدة

تقع ولاية أوهايو في قلب الوطن الأمريكي هنا في وسط الغرب حيث يتطلع الناس ببطء شديد نحو التغيرات الكبرى التي تحدث في العالم الخارجي طالما يقضون أوقاتهم بشكل جيد ويعيشون حياة كريمة.

في ولاية أوهايو (في ضاحية مدينة كليفلاند بالتحديد)، حدث أمر غريب، قامت العمالة الصينية بتفكيك مصنع للحديد والصلب مقام منذ 40 عاماً ووضعته في صناديق وشحنته عبر المحيط الهادي ليتم إعادة بناء أجزائه في الصين مرة أخرى حيث كان بيته الجديد (شينيانغ) عملاق الصناعة؛ وهي مدينة صناعية تقع شمال شرق الصين فيها أكبر مجموعة شركات صلب عالمية وازدهرت فيها صناعة الفولاذ الصينية وتمت إعادة بناء المصنع بأكمله لكي تتم إعادة تصنيع

الصناعات الثقيلة في داخل الصين.

يشتكي (جورج بيكر) رئيس اتحاد عمال الحديد والصلب في الولايات المتحدة قائلاً: «إن إنتاج الصلب في هذه البلدة سوف يكون مستقبله مهدداً من قبل الصينيين».

وبنظرة عملية على تعداد عمال الحديد والصلب في الولايات المتحدة سوف نجد بالفعل التهديد الصيني واضحاً، فبينما كان تعداد العمال 19,3 مليون عامل سنة 1980 انخفض الآن إلى 14,6 مليون عامل، وتتزايد المعارضة ضد تفكيك صناعات الصلب الأمريكية من قبل مؤسسات صينية حيث تم تشكيل بعض الجمعيات التي تمارس الضغط على الحكومة الأمريكية لوقف التوسع في الصناعات الثقيلة الصينية من بين تلك الجمعيات جمعية (حفظ الصناعة الأمريكية الجديدة) والتي تتمتع بشعبية هائلة منذ تأسيسها في فبراير 2003 حيث تجاوز أعضائها 70,000 عضو من عمال وموظفين ومديرين ورجال إعمال يعملون في هذا المجال ويشعرون بالقلق تجاه المشروعات الصينية العملاقة في مجال الصناعات الثقيلة.

وقد أظهر استطلاع للرأي خلال حملة الانتخابات الرئاسية لعام 2004 أن 94٪ من الأمريكيين يعتقدون أن الصين تمثل خطراً على وظائفهم.

وقد هاجم حينها المرشح الديمقراطي (جون كيري) المنظمات الصاعية التي تشجع الصناعات الصينية في الوقت الذي ألقى فيه (جورج بوش) كلمات أكثر اعتدالاً في هذه المسألة.

إنها نفي تلك المخاوف التي كانت مسيطرة على الأمريكيين في الثمانينيات، فقد ظنوا حينها أن الصناعات اليابانية قد احتلت الأسواق

الأمريكيــة بشدة ولكن هذه المـرة الأمر أكثر خطـورة، وبلغت شدة قلق الأمريكيـين من سرعة الاجتياح الصينـي وتوحشه أن أضحت الصين هي الموضوع الأول على مائدة الحوار الأمريكية.

يتحدث (فرانك فارجو) من داخل الجمعية الوطنية للمصنعين بواشنطن قائـلاً: «تأتينـا يوميـاً العديـد مـن المكالمـات الغاضبة من رجـال أعمال ومستثمريـن، وعلى الرغم من هجوم الصناعـات اليابانية على سلع معينة إلا أن الصـين صارت تنتشر في كل الأنحاء بدايـةً من صناعة المنسوجات وحتى الرقائق الإليكترونية».

وفي الواقع نرى أن الهجوم الصيني يتخذ أشكالاً عديدة ووسائل متباينة؛ وواحدة من أهم تلـك الوسائل في الانقضاض على الصناعات الأمريكية هي العمالـة الرخيصة التي امتدت لتصل أيضـاً إلى الوظائف التي تتطلب مهـارات عالية وحسب تقرير الرابطة الأمريكيـة للإلكترونيات الصادر لعـام 2003/2002 بخصوص العاملين في هـذا المجال؛ نجـد أن 750,000 أمريكـي قد فقدوا وظائفهـم في أماكن تعتمد على التقنيـة العالية واحتل مكانهم مهاجرين من روسيا والهند والصين.

كمـا يتوقع الباحثـون في مجموعة فورستر أن الأمـور سوف تزداد سوءاً في السنـوات المقبلـة حيث ستحدث العديد من الهجـرات الجماعية التي سـوف تؤدي لفقد ما يزيد على ثلاثة ملايـين أمريكي لوظائفهم في مجال التقنية العالية.

واليـوم تطور الصين نفسها لتنتج المزيد من أجهـزة الكمبيوتر والرقائق الإليكترونية والهواتف المحمولة وطبقاً لكلام (كريج بارت) رئيس شركة

إنتــل الأمريكية المنتجــة للرقائق الإلكترونية في تصريح لــه نشرته صحيفة (وول ستريت) يقول فيه بشكل واضح وصريح: «سوف تصبح الصين في المستقبل أفضل مكان لصناعة الإليكترونيات».

ذعر في اليابان وكوريا

في نهايــة أكتوبر 2003 وتحت عنــوان (التحول 60) تم وضع خطة صينية تستهدف شركة الإليكترونيات اليابانية العملاقة سوني، وتهدف الخطة إلى إعادة تصنيع منتجات سوني بتكلفة أقل حتى يتم إنتاجها وتسويقها بأسعار رخيصة، ولأن هذه كانت النقطة الأكثر أهمية في خطة (التحول 60) فقد تحولــت بالفعل أغلب منتجات سوني من اليابان إلى الصين مما أدى إلى فقد حوالي 7,000 عامل ياباني لوظائفهم.

لم يكن رحيل منتجات سوني إلى الأسواق الصينية ظاهرة فريدة من نوعها بالنسبــة للصناعات اليابانية فحسب ولكن تبــع ذلك أيضاً شركات كبرى مثــل إن إيه ســي وأوليمبوس وسانيــو وتوشيبا؛ وبــدأت تفقد الصناعات اليابانيــة العديد مــن أسواق توزيعها، حيث أصبحــت الصين تنتج العديد من أجهــزة الكمبيوتر المحمولة (لابتوب) والمفكـرات الرقمية (نوتبوك) وأجهزة الكمبيوتر والكاميرات.

وتوتر شديد يتساءل (يويتشيرو فوروز) وهو أحد مديري شركة سانيو: «مــا الذي ينبغي علينا فعله؟ البقاء في اليابــان والاستمرار في تصنيع المزيد من المنتجات الخاسرة؟!».

وبعــد أن أصبــح التصنيــع في اليابان مكلفــاً للغاية؛ بــدأت تنمو فكرة

جديدة وهي تصنيع سيارات يابانية قليلة التكلفة، وحاول كبار المصنعين في اليابان إنتاج سيارات تنافس ما تنتجه المصانع الصينية حيث تتزايد قدراتها الإنتاجية بشكل كبير.

يقول (آندي شيه) المحلل الاقتصادي لدى مورجان استانلي بهونغ كونغ:

«لا معنى لإنتاج سيارات باهظة الثمن في اليابان؛ خاصةً عندما يمكننا الحصول عليها بسعر أرخص».

وكنتيجة للهجرات العديدة والمتتالية منذ عام 1992 فقد اليابانيون أكثر من ثلاثة ملايين وظيفة في مجال الصناعة، لذلك كان ينبغي قرع أجراس الخطر في الأوساط السياسية اليابانية.

ترصد صحيفة (نيكي) الاقتصادية ذلك العداء الاقتصادي وتلك المخاوف التجارية الكبرى بين العدوين اللدودين الصين واليابان تحت عنوان: (التحول الصناعي إلى الصين يثير المخاوف في اليابان).

(جسبر كرول) كبير الاقتصاديين في ميريل لينش بطوكيو تملؤه العديد من الوساوس حيث يقول: «إذا لم نفعل شيئاً تجاه ما يحدث هنا فإن اليابان سوف تظل تنزف صناعياً ببطء شديد حتى تنتهي».

وفي كوريا الجنوبية حيث حدثت هناك المعجزة الاقتصادية الكبرى فقد 45,000 شخص وظائفهم عام 2001 بسبب التحول الصناعي نحو الصين، ويعترض أيضاً (لي يونغ سيك) العضو بالاتحاد الكوري لنقابات العمال من تسارع عمليات النزوح المتواصلة للصناعات الكورية نحو الصين منذ 2003.

قامت إحدى أكبر الشركات الكورية (سامسونج) بتوظيف 41,000 شخص صيني في 26 مصنعاً لديها بالصين، كما قامت شركة (لاكي جولدستار) (LG) بتشغيل 31,000 في مواقع تابعة لها بالصين، ويقول (تشوي جيسونج) مدير شركة سامسونج:

«معظم منتجاتنا سوف ينتهي بها الأمر إلى أن تنتج من مصانعنا الصينية».

(تشينجداو) مدينة كبرى تبعد حوالي ساعة عن كوريا يسكنها حوالي سبعة ملايين نسمة؛ وهي تعد مركز تصنيع كوري داخل الصين، حيث يوجد شوارع بأكملها يسكنها كوريون والعديد من المطاعم والمتاجر والبنوك هناك يديرها كوريون، يوجد حوالي 80,000 كوري يعيشون في (تشينجداو).

وقد وقع الكوريون في نفس الخطأ الذي سبقهم فيه اليابانيون؛ فلم يمنحوا المستهلك خيارات متعددة من الأسعار نظراً لارتفاع تكلفة مواد الإنتاج التي يستخدمونها ولأنهم يخشون من الارتداد التكنولوجي (تصنيع منتجات رخيصة ذات جودة ضعيفة)، ولكن تعلم الصينيون الدرس جيداً منهما؛ فقاموا بإغراق السوق بنسخ مقلدة ورخيصة من نفس منتجاتهما، وفي الحقيقة فإن هذه هي الإستراتيجية نفسها التي استخدمها اليابانيون بنجاح كبير منذ عقود مضت مع المنتجات الغربية.

وأصبح هذا يمثل عبئاً مزدوجاً على الأسواق الغربية، ففي الوقت الذي تستنسخ اليابان منتجاتهم وترفع من كفاءتها لتبيعها بسعر غالٍ فإن الصين تخفض من كفاءة نفس المنتج لتجعله متاحاً للجميع، وبين هذا وذاك يفقد الأوروبيون العديد من الوظائف وتزداد البطالة هناك.

وداعاً لأوروبا العجوز الطيبة

كانت شركة (فيلبس) للإلكترونيات الهولندية يقع مقرها الرئيس حتى وقت قريب في مدينة (إيند هوفن) الأوروبية، وقد كان لديها العديد من المصانع والمختبرات البحثية في كل أنحاء أوروبا، وفي نهاية نوفمبر 2003 أعلن المدير التنفيذي للشركة (جيرارد كلايسترلي) بشكل درامي أنهم ينبغي عليهم الانتقال أو الغلق، بعد هذا الإعلان سافر مع 16 آخرين من زملائه أعضاء مجلس الإدارة لمدة أسبوع إلى الأرض الجديدة (الصين).

بعد أسبوع من الجولات البحثية التي قام بها فريق إدارة فيليبس في هذا البلد الضخم قرر كلايسترلي الذي كان قد أمضى عدة سنوات من حياته في تايوان قرر تحويل المقر المركزي لمجموعة شركات فيليبس إلى الصين، وكذلك تتجه العديد من الشركات الكبرى متعددة الجنسيات لإقامة أفرع مركزية في الأراضي الصينية كبديل عن مقراتها الأوروبية؛ وهذه الإستراتيجية بدأت منذ دراسة الأسواق الصينية في بداية الثمانينيات، ومن خلال بعض الحسابات المنطقية البسيطة نجد أن الأسواق الصينية تقدم خدمات أوسع وتكاليف عمالة ونقل أقل بكثير من الأسواق الأوروبية، لذلك نجد أنه قد أصبح لدى مجموعة شركات فيليبس حوالي 30 موقع تصنيع داخل الصين وكلها تنتج للأسواق المحلية وللتصدير الخارجي.

أتاحت هذه الإستراتيجية الجديدة للصين من خلال مجموعات الشركات العالمية الكبرى قاعدة عملاقة للإنتاج والتصدير بأقل التكاليف ومعظم هذه المنتجات كانت في السابق صناعة أوروبية.

ولذا أيضاً قامت شركة السيارات الألمانية العملاقة (فولكس فاجن) باستثمار مليارات اليوروات لإنتاج سيارات صينية تحمل شعارها في السنوات المقبلة؛ وذلك عن طريق المقرين الرئيسيين لها في الصين أحدهما في (شنجهاي) والآخر في (تشانجتشون)، ويعتبر استثمارها في الصين يفوق بكثير استثماراتها في أوروبا في (فولفسبورج) و(براتيسلافا) و(برشلونة).

وأيضاً قامت شركة BASF للكيماويات في صيف 2005 باستثمار عدة مليارات يوروات في ذلك المجتمع الصناعي الجديد والاستغناء عن 37,000 موظف في العشر سنوات الماضية وعندما سئل (يورجن هامبريخت) المدير التنفيذي للشركة في حوار مع مجلة (دير شبيجل) الألمانية عن هذا الموضوع رفض الإجابة وتهرب من السؤال قائلاً:

«ربما يتعين علينا كل فترة الاستغناء عن بعض المشروعات والعمالة وتخفيض عدد الموظفين».

وحتى الآن يرى عدد من أصحاب ومديري الشركات الكبرى أن أي استثمار في الصين من شأنه أن يكلف العديد من الوظائف في أوروبا، ولكن هذا لم يمنع الآخرين من البدء والانطلاق في الإنتاج والتصدير من الصين، والعديد من المديرين يقولون مثل (مانفريد فينيمر) رئيس شركة كونتيننتال المصنعة للإطارات:

«كل المصانع سوف يعاد بناؤها في بلدان أخرى طالما لديهم عروض تكلفة جذابة أكثر».

كانت الشركات تنتقل في البداية لأسباب تتعلق بفرص العمل ولكن

بعد ذلك كان لأسباب تتعلق بتكلفة الإنتاج، ووفقاً لاستطلاع رأي أجراه الخبير الاستشاري الاقتصادي (رولاند بيرجر) وجد أن 90٪ من الشركات الألمانية سوف تتجه في السنوات الخمس المقبلة لسحب بعض الأجزاء من إنتاجها وتحويله نحو أوروبا الشرقية والصين.

وليست فقط المصانع هي التي لم تعد تبنى في أوروبا ولكن أيضاً مراكز ومختبرات الأبحاث فقد صارت هي الأخرى تنتقل من هناك؛ وعلى سبيل المثال شركة SAP الألمانية لصناعة البرمجيات حيث يقول رئيسها (هيننج كاجرمان):

«إن الصين والعديد من الدول الأخرى تقدم لنا مزايا وخدمات كبرى في التكاليف والأسعار؛ ولأن أغلب العاملين من الشباب المتعلمين فإننا نفترض أن جزءاً كبيراً من النمو المستقبلي وفرص العمل الناتجة عنه لم تعد موجودة في ألمانيا ولكن في تلك البلدان ذات الأجور المنخفضة».

ما الذي تبقى الآن لألمانيا؟ أو حتى لأوروبا؟ قبل الإجابة ينبغي على السياسيين أن يكونوا على علم بالتغيرات التي تحدث في المجتمع الاقتصادي.

كان أحد السياسيين الذين أدركوا جيداً أبعاد هذه المشكلة هو وزير الاقتصاد السابق (أوتو فيشو)؛ وقد سافر مرات عديدة إلى الصين ويعرف ما الذي طرأ على العديد من المصانع والشركات الألمانية من تحويل مراكزها ومقاراها الرئيسة إلى الصين ويرى أن ألمانيا في طريقها للتصنيع والإنتاج من الصين ويختم كلامه قائلاً:

«أعتقد أن الوضع خطير للغاية -يقصد إذا ما تم تحويل كل أسواق التصنيع والتصدير إلى الصين- إذا لم نستطع إيجاد طريقة مختلفة». وهو يتمنى بذل

المزيد والمزيد من الإصلاحات في أسواق العمل والرعاية الاجتماعية حتى يتم الإصلاح من الأساس.

وهناك مغالطة كبرى وهي اعتقاد بعض السياسيين والعلماء إمكانية الإصلاح من خلال بعض الإضرابات والاعتصامات في أسواق العمل الأوروبية، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك بسبب تلك الفجوة الكبيرة بين الأجور في غرب أوروبا والشرق الأقصى.

تتزايد أعداد الشركات والمصانع التي تعمل على تحويل إنتاجها نحو الصين، وبالتالي فإنه يحدث تباين شديد في معدلات التنمية، حيث تظهر نتائج تلك القرارات الخاصة بالتحول إلى الأسواق الشرقية بنمو منطقي في الاقتصاد الجزئي بينما في المقابل تحدث مشاكل كبرى في الاقتصاد الكلي حيث ترتفع معدلات البطالة وتزداد نسبة التضخم وتقل فرص العمل الجدية.

وطبقاً لكلام (هانز فيرنر) مدير معهد إيفو Ifo في ألمانيا وأوروبا حيث يقول: «إن هذا التحول يخدم اقتصاد السوق العالمي حيث يقدم للمستهلك سلعاً ذات جودة جيدة وبأسعار مقبولة وإنتاج وفير».

وهكذا يتزايد معدل الأداء المخيب للآمال بشكل واقعي، حيث لا تزال بعض المقرات الرئيسة لبعض الشركات في أوروبا وانتقلت جميع مصانعها ومعاملها ومعها العديد من فرص العمل بشكل شبه كلي إلى خارج البلاد.

الصين والهند والأحلام الجديدة

كانت الصين والهند على مدار عدت عقود مضت من أكبر الأمم الآسيوية التي بينها صراعات قديمة، وكانت الصراعات الحدودية من

أهــم أسبــاب توتر العلاقات بــين الجارتين والــذي أدى إلى نشوب بعض المناوشــات العسكريــة في منطقة (كشمــير) المثيرة للجــدل، ولكن الآن استطاع الدبلوماسيون إذابة تلك الخلافات لدرجة أن أصبح جنود البلدين يقومون اليوم بالعديد من المناورات العسكرية المشتركة.

كان المنهــج الاقتصادي مختلفاً تمامــاً للبلدين، فقد بدأت ديمقراطية الهند مع إصلاحاتها الاقتصادية في وقت لاحق بكثير للحكم الشمولي الصيني، وبالتحديد في بداية التسعينيات كما سمحت الهند بدخول الاستثمارات الأجنبية في وقت متأخر للغاية، وكانت الصين على النقيض من ذلك فقد أصبحت قوة صناعية كبرى بالنسبة للهند لأن الصناعات الصينية تمثل أكثر من 50٪ من الدخل القومي للهند.

وقــد أصبحت شركات تكنولوجيــا المعلومات الهنديــة مثل المغناطيس الــذي يجــذب الاستثمــارات الخارجية مــن مختلــف أنحاء العــالم الذين يستعينــون بالهنــد في تقديم خدماتها الخارجية مثــل عملاء الخط الساخن لعمــلاق البرمجيات الأمريكية مايكروسوفت الذين من الممكن أن تفقدهم الشركــة إذا لم يجدوا من يتمكــن من التواصل معهم مثل ما حدث من قبل في ولايتــي تكساس وكارولينا الشمالية، ولكن في الهند وحيث أنها توفر المهندســين المحليين المدربــين على المعلومــات باللغة الإنجليزيــة وباللكنة الأمريكيــة أيضاً والإجابة علــى استفسارات العملاء التــي ترد عن طريق الهاتــف أو البريــد الإلكتروني فإنهم يصبحون بذلــك وسيلة رائعة لجذب عملاء أكثر، وكذلك الأمر في البنوك مثل (سيتي بنك)، وشركات بطاقات الائتمان مثل (أمريكان إكسبريس).

ولكن ليست مجرد مراكز اتصال وخدمة عملاء بسيطة تلك التي سيتم نقلها للهند، ولكن أيضاً سوف يتم توفير فرص عمل جديدة هناك في مجال صناعة تكنولوجيا المعلومات وسوف يحتاجون للعديد من مصممي الرقائق الإلكترونية واستشاريين ومطورين للبرمجيات.

مدينة (بنجالور) ذات الستة ملايين نسمة والتي يوجد فيها ازدهار لصناعة التكنولوجيا تنافس بشدة وادي السليكون الأمريكي حيث تعتبر مركز صناعة تكنولوجيا المعلومات في الهند، كما توجد هنا أيضاً المراكز البحثية الرئيسة لشركات: سيسكو وإنتل وموتورلا وفيلبس وأوراكل والعديد غيرها، كما يوجد أيضاً المعهد الهندي للعلوم والذي يعد أيضاً من أهم الجامعات النخبوية في الهند، حيث يتخرج في كل عام من الجامعات الهندية عشرات الآلاف من المهندسين ذوي المهارات العالية في مجال تكنولوجيا المعلومات (مثل جارتها الصين)، وكما نجح العديد من رجال الأعمال الهنود في المساهمة لبناء وادي السليكون الأمريكي فسوف ينجحون في بناء آخر داخل وطنهم.

وكما توقع الحائز على جائزة نوبل (جاري إس بيكر) من جامعة شيكاغو حيث قال: «كل هذا يجعل من الهند عملاقاً عالمياً قادماً بقوة في مجال تكنولوجيا المعلومات الفائقة».

وقد تم التنسيق بين البلدين (الهند والصين) في العمل بشكل جيد ومثير للاهتمام، حيث أصبحت الصين هي مركز التصنيع العالمي بينما الهند مركز الصيانة والخدمة الرئيس، وبذلك توقف الصراع بين التنين والنمر وأصبح كل منهما مكملاً للآخر بشكل نموذجي، حيث تسيطر الصين

على أسواق تصنيع الأجهزة Hardware وتعمل الهند في إنتاج البرمجيات Software.

وبناءً على تقرير واحدة من أكبر المؤسسات الاقتصادية العالمية (جولدمان ساكس) فإن الصين والهند سوف يسيطران على الاقتصاد العالمي في العقود القادمة، حيث تتوقع الدراسة أنه بحلول عام 2050 سوف تصبح شعوبهما من أكثر الشعوب رفاهية في العالم، وسوف تحتل الصين المركز الأول في الاقتصاد العالمي ويكون المركز الثالث من نصيب الهند وبينهما الولايات المتحدة.

إن الإمكانيات البشرية الهائلة لهاتين القوتين الآسيويتين هي العنصر الأساس لتقدمهما، فالصين 1,3 مليار نسمة والهند مليار نسمة، ولك أن تتخيل في وسط هذا العدد كم الأشخاص الذين يتمنون الحصول على فرصة عمل وبأي مقابل.

قوة كبرى (محتملة) بلا نهاية

يقفون ويجلسون ويتكئون أمام محطات القطار بالمدن الكبرى في شرق الصين في: بكين وقوانجتشو وشنغهاي، يرفعون بأيديهم لافتات ورقية عبارة عن إعلان عن حرفتهم التي يبذلونها مقابل المال، وكل متاعهم من الدنيا فقط ملابسهم التي يرتدونها ومجرفةً ودلواً بأيديهم.

هؤلاء هم العمال المهاجرون إلى الصين، والفقراء الذين يتدفقون من المناطق الريفية نحو المدن الكبرى الغنية كما حدث في إنجلترا إبان الثورة الصناعية الكبرى في القرن التاسع عشر، ولكن هناك فرق رئيس هام

وهــو أن عدد العمال الذين يفدون إلى الصين اليوم يساوي تقريباً عدد كل سكان غرب أوروبا تقريبـاً، بالإضافة أيضاً لعدم وجود إحصاءات محددة لــدى أية هيئــة حكومية عن عدد المهاجرين هل هو 80 أو 100 أو حتى 150 مليون شخص؟

يضــع البسطاء أحلاماً وآمالاً كبرى في الخــروج من تلك المناطق الريفية الفقـيرة في وسط وغرب البلاد، فعنــد مشاهدة صور ناطحات السحاب العملاقــة والعديد من مواقــع العمل والبناء الجديــدة في بكين وقوانجتشو وشنغهاي عبر التلفاز والصحــف والمجلات فإنهم يأملون في العثور على فرصــة عمل مناسبة هناك، خاصةً وأن معارفهم وأقرباءهم الذين يسكنون هذه المناطق الساحلية يحدثونهم بما يحدث في الصين الأخرى.

ينمــو الشرق بثبات منظم وبطء، وتكاليف اليد العاملة في الصين لا تمثل أدنى مشكلة بالرغم من أنها مكلفة أكثر في شرق الصين لكن القافلة تمضي للأمــام، فإنه يوجد مئات الملايين مــن الأشخاص في غرب البلاد في أشد الحاجــة لفرصة عمــل مثل هؤلاء المهاجرين الذيــن يتجولون في الطرقات لعرض مهاراتهم بأي مقابل؛ حيث يعرضون أنفسهم مقابل المال إن جاز التعبير.

أولى التحــركات الجماعية التي تمت كانــت في الغرب والجنوب حيث تركوا شركات منطقة (دلتــا بيرلفلوس) وانتقلوا إلى مدن مجاورة، كما هو الحــال في (جيانجشي) حيث الأجور تقل بنسبة من 30٪ إلى 50٪ عنها في (دونجقوان) و(تنتشن).

قامت شــركات الإلكترونيات TCL وميديا وكونــكا بإنشاء العديد من

المصانــع في غــرب الصين في مقاطعــة (قواندونغ). ولا تــزال العديد من الشــركات الواقعة على نهــر (اليانجتسي) في مــدن (نانجينج) و(وهان) لا تحقق مكاسب تشجعها علــى الاستمرار ولكن أعلن (لي شينشنج) رئيس بلديــة مدينة (وهان) أنه من الضــروري جعل وسط الصين مركزاً اقتصادياً ضخماً.

يقــول (ستيفن روش) كبير الاقتصاديين في مؤسسة (مورجان ستانلي): «إن الصين لديها إمكانيات غير محدودة من العمالة حيث يوجد 900 مليون شخص في البلاد لا يعملون في أماكن مناسبة لهم». ويوضح هذا السبب بأنه يوجد العديد من الملايين هناك لديهم استعداد للعمل بأقل الأجور التي لا يمكــن تخيلها، ومتوسط دحل العامل الصيني لا يشكل سوى من 2,5٪ إلى 3٪ مــن دخل العامل في الغرب، وإذا نظرنــا إلى الأرقام سوف نجد أن أجــر العامل في الصين حــوالي 70 سنتاً في الساعة بينمــا نظيره في أمريكا يحصل علــى 19,10 دولاراً وفي ألمانيا يحصــل العامل على 28,80 دولاراً في الساعة الواحدة، ويرى (ستيفن روش) أن هذه الأجور الصينية المتدنية سوف تستمر لوقت طويل.

متــى يحدث هذا؟ مــن المؤكد أنه في خــلال بضعة عقود فقــط، (آرثر كروبر) الباحث الاقتصادي الصيني والعضو المنتدب للصين يتوقع قائلاً:

«ســوف تظل الصين مواكبة للأسواق العالميــة إلى أن ترتفع لكي تصبح أكبر قوة صناعية في العالم في الخمسين سنة المقبلة».

وفي هــذا المركــز سوف تصبح الصــين أكبر قوة إنتاجيــة في العالم مثلما تسيطر اليوم على صناعة الغزل والنسيج على مستوى العالم.

انهيار نظرية

يبلغ (بول صامويلسون) من العمر 90 عاماً وله العديد من الأعمال والمؤلفات المهمة التي كتبها وحصل على جائزة نوبل في الاقتصاد وهو يعد بالفعل من أكثر الشخصيات احتراماً على مر العصور.

وكان هذا الرجل المسن الحكيم قد كتب مقالاً هاماً في خريف عام 2004 وقدم فيه نظرية مهمة عن تلك القضية التي دار الخلاف حولها على مدار قرنين من الزمان، نظرية التجارة الحرة.

وقد وضحت تلك النظرية أهمية التجارة العالمية وكيفية إفادة كل الدول من التبادل التجاري بينهم، ومن ثم فإن تلك النظرية تقع داخل الإطار النظري لمفهوم العولمة الحديث.

وتوضع هذه النظرية في مكانة عالية بين نظريات سميث[1] وريكاردو[2] وستيوارت ميل[3]، وقد حسنت وطورت من النظريات السابقة لها.

وتتلخص نظرية التجارة الحرة في أنه ينبغي على كل دولة أن تقوم بخدمات إنتاجية حتى تتمكن كل الدول من التنافس لتقديم منتجات

(1) آدم سميث 1723–1790 وكان فيلسوفاً اسكتلندياً ورائداً في الاقتصاد السياسي. وسميث هو صاحب كتب نظرية المشاعر الأخلاقية وثروات الأمم، ويعتبر أول عمل يتناول الاقتصاد الحديث. آدم سميث يعتبر والد الاقتصاد الحديث على نطاق واسع (المترجم)

(2) ديفيد ريكاردو 1772–1823 انجليزي الجنسية ومن أسرة يهودية تنحدر من هولندا، قام بشرح قوانين توزيع الدخل في الاقتصاد الرأسمالي، وله النظرية المعروفة باسم قانون الميزة النسبية ويقال بأنه كان ذا اتجاه فلسفي مقترح بالدوافع الأخلاقية لقوله «إن أي عمل يعتبر منافياً للأخلاق ما لم يصدر عن شعور بالمحبة للآخرين» (المترجم)

(3) جون ستيوارت مل 1806 - 1873 فيلسوف واقتصادي بريطاني، وكان والده جيمس مل أحد كبار أهل العلم والمعرفة في القرن الثامن عشر. نشر مل العديد من المقالات والكتب، تناول فيها بالبحث قضايا فلسفية وسياسية واقتصادية، وهو من رواد الفلسفة الليبرالية، وقد اقتبس جون فلسفته من مذهب بنثام القائم على مفهوم المنفعة، ومذهب والده جيمس مل الترابطي (المترجم)

أفضــل وأرخص ثم تتبادل الدول منتجاتها فيما بينها. وبالفعل تنطبق هذه النظريــة على الاقتصاد العالمي في العقود الأخيرة وهذا يعني التخصص في الإنتاج، فتخصص الأمريكيون في أجهزة الكمبيوتر وغيرها من منتجات التكنولوجيا الفائقة، بينما اهتم الأوروبيون بإنتاج السيارات، واليابانيون والكوريــون بإنتــاج الإلكترونيــات الاستهلاكية، والصينيــون بالملابس والمنسوجــات، بينما كان يتوجــب على باقي الشعوب شراء احتياجاتها والمقارنة بين أيهم أفضل وأقل تكلفةً.

ولكــن ماذا لو أن بلداً واحداً تمكن من إنتــاج كل شيء تقريباً؛ وبأسعار لا تقــارن؟ إذا حــدث ذلك فإن العالم الرائع الجميل الــذي ترنو إليه نظرية التجــارة الحرة سوف ينهار، وهذا بالضبط هو ما تسبب في انهيار النظرية حيــث يشير (بول صامويلسون) إلى الصــين كنموذج لهدم تلك النظرية، حيث أنها أصبحت قادرة على إنتاج كل شيء وبأرخص الأسعار بدايةً من لعب الأطفال وحتى أجهزة الكمبيوتر.

وقد كان الصعود الصيني وزيــادة إنتاجها على حساب الإنتاج القومي للعديــد من الدول التي تقوم بإنتاج أجزاء من هذه السلع في السابق لذلك نجد الآن فائزاً واحداً وهو الصين وعدد كبير من الخاسرين وهم باقي الدول الصناعية التي اشتهرت بإنتاج سلع معينة بعد الثورة الصناعية، ويقول معظم الاقتصاديين في العالم أن الصعود الصيني قد جاء على حساب الغرب، لأن المستهلــك في الداخل لا يهتم إلا بشــراء منتجات جيدة وبأسعار أقل حتى ولو على حساب منتجات بلده القومية.

وهنــاك أيضاً حقيقــة أخرى مزعجــة للغاية؛ وهي أنه مــن خلال ذلك

الصعـود الصيني فإن قاعدتنـا الصناعية تنهار، ولكن هـل سيعيد التاريخ نفسه؟ فعندما قامت الثورة الصاعية السابقة صعدت إنجلترا وبعض الدول الأوروبيـة والولايات المتحدة علـى حساب باقي البلـدان غير الأوروبية وخاصةً الصين والهند اللتان شهدتا تدهوراً كبيراً حينها.

والآن وفي أثنـاء هـذه الثـورة الصناعية الجديدة في هـذا القرن يبدو أن الوصـع سوف ينعكس هذه المرة حيث تتجـه الصين والهند نحو استعادة مكانتهما وسوف يكون الخاسر الغرب (أوروبا وأمريكا) بعد هيمنة دامت أكثر من 150 عاماً وتوشك اليوم على النهاية فيما يبدو.

الفصل الخامس

البداية بتصنيع الأحذية والآن الصواريخ

في الطريق نحو دولة متقدمة تكنولوجياً

«يرى الكثيرون من المستثمرين الغربيين أن شركاتهم التي تعمل في مجال التقنية الفائقة في مأمن من هجوم المنافسين الصينيين، ولكن هذه فكرة خاطئة للغاية وخطيرة».

مينج تسينج أيتز وليامسون

أستاذان استشاريان في جامعة إنسياد

في تلك الساعة المبكرة من صباح يوم 2003/10/16 هبطت تلك الكبسولة التابعة لسفينة الفضاء (شنتشو 5) في وسط منغوليا ليخرج منها بعد 13 دقيقة أول رائد فضاء صيني (يانغ لي وي) بعد أن دار 21 مداراً حول الأرض.

وأصبح يانغ القصير يمثل أهم الأحداث على مدى أيام طويلة وبهذا أصبحت الصين هي العضو الثالث في نادي المسافرين إلى الفضاء بعد روسيا وأمريكا، وتحدث الرئيس الصيني (هو جين تاو) بفرحة غامرة قائلاً: «إن هذه خطوة تاريخية للشعب الصيني حتى تضعه على طريق رواد العالم في مجالات العلوم والتكنولوجيا».

ولم تكن الفرحة للرئيس فقط وإنما لكل الشعب الصيني فقد استطاعت الصين اللحاق بركب التكنولوجيا والتقدم بشكل قوي للغاية، وفي الحقيقة فإن الدولة التي تتمكن من إطلاق رجل في الفضاء ينبغي احتسابها من بين القوى التكنولوجية الرائدة في العالم.

إن هذا الحدث سوف يغير نظرة المحللين الغربيين للصين بشكل كبير فهم دائماً ينظرون إليها باعتبارها متفوقة في صناعة الخردوات الرخيصة ولعب الأطفال والأحذية وزينة أعياد الميلاد وربما الهواتف المحمولة وأجهزة التلفاز

ولكن هل تتمكن الصين من إنتاج تكنولوجيا فائقة؟ أو تصنيع صواريخ؟

وقد تبعت تلك الرحلة رحلة ثانية للفضاء الخارجي في خريف 2005 ليرى الجميع أن الصين عازمة بالفعل على المضي قدماً في الطريق لتصبح دولة رائدة في مجال التكنولوجيا الفائقة ويرى السفير الألماني السابق (كونراد سيتز) أن الصين قد أصبحت بالفعل ثاني أهم دولة في مجال التكنولوجيا الفائقة بجوار الولايات المتحدة.

وهذا هو الهدف الأساس للحكومة الثانية منذ عام 1978 عندما بدأت سياسة الإصلاح وهي مستعدة لفعل أي شيء للوصول إلى هذا الهدف بداية من ضخ الكثير من الأموال في مجال التعليم ثم دعم شركات التكنولوجيا كلما أمكن ذلك.

كذلك الدعم الذي تمنحه الحكومة الصينية للشركات الأجنبية والذي كان يبدو غريباً للوهلة الأولى ولكنهم قدموه لكي يضمنوا أن نظراءهم الصينيين أنهم الأفضل في مجال التكنولوجيا وقد أجبرتهم الهيئة التشريعية على الدخول في مشاريع مشتركة مع شركاء صينيين كنوع من الابتزاز وكأنهم يقولون إذا أردتم أن تكونوا هنا في هذا السوق فإنه ينبغي عليكم أن تنقلوا لنا ما تتمتعون به من خبرة.

وبالطبع يريد كل من يعمل بالتجارة وجود أسواق رابحة في المستقبل وأماكن إنتاج قادرة على أن تفي باحتياجات تلك الأسواق لذلك قاموا ببناء مراكز بحثية للتطوير والتدريب والتعاون مع الباحثين حتى يتمكنوا من نقل المعرفة والعلوم من الغرب إلى الشرق الأوسط.

لقد قامت الشركات والباحثون الصينيون بفضل المساعدات الحكومية

والخارجيـة بعبـور فجوة كـبرى كانت تفصلهـم عن الغـرب في العديد مـن المجالات، بل استطاعـوا التفوق أيضاً في بعضـ المحالات مثل مجال التكنولوجيـا الحيوية والهندسـة الوراثية لأن الغـرب مازالوا مترددين في استخدام تطبيقها لأسباب ومحاذير أخلاقية.

ولكـن لا تـزال الصين في مجـال المعلومـات وصناعـة الاتصالات تلي أمريـكا وأوروبا، ولكنهم يقومـون بإنتاج أجهـزة الكمبيوتر والهواتف المحمولـة وخدمة الشبكات، ويوماً بعد يوم تتزايد المعرفة الصينية في هذه المنطقـة وتصير أقوى وفي بعض مجالات تكنولوجيا المعلومات التي أصبح الصينيـون فيها أقوياء، بالفعـل بدؤوا بوضع معايـير خاصة بهم وفرضها علـى بقية العالم وسـوف يأتي الوقت الـذي تسيطر فيه علـى كل صناعة التكنولوجيا وتنجح فيها وسيكون أقرب مما نعتقد.

عندما تصبح الدولة هي المحرض

دعـا (دينج شياو بينج) في بدايـة 1978 إلى إجراء إصلاحات شاملة على أربعة محاور وكان أحد أهم تلك المحاور مجال العلوم والتكنولوجيا والذي بدونه لن تتقدم الثلاثة محاور الأخرى وهي الزراعة والصناعة والدفاع.

لأنـه بدون التقدم في العلم لن تكون هناك أية خطوات متقدمة في باقي المجـالات وسافر دينج للمـرة الأولى إلى الولايات المتحدة عام 1979 وزار مراكـز أبحـاث الفضاء في هيوسـتن وتكساس ودهش عندمـا رأى بعينه مدى القوة التي استطاع الرأسماليين الصينيين الوصول إليها.

وقـد كانت الثـورة الثقافية قد تركـت آثار عميقـة في الأوساط العلمية

الصينيــة التي كانــت مدمرة تماماً حتى وقت قريــب وكانت طبقة المثقفين الصينيـين قد قمعــت بوحشية شديـدة تحت حكم (ماو) حتــى أوشكت على الفنــاء ثم أعلن دينج أنهم سوف يبدؤون بداية جديدة تماماً، وقدمت الحكومــة العديد من الخطط والبرامج قصيرة وطويلــة المدى، فعلى المدى الطويل برنامــج التنمية العلمية والتكنولوجيــة 1986 – 2000 وعلى المدى القصير خطة الدولة لتنمية المختبرات البحثية.

بدأت الدولة في تنفيذ واحدة من أهم خطط الصناعة والتكنولوجيا التي أطلقت عليها اسم (الخطة 863) وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها صدرت في مارس 1986 وقد تم تحديد مجالات البحــث الرئيسة وهي التكنولوجيا الحيوية وعلــوم الفضاء وتكنولوجيا المعلومات والمــواد الجديدة[1] والليزر وتكنولوجيا المحركات والطاقة.

وهذه هــي المجالات التي حاولــت الحكومة تدعيمهــا طالما كان ذلك في الإمــكان وبدعم كبير أيضاً من القيادات السياسية في الأوساط العلمية وذلك لتحديــد التوجه الصيني وشددوا كثيراً علــى أهمية استخدام العلم والتكنولوجيا كشعار من أجل تنمية شاملة للبلاد.

ولم تكــن القيــادة السياسية تريد أن تصبح الصين هــي مصنع العالم ولم تكــن أيضاً تريد أن تكتفي الصــين بإنتاج احتياجاتها فقط لكنها أرادت أن تصبح الصين قــوة اقتصادية وإنتاجية مؤثــرة لذلك تشجع الحكومة

(1) المواد الجديدة: الترجمة المرادفة لمصطلح Neue Werkstoffe وهي نوع جديد من التكنولوجيا الناتجة عن استخدام تطبيقات تكنولوجيا النانو، والمواد الجديدة هي جزء لا يتجزأ من المجالات الحديثة للتكنولوجيا المبتكرة، ويتم استخدامها في التطبيقات التكنولوجية للعديد من المجالات المهمة مثل الفضاء وأنظمة الدفاع وإنتاج الطاقة (المترجم)

دائماً التقدم التكنولوجي.

ولتوضيح حقيقة هذا التقدم علينا أن نفهم جيداً مدى التعاون الذي بين قيادتي الجيل الثالث والرابع الذي كانت لديه خلفية تقنية (حكم التكنوقراط)، وقد كانت القيادة المركزية من الجيل الثالث (جيانغ تسه مين) و(تشو رونغ جي) مهندسي كهرباء؛ تحت حكم رئيس الحزب الحاكم مهندس الميكانيكا (هو جين تاو).

ولكن يوحد عيب في الوصول إلى دولة ذات تقنية عالية وهو عدم وجود جو يساعد على إنتاج أفكار إبداعية كما في معظم الدول بينما المعرفة الحقيقية تقوم على نظريات الصراع والتشكيك.

لذلك استيقظت مصانع الأفكار من سباتها لتعلن عن وجود إمكانات هائلة من الإبداع، ولذلك يتوقع (رودي بالنج) مدير جمعية أبحاث التكنولوجيا الحيوية في (براون شفايج) أنه إذا لم ينتفع الصينيون بطاقتهم الإبداعية ولم تظل مجرد أوراق حديثة الحقائب فسوف تخوض العديد من الدول حروباً من أجل الحصول عليها.

الريادة في مجال التكنولوجيا الحيوية

في الوقت الذي لا يزال الاتحاد الأوروبي يخوض نقاشات كبرى بشأن الآثار الصحية والأخلاقية المترتبة على استخدام التكنولوجيا الحيوية قامت الصين في البدء بتطبيقها بشكل علمي ويقول (تشن شانغ ليانغ) أحد المتخصصين الصينيين في التكنولوجيا الحيوية:

«يعطي الاتحاد الأوروبي بموقفه المتردد من استخدام تطبيقات

التكنولوجيا الحيوية فرصة عظيمة للصين نستطيع عبرها الوصول للهدف القومي لجعل الصين قوة عالمية كبرى في مجال الكائنات المعدلة وراثياً».

وبتردد الأوروبيين أصبح الصينيون في وقت قصير رواداً في مجال التكنولوجيا الحيوية وهذا المجال يعد واحداً من أهم التكنولوجيات الرئيسة في هذا القرن، وفي بكين كتبت صحيفة (وول ستريت) طموحات البعض في مجال التكنولوجيا الحيوية: «ماذا كان القمر الصناعي بالنسبة للاتحاد السوفيتي؟».

لا توجد دولة باستثناء الولايات المتحدة تضع الكثير من استثماراتها في مجال التكنولوجيا الحيوية باعتباره واحداً من أهم قطاعات الدولة.

وفي الوقت نفسه فإن الصين لديها مجموعة كبيرة من الباحثين الذين ازدادوا في العشرين عاماً الأخيرة أكثر من 50,000 عالم يعملون في مجال صناعة التكنولوجيا الحيوية وانضم إليهم 4,500 باحث جديد كل عام.

وفي هذه الأثناء فإن الأمريكيين قد تفوقوا في استخدام تطبيقات التكنولوجيا الحيوية في مجال الصيدلة والزراعة التي تسمى: (تطبيقات التكنولوجيا الحيوية الخضراء).

إلا أنه لا توجد دولة لديها دراية ومعرفة أفضل من الصين في مجال تطوير وإنتاج الأغذية المعدلة وراثياً، وفي عام 1988 نجح العلماء الصينيين في تهجين نوع جديد من التبغ المعدل وراثياً ليكون أكثر مقاومة للفيروسات، ثم استطاعوا من خلال الأبحاث من محاصيل الطماطم والفول السوداني والقطن والبابايا والقمح والفول الصويا المعدلة وراثياً.

اليوم يعمل أكثر من مليون مزارع صيني في إنتاج المحاصيل المعدلة

وراثياً وخاصة القطن وفول الصويا والأرز وبما أن هذه النباتات لها القدرة على مقاومة الآفات والفيروسات فإن المحاصيل الناتجة عنها تكون أفضل وأكثر أمناً.

ويتوقع عـالم التكنولوجيا الحيوية (تشن شانغ ليانغ) أنه بحلول عام 2010 سوف تكـون نسبة زراعة محاصيـل الأرز والقمح والـذرة وفول الصويا والقطن في الصين داخل محطات معدلة وراثياً ما بين 30٪ إلى 80٪.

وسوف يواصل الصينيون ويستمـرون في التقدم لتحقيق نمو وإنجازات ضخمـة في مجـال التكنولوجيـا الحيوية ليس فقط داخـل بلادهم ولكن خارجها أيضاً فهم يريدون الانتشار في كل الأسواق العالمية.

يقـول (سكوت روزيـل) من جامعة كاليفورنيا وأحد أكـثر الناس إلماماً بالمشهد الصيني في مجال التكنولوجيا الحيوية:

«من المتوقع أن تكون الصين أحـد المصدرين الأساسيين للطرق البحثية في مجال إنتاج وتطبيقات التكنولوجيا الحيوية».

وقـد جاء رأيـه هذا عن إمكانيـة استخدام تلـك التكنولوجيا في علاج الخلايا الجذعية وفرص تسويق تلك الأبحاث.

السماح بالاستنساخ

(لو جـوانغ شي) تمتلك وتديـر عيادة للإخصاب في مدينـة (تشانجشا) عاصمة مقاطعة (هونان) وهذا جيد، والمبالغ التي تحصل عليها تنفقها على الأبحـاث الخاصة بكلية طب (شيانغ يا) والآن قد أصبحت على الأقل من وجهة النظر الغربية في موقف حرج.

فبعد 60 عاماً استنسخ فيها عشرات الأجنة البشرية وقد تمكنت من استحداث طرق جديدة فاعلة وتطويرها لاستنساخ الخلايا البشرية، وقد كان والدها (لو هولين) يعمل في السابق مع رائد علم الوراثة (هانت مورجان توماس) بجامعة كولومبيا في نيويورك.

ولا تراود الباحثون الغربيون الشكوك في أن الصينيين قد أصبحت لديهم قدرة عالية في مجال الاستنساخ وفي تقرير صادر في سبتمبر 2002 من السفارة الأمريكية ببكين يقول:

«لقد أصبحت لدى الصينيين القدرة على النمو بسرعة كبيرة في أبحاث الخلايا الجذعية ولديهم كمية كبيرة من الأجنة البشرية المستنسخة لأغراض الاختبار للأبحاث العلمية».

كما أن القيادة السياسة تعطي دعماً مالياً قوياً لتلك الأبحاث، ويزداد الصينيون معرفة عن طريق العلماء الذين كانوا يدرسون في الخارج ثم يعودون ليعملوا داخل بلدهم، (لي لنج سونج) هو أحد الأمثلة على ذلك فقد ظل يعمل لفترة طويلة في جامعة ستانفورد وفي عام 2000 عاد إلى بلده ليصبح مديراً لمركز الخلايا الجذعية بجامعة بكين. وحصل على دعم مالي من الدولة قدره 17 مليون يورو ويقول لي لمحلة (دير شبيجل): «لا توجد ظروف عمل ملائمة أفضل من تلك الموجودة في الصين الآن».

في الصين يتركون المخاوف والمحاذير الأخلاقية جانباً ففي الوقت الذي مازال الغرب لا يسمح بإجراء عملية الاستنساخ إلا على الحيوانات فإنهم في الصين يعملون في الاستنساخ البشري العلاجي.

وبالرغم من وجود لوائح جديدة اعتمدت مؤخراً في مجال البحوث

الجينيـة تحظر هـذا الاستنساخ لأغراض التكاثر البشري وتحظر التجارة في البويضـات والحيوانـات المنوية وتطبق هذه القواعـد بشكل صارم في بريطانيا وأمريكا بينما تظل مجرد كلام على ورق في الصين.

ويعتقد الخبراء أنه بالرغم من تلك اللوائح وبعد إجراء المزيد من الأبحاث سوف يتم الاستنساخ وربما يكون هذا صحيحاً كما تنبأت به مجلة (ويرد) الأمريكيـة في عددها الصـادر في يناير 2003 تحت عنـوان: (الصين القوة العظمي والأولي في الاستنساخ).

مساعدات تعليمية من الخارج

كنا نجلس في المطعم الألماني (تسندلر تانك شتيلي) في بكين، وكان محدثي خبير صيني كبير كان يعمل لفـترة طويلة كمثل لأحدي الشركات الألمانية وبعد أن تناولنا بعض الشراب أخذنا نثرثر سوياً.

قال لي: «ما الذي يحدث هنا؟».

«الذي يحدث هنا هـو عبارة عن عمليات سطو بشرية ضخمة»، وهذا بـلا شك كلام قـوي ولكن هذا الرجل مـن ذوي الخبرة فقـد قضى أكثر مـن 25 عاماً في مجال الأعمال التجاريـة بالصين وهو يعرف تماماً ما الذي يتحدث عنه.

وكان قـد حضر العديد مـن المفاوضات حيـث كان يجلس في الجانب الصيني ويحاول دائماً الحصول علـى المعرفة والتكنولوجيا من الشركات الألمانيـة معرفة كيفيـة الوصول إلى الأسواق وهذا الـذي مازال الصينيون يقومون به.

وقــد قامت الحكومة الصينيــة ومجلس الدولة بسن العديــد من القوانين والتشريعات على مدى السنوات الماضية للتمكن من ممارسة ضغوط هائلة علــى الشركات والمؤسســات الأجنبية فمن يريد القيــام بأعمال تجارية في الصين من الغرب فإنه ينبغي عليه أن يقدم علمه وخبرته لهم.

يقول (دلبرت وليامسن) مدير المبيعات الدولية للشركة الأمريكية متعددة الجنسيــات جنرال إلكتريــك: «إن الصينيين يستدعون هــذه التكنولوجيا ليتفوقوا عليها في الوصول إلى السوق».

ويكــون الصينيون في موقف أفضل عند التفاوض حيث يقول لي محدثي في المطعــم: «نحــن ليس لدينا خيار الانتظار، ينبغــي علينا نقل كل المعرفة إلينا».

يقول (يــورد إم رودلف) المحلل الاقتصادي لــدي بنك كريدي سويس السويسري منتقــداً: «إن الشركات الكبرى والرائدة في العالم والتي تنشط في الصين وأصبح لديها العديد من مراكز البحث والتطوير هناك أصبحت محفوفة بالعديد من المخاطر بعد سيطرة العقول الصينية عليها».

حوالي 400 من أهم 500 شركة ومؤسسة في العالم أصبح لديها الآن بالفعل مراكــز بحث وتطويــر خدمات في الصــين سواء كانت في مجــال صناعة السيــارات أو الإلكترونيات أو المستحضــرات الدوائية أو الاتصالات ولا يمكن أن يكون هذا مجرد (ابتزاز).

وهنــاك أمثلة على ذلك، فقــد قامت شركة موتوريــلا بصيانة 19 مركزاً تكنولوجيا في الصين والتــي كانت تابعة لشركة الاتصالات بتكلفة بلغت 300 مليون دولار؛ ولكن عندما جاءت شركات إريكسون ونوكيا وسيمنز

فـإن مراكز البحث والخدمة والتدريب تمت بدون تكلفة تقريباً واستقبلت الآلاف من عملائها.

كمـا دعمت ميكروسوفـت العديد مـن الأساتـذة والجامعات بملايين الدولارات بينما تقوم شركة IBM بتدريب نحو 100,000 من المتخصصين في البرمجيـات على أمـل أن يساعد ذلـك في تسويـق أجهزتها، وكذلك العديد من شـركات الأدوية قامت بإنشاء مواقـع ضخمة لتكون مختبرات بحثيـة لتطوير منتجاتهـا والتدريب مثل جلاكسو سميـث كلاين، وإيلي ليلي، ونوفارتس.

قامـت الشركة المصنعـة للسيارات جنرال موتورز بإنشـاء مراكز صيانة وتحديـث في شنغهاي منـذ عام 1997 تحـت اسـم PATAC[1] حيث يتم وضع التصميمـات وفحص سيارات جنرال موتورز كمـا يتم أيضاً عمل كل التطـورات وبشكل أفضل من التي تحدث في المركـز الرئيس للشركة في دترويت.

وقد قررت جـنرال موتورز رفع مستوى PATAC بعد مشاركة شريك آخر مـن شنغهاي بتكلفة وصلت إلى 200 مليـون يورو، وعندما افتتحت شركـة الكاتيل مركز أبحاثهـا السادس في شنغهاي قـال المدير التكنيكي (نيـل رانسوم) في لهجة فرحة: «من خـلال هذا المركز فإن الصين سوف تتمكن من الوصول إلى أحدث تقنيات الاتصال».

(1) PATAC اختصار لجملة Pan Asia Technical Automotive Center أي المركز الفني الآسيوي الشامل لصيانة السيارات

ويثـير (رودلف) مدير الغرفـة التجارية السابق ببكـين عدة تساؤلات: «هـل هذا في صالـح أوروبـا؟ عندما يتـم تدريب عشـرات الآلاف من المهندسين الصينيين داخل المئات من مراكز البحث والتطوير وتحت رعاية أجنبية وكل هذا يكون على حساب الشركة الأصلية؟».

لا بالطبـع هذا ليس في صالح أوروبا ولا الولايات المتحدة، وإذا كانت الصين تنقل يومياً المعرفة والخبرة الأوروبية فهم بذلك الأوروبيون يقومون بتربية منافسين لهم في المستقبل، ولكن حتى الآن لم يمتلك أحد من مديري الشـركات والمؤسسات الكـبرى الشجاعة الكافية لكـي يقول للصين لا وحتى في المستقبل فلن يفعل هذا أحد.

إنهـم يفكرون فقـط على المـدى القصـير ويريـدون الآن الدخول في الأسـواق الصينية ولكن ماذا سيحدث غـداً؟ لا يهتمون بذلك لأنهم ربما حينها لن يكونوا موجودين في مواقعهم، ولذلك فإن تكنولوجيا الانتقال في حالـة تأهـب تام والمورد الرئيسـ هو الجارة القريبـة جمهورية جزيرة تايوان.

مساعدة أخوية من تايوان

تايـوان دولة إنتاج تقنيات عالية وليست مجـرد سوق تجاري لأن تايوان تختلـف عن أمريكا واليابـان فهي ليست لديها مـاركات مشهورة عالمياً مثـل: ديل أو كومباك أو توشيبا وحتى الشركـة الكبرى آيسر لديهم بعض الأجهـزة الاستثنائيـة، ومـع ذلك تعـد تايـوان واحدة من أكـبر مصنعي الكمبيوتـر واللاب تـوب في العالم، كمـا يجد المرء لديهـم كل الأجهزة

الأخرى الملحقة بهم.

وتنتج تايوان أجهزة الكمبيوتر واللاب توب الخاصة بهم والشركات الأجنبية الأخرى والتي تضع عليها علامة (صنع في تايوان) لذلك فإن أغلب أجهزة الكمبيوتر IBM و(هيولت بكرد) (HP) و(فوجي) يتم إنتاجها في تايوان.

وبعد عدة سنوات من ممارسة الإنتاج الخارجي تطورت تايوان حتى أصبحت دولة ذات تقنية عالية. قد ساهمت الولايات المتحدة في ذلك الصعود التايواني بشكل كبير عن طريق التعاون بين المؤسسات الأمريكية وتايوان في الإنتاج، حيث تنتج تايوان كميات كبيرة من المنتجات الأمريكية، وبالتالي تنتقل الخبرة والمعرفة إلى الجزيرة.

بالإضافة إلى أن العديد من التايوانيين كانوا يدرسون في جامعات أمريكية ثم عادوا لأوطانهم مرة أخرى، وأصبح المحور الثلاثي للتفوق التكنولوجي: (أمريكا - تايوان - الصين).

يقول (باري نوتون) من جامعة كاليفورنيا: «إن تايوان هي الوسيط الرئيس بين الولايات المتحدة والصين في صناعة التكنولوجيا الفائقة».

ولكن فقدت تايوان منذ فترة جزءاً كبيراً من إنتاج الكمبيوتر وانتقل إلى الصين لأسباب تتعلق بالتكلفة، ولذلك أصبح المصنعون الأمريكيون يذهبون مباشرةً إلى الصين للإنتاج هناك كبديل عن تايوان، وتطورت طريقة تقسيم العمل بشكل جديد فأصبحت الصين تنتج التصميمات التايوانية.

ولذلك فقد تم تحويل المسار بشكل كامل حيث أصبح الإنتاج ينتقل مباشرةً من تايوان إلى الصين وأصبحت تايوان تلعب الآن دوراً جديداً

في الصين في صناعة التكنولوجيا الفائقة وفي مدن صينية مختلفة ينتج فيها التايوانيون كل ما يخص الكمبيوتر من شاشات وماوسات ولوحات مفاتيح في مدن: (دونجقوان) و(بيرلفلوس) وعندما ينتج التايوانيون هذا فإنهم يحصلون على العديد من الميزات منها: توفير تكاليف النقل والتبادل بين المنتجات المختلفة.

وتوجد بجوار مدينة (دونجقوان) العديد من أماكن إنتاج التكنولوجيا الفائقة حيث يلعب التايوانيون دوراً كبيراً في مدينة (شنتشن) التي تقع في منطقة (دلتا بيرلفلوس) وكذلك (شنغهاي) والمدن المجاورة لها من (سوتشو) و(كونشان).

ما الذي تريده تايوان الصغيرة الوصول إليه بمساعدة التايوانيين والصين الكبرى، ربما الحصول على فرصة جيدة، يتنبأ (يون تانج) رئيس شركة مايكروسوفت في الصين أنه في خلال العشر سنوات القادمة سوف نرى العديد من النسخ الأخرى لتايوان وقد قطع الصينيون دوراً كبيراً وجيداً في إنتاج الرقائق الإلكترونية وأجهزة الكمبيوتر.

الرقائق الإلكترونية وأجهزة الكمبيوتر

في كل عام يتم اختيار أفضل 500 شركة في مجال الكمبيوتر ويتم الاحتفال بتلك القائمة مرتين في السنة في الصيف بمدينة (هايدلبرج) وفي الشتاء في الولايات المتحدة.

وفي عام 2004 كان أهم عشرة أجهزة كمبيوتر ستة من أمريكية واثنان من اليابان وجهاز بريطاني وللمرة الأولى جهاز كمبيوتر صيني يسمي

وتم تصنيعه في مركز كمبيوتر فائق في شنغهاي (A 4000 Dawning) ويعمل بمستوى أداء عالٍ يصل إلى 8,1 تيرا فلوب، وهذا يعني أنه يمكنه أن يؤدي 8,1 مليار عملية حسابية في الثانية الواحدة.

(فرانسيس بيرمان) مدير مركز الكمبيوترات العملاقة بجامعة كاليفورنيا يقول: «في العشر سنوات الأخيرة زادت سرعة النمو في إنتاج الكمبيوتر في الصين منذ عشر سنوات لم يكن لديهم جهاز كمبيوتر واحدة في التصنيف العالمي لأهم 500 وقد أصبحوا اليوم في المركز التاسع».

دائماً ما يحدث تقارب بين الدول المصنعة للتكنولوجيا الفائقة سواء بالسبة لأجهزة الكمبيوتر أو الرقائق الإلكترونية ولكن حذرت رابطة صناعة أشباه الموصلات الأمريكية بأن الصين يمكنها أن تصل إلى مستوى الريادة في هذه الصناعة من خلال هذا التقارب.

وتم تخفيض الفجوة التكنولوجية في صناعة الرقائق الإلكترونية بين الشركة الأمريكية الرائدة إنتل ونظيرتها الصينية SMIC[1] وهي إحدى الشركات الصينية العملاقة في صناعة الرقائق الإلكترونية.

وتبذل شركة إنتل مجهوداً كبيراً لسد الفجوة بينها وبين نظرائها الصينيين لذلك فهي تستخدم تكنولوجيا النانو في تصنيع الرقائق الإلكترونية، وفي الوقت نفسه تدريب الشباب في شغهاي على أحدث الآلات في تصنيع الرقائق الإلكترونية.

(1) SMIC اختصار لجملة: Semiconductor Manufacturing International Corp أي: الشركة الدولية لصنع أشباه الموصلات

وتستقبل الحكومة المركزية في الصين القادمين الجدد في صناعة الرقائق الإلكترونية لأن تلك الصناعة تمثل عمود الأساس لقطاع التكنولوجيا الفائقة؛ فمن يصدق أن تلك الرقائق الإلكترونية الصغيرة جداً تصنع العجائب في عالم التكنولوجيا.

ولذلك أيضاً فإن الحكومة الصينية وضعت خططاً لمساعدة 20 شركة جديدة أنشئت لتصنيع الرقائق الإلكترونية وقد قامت بكين بوضع مبلغ 120 مليار دولار في الخطة الخمسية الحالية لقطاع تصنيع تكنولوجيا المعلومات وهذا من أجل هدف محدد وهو مضاعفة إنتاج صناعة تكنولوجيا المعلومات في خلال الفترة القادمة.

يقول (جورج وانج) مدير مركز تنمية الأبحاث لشركة IBM في الصين: «لن يستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى تصبح الصين أحد اللاعبين الكبار في صناعة تكولوجيا المعلومات»، ويتبأ (دوج تاو) المحلل السياسي والاقتصادي لدي بنك CSFB في هونغ كونغ وفقاً لما نشرته نيويورك تايمز أنه في خلال العشر سنوات القادمة سوف تصبح الصين أكبر منتج في العالم لمعدات وأجهزة تكنولوجيا المعلومات وسوف تلعب العديد من الشركات دوراً هاماً من خلال أودية السيلكون الصينية.

العديد من أودية السيلكون الصينية

وادي السيلكون هو اسم لتلك المنطقة جنوب سان فرانسيسكو التي تمتد حتى سان خوسيه وإذا ما تلفت على جانبي الطريق رقم 101 فإنك سوف تجد العديد من أسماء أكبر الشركات والمؤسسات في مجال

التكنولوجيا الفائقة مثل:

(سان ماثيو) و(بالو آلتو) و(ماونتن نيو) و(سان ديفاك) و(سانتا كلارا)، هنـا تجد الشركات الرئيسة في مجـال تكنولوجيا المعلومات (هيولد بكرد) و(صن مايكرو سيستم)، ويوجد مقراتهم الدائمة كما توجد أيضاً جامعة ستانفـورد واحدة من أفضـل الجامعات في البلاد وهـذا المزيج من الخبرة والـذكاء ورأس المال يعد فريـداً من نوعه في العـالم، ولا توجد بقعة على الأرض تحمل هذا العدد من شركات ومؤسسات التكنولوجيا الفائقة كما يوجد هنا في وادي السيلكون.

وهـذا الوادي الذي في الحقيقة ليس بـوادٍ يعتبر نموذجاً كبيراً للعديد من الدول وبخاصـةً الصين ولذلك يجري الصينيـون العديد من المحاولات لإنشـاء أمثلـة من وادي السيلكـون عبر حوالي 100 حديقـة للتكنولوجيا الفائقة في كل مدينة ومنطقة توجد إحدى هذه الحدائق، في السابق كانت تسمـى تلك الأماكن مراكز تطويـر وتنمية أما اليوم فيطلـق عليها مناطق التكنولوجيا الفائقة.

واحـدة من تلـك الحدائق تسمي (تشـونج كوان تسـون) تقع على بعد مسافـة نصف ساعـة بالسيارة شمال غـرب العاصمة بكـين ويوجد هنا الحـرم الجامعي لاثنتين من أكبر جامعات النخبة في البلاد جامعة تسنج هوا وجامعـة بكين (التي تسمى بيدا) وانتقلت العديـد من الشركات المتعددة الجنسيات إلى جوار الجامعتين كما انتقلت معهم مراكز أبحاثهم.

عندما تسير في شـوارع (تشونج كوان تسون) الفسيحة يمكنك أن ترى العديـد من المباني الكبـيرة التي ترفرف فوقهـا ثلاثة أعـلام، أحدها علم

الصين الأحمر والثاني يخص بلد المنشأ للشركة أو المؤسسة والثالث شعار إحدى تلك الشركات الكبرى مثل إريكسون وIBM مايكروسوفت وموتورولا، ومن بين هده الأسماء الأجنبية الكبرى نرى بعض الشركات الصينية الكبيرة أو الصغيرة التي تعمل في مجال التكنولوجيا الفائقة على سبيل المثال شركة الكمبيوتر العملاقة لينوفو.

(حو شندورف) إحدى الشريكات في مشروع إكسل بوادي السيلكون بعد جولتها في (شونج كوان تسون) قالت: «إن هذا يذكرني بشدة بوادي السيلكون في الستينيات وأشعر أن الهواء هنا له نفس الطعم الدي كان هناك».

ويوجد في الصين الآن العديد من الأماكن التي صارت مثل (شونج كوان تسون) حوالي ما يقرب من مائة حديقة تكنولوجية أنشئت في أكبر المدن في شنغهاي الحديقة التكنولوجية (تشانج جيانج) وفي (سوتشو) توجد مدينة بأكملها تقريباً تعتبر بمثابة حديقة صناعية كما يتم العمل على إنشاء العديد من الأماكن الصناعية المتخصصة مثل: (الوادي الطبي) و(وادي الصيدلة) و(الوادي الرقمي) و(وادي البرمجيات).

الانطلاق إلى الفضاء حق للجميع

فقط بعد أيام قليلة من الانتهاء من أول مهمة ناجحة من الصين لاقتحام الفضاء جاءت إشادة كبيرة من ناحية الجانب الآخر للمحيط الهادي، يعترف بذلك (سين أوكييف): «إن إطلاق (شنتشو 5) يعد بمثابة إنجاز كبير في تاريخ البشرية».

و(أوكيــف) هو رئيــس وكالة (ناســا) للفضاء الخارجــي و(تنتشو 5) مشــروع ذو مكانة دولية كبيرة بالنسبة للصينيين فإنهم يريدون أن يظهروا مدي ما وصلوا إليه من تكنولوجيا.

(ديفيد بيكر) كاتب بريطاني متخصص في الصحافة العسكرية لدى مجلة (جين) لأبحاث الفضاء التي تصدر في لندن يقول: «أمسكت الصين بمكبر صوت في يدها وقالت لقد أصبحت لدينا القدرة على فعل أي شيء».

كما يتم استخدام تكنولوجيا الوصول إلى الفضاء كدليل على إظهار القوة السياســية لذلك قام الروس في عام 1961 بإرسال (يوري جاجارين) كأول إنسان إلى الفضاء الخارجي ولإظهار تفوقهم على الأمريكيين، ولذلك رد الأمريكيون بإرسال (نيل أرمسترونج) و(أودين الدرين) و(مايكل كوليز) سنة 1969 ليكونوا أول رجال على سطح القمر ويشعروا الروس بتفوقهم.

والآن يريد الصينيون تقديم أنفسهم كقوة من خلال رحلتهم إلى الفضاء الخارجــي، في بدايــة التسعينيات أعطى (جيانج تسه مــين) إشارة البدء في تنفيذ برنامج الفضاء المأهول، وقد وضعت الحكومة الصينية ميزانية ثانوية لهذا المشروع القومي الطموح ما بين 1,3 إلى 2 مليار دولار.

ومــن خــلال أربع رحلات إلى الفضــاء من (شنتشــو 1) إلى (شنتشو 4) استطاعــت الصين جمع الخبرة اللازمــة للخروج في أول رحلة إلى الفضاء الخارجــي وكانت سفينة الفضاء (شنتشو 5) هــي المشروع العملاق الذي اتحــد فيــه أكثر مــن 3,000 مصنع وعشــرات الآلاف من العلمــاء والفنيين والمديرين، وكانت المواصفات الموصوعة لأول رائد فضاء صيني أن يكون شابــاً لا يزيــد طوله عن 1,80 متر، ولا يزيد وزنــه عن 65 كحم ويكون قد

التحــق بكلية الطيران بعد دراسته الثانوية وعمل فترة كطيار وبالإضافة إلى ذلك يكون قد تلقى بعض التدريبات في مركز جاجارين بموسكو.

ومن الواضح جــداً أنه كان للروس يداً في المساعدة في الصعود الصيني في مجــال الفضــاء حيث يــدو التشابه مــن الوهلة الأولى بــين (شنتشو 5) والمركبــة الفضائيــة (سويوز) قريــب للغاية بطول 9 أمتار هــو وزن ثمانية أطنان تبدو (شنتشو 5) وكأنها نسخة أكبر قليلاً من نفس طراز (سويوز).

وقد قــررت ذلك المجلة العلميــة الأمريكية (ساينتفكــت أمريكان) في تقرير لها نشرته يقول: «لكــن تشييد وسيلة الانتقال إلى الفضاء في الصين كان أغلبــه بفضل اعتمادهم على أنفسهم كمــا يبدو التفوق التكنولوجي (شنتشو 5) على (سويوز)».

وتواصــل الصين ركضهــا في السباق الفضائي الــذي لم يصل إليه حتى الآن سوى الولايــات المتحدة وروسيا وأوروبا، وفي الوقت الذي لا يجد فيــه الخبراء الروس رأس المال الكافي، وأيضاً عندمــا يكون برنامج وكالة الفضاء الأوروبية ESA أقل طموحاً، تكون هناك فرصة أفضل للصين بعد الأمريكيين حيث تضع وكالة ناســا ميزانية تقارب 15 مليار دولار لتصبح بذلك الصين أفضل ثانٍ في سباق الفضاء.

ولا يخفــي الصينيون طموحهم فقد انطلقت رحلتهــم الثانية إلى الفضاء الخارجــي في أكتوبــر 2005 بعد عامين فقط مــن الأولى ولكن في هذه المرة حلــق اثنان من رواد الفضاء علــى متن المركبة الفضائيــة (شنتشو 6) لبضعة أيــام وكان لديهــم المزيد من الخطــط الطموحــة إنهم يريــدون -تماماً مثل الأمريكيــين- أن يصلــوا إلى القمر حيث أن الخــبراء الصينيون قاموا بوضع

حـدول رمني يشمل المراحـل التالية: إطلاق سفينـة فضائية أخرى في عام 2007، ثم التحليق بسفينة فضائية بدون طيار حول مدار القمر والهبوط عليه عام 2012، ثم وصول أول رائد فضاء صيني إلى سطح القمر عام 2020، وقد أعلن هذا رئيس وكالة الفضاء الصينية (سون لاي يان) في محطة إلـ BBC.

ومع ذلك فـإن تلك الرحلات إلى الفضاء ليست دليـلاً للصينيين على القوة والسلطـة فإنهم لا ينفقون مليـارات الدولارات فقط من أجـل مكانة متميزة في المجتمـع الـدولي ولكن أيضـاً من أجل تقـدم تكنولوجي كـبير في العديد من المجـالات الأخرى المتعلقة بأبحـاث الفضاء مثـل: تكنولوجيا المعلومات والإلكترونيات، والمواد الحديدة، ويتمنون الوصول إلى القوة في تلك المجالات التكنولوجية حتى يصبحوا مثل الولايات المتحدة واليابان اليوم ليكونوا قادرين على وضع معايير جديدة خاصة بهم وتعميمها في جميع أنحاء العالم.

قضية وضع المعايير

إن الصـين هـي أكبر منتج لألعـاب DVD فهـل كان الصينيون هم من اخترعوا هذا الجهاز ووضعوا معاييره التقنية، بالطبع لا فإن أول من صممه كان اليابانيـون (هيتاشي وماتسو شيتا وتوشيبا) والأمريكيون (تايم ورنر) وبالتـالي فإن الشركات الصينية ينبغي عليها دفع رسوم لأولئك الذين قاموا بابتـكار هذه التقنية مـن 15 إلى 22 دولاراً على الأقل لـكل قطعة وعندما يكـون سعر بيع القطعة الواحـدة 60 دولاراً فإن جزءاً كبيراً من ثمنها يدفع في رسوم الترخيص.

هذا إلى جانب باقـي الأجهزة الأخرى الكهربائية والإلكترونية وأجهزة

تكنولوجيا المعلومات فإن الصين تدفع سنوياً ملايين الدولارات من عائداتها إلى الشركات الأجنبية في مقابل الترخيص لها بتصنيع منتجاتهم لذلك فإنه كان ينبغـي على الصينيين تصنيـع منتجات خاصة بهم حتـى يتمكنوا من وضع المعايـير التكنولوجية لها ولذلك فقد طـوروا ألعاب الـ DVD حتى أصبـح هناك جيل جديد من تلك الألعاب أكثر تطـوراً وكما أن حرف E يأتي في الأبجدية بعد حرف D فقد أطلقوا على هذه التكنولوجيا الجديدة «EVD» وقامت الدولة بتدعيم هذا التطور الجديد أيديولوجياً ومادياً كما قامـت لجنـة اقتصادية تابعة للدولـة بدمج 13 مصنـع DVD معاً عام 1999 وأطلق عليهم اسم شركة (عالم بكين الإلكتروني للتكنولوجيا الرقمية).

وقامت مجموعة الـ13 بالتعاون مع مؤسسة (جيانج سو شنكو) الإلكترونية بأكبر إنتـاج صيني من الـDVD وبعد أربع سنوات من الأبحاث المستمرة كانوا مستعدين لإطلاق تكنولوجيا EVD.

واستطاعت أجهزة هذا الجيل الجديد تقديم صورة أوضح وصوت أنقى لكنها أيضاً في نفس الوقت أكثر تكلفة كما أنها لا تزال تفتقر إلى المحتوى الذي تقدمه وبالإضافة إلى ذلك فإن تلك التكنولوجيا الصينية الجديدة في إنتـاج الأقراص الرقمية عالية الجودة قد وضعت الصين في منافسة شديدة مع عمالقة آخريـن مثل شركة (توشيبا) اليابانيـة ومجموعة شركات NEC ومجموعة (بلو ري).

وكما هو الحال دائمـاً فإن من خلال معركة الأنظمة يظهر شيء واحد: هـو الامتـزاج الصينـي الواحـد ورغبتهم في وضـع معايـير خاصة بهم وعلـى العالم التكنولوجـي استقبال زميلهـم الجديد والتعامـل معهم وقد

كتـب (إيجال برايتمان) المستشار بشركـة (ديلوويت) هذا واحد من أهم الاتجاهات في مجال صناعة المعلومات والاتصالات كما يتوقع أيضاً التزايد المستمر للصين في وضع معايير خاصة بهم بحلول عام 2010.

وقد حددت مجلـة (فورتشن) الاقتصادية الأمريكيـة مؤخراً أهم عشرة أسباب تؤثر في الاتجاهات التكنولوجية المعاصرة وكان أهمهم هو (وضع الصين للمعايير الجديدة).

يقول الباحث الأمريكي (باول سافو): «نجح الأوروبيون والأمريكيون في القـرن الماضـي بوضـع معايير تقنية خاصـة بهم ولكـن الوقت القادم سيكون في صالح الصين».

ولذلـك يحاول الصينيـون حالياً الهجوم على الـدول الصناعية الغربية واحتكار صناعتها من خلال عدة جبهات:

(أنظمـة التشغيل): دعمت الحكومة الصينية بشـكل قوي نظام تشغيل (لينكس) لمنافسة نظـام مايكروسوفت (ويندوز) ويريـدون تعميم نظام (لينكس) كنظام تشغيل افتراضي بشـكل كامل ومجاني في الصين ويعمل هذا إلى جوار أنظمة البرمجيات الكورية واليابانية كما أن الشركات الصينية تطور برمجيتها لكي تصبح متوافقة مع نظام تشغيل (لينكس).

(نظـام RFID[1] للمراقبـة): يتم وضع كل المنتجـات في الصين –سواء كانت أحذيـة أديداس أو سكاكين مطبخ– توجـد رقاقة كمبيوتر وأمكن استخـدام تكنولوجيـا الراديو في نظـام المراقبة ويستخدم هـذا النظام في

(1) RFID اختصار لجملة: Radio Frequency Identification أي: تحديد الهوية باستخدام ترددات الراديو

تخزين السلع أو عند عرضها في المتجر وتعمل الصين حالياً على نشر نظام RFID ولكن مازال هذا غير متوافق مع الأنظمة الغربية.

(خدمة التجوال): تطور جميع الوحدات الاقتصادية مستويات الاتصال المتنقلة من الجيل الثالث والتي يطلق عليها تكنولوجيا 3G يستخدم الأمريكيون نظام CDMA2000)) ويستخدم الأوروبيون نظام W-CDMA)) ويستخدم الصينيون نظام (سيمنز TD-SCMA) وأصبح للصين للمرة الأولى مستواها اللاسلكي الخاص بها.

لدى الصين الآن 400 مليون مستخدم للتليفون المحمول وهذا يجعلها أكبر سوق في العالم ومجرد حجم السوق فقط يخلق ميزة تنافسية هائلة ويتوقع (كلايد بريستويتز) عميد معهد الاقتصاد الاستراتيجي بواشنطن أنه إذا كان لدى الصين أكبر سوق محمول ومشغلات DVD وأجهزة كمبيوتر والعديد من المنتجات الأخرى فقد أصبح لديهم بالفعل الآن ما يكفي من القوة اللازمة لوضع المعايير التقنية الخاصة بهم وسوف يتوجب على الأمريكيين والأوروبيين الرضوخ لتلك المعايير الصينية.

لقد أصبحت الصين على جبهة واحدة تقريباً بعدما صارت الأحوال والمكانة على المحك ويوقع (فيليب بوند) وكيل وزارة التجارة الأمريكية أن تلك المعايير سوف تخلق أمماً جديدة متنازعة.

الفصل السادس

هل تعرف (هواوي)؟

ظهور مؤسسات صينية عالمية

«توجـد في الصـين العديد من الشـركات والمؤسسات التي ربمـا لم يسمع عنها أحـد من قبل، ولكنها سوف توجد بقـوة على خارطة المنافسة العالمية في خلال العقـد القادم، لدرجة أنها ربما تشكل تهديداً قويـاً على بعض الكيانات العالمية الضخمة».

جاك ويلش

المدير التنفيذي السابق لجنرال إلكتريك

منـذ خمسين عاماً ونحن نأنف من عدة أشياء: التلفاز المصنع في اليابان بينما لدينـا (جروندنج) و(نورمانـدي) و(سابا) والسيـارات القادمة من اليابـان ونحن عندنا الأنـواع الألمانية والأمريكيـة والبريطانية والفرنسية والإيطالية وكذلك نحن نتقدم في صناعتها.

في الخمسينيات وبداية الستينيات كان المستهلكون يفضلون الصناعات الغربية أكثر مـن غيرها وعندما رأينا أول تلفزيون (سوني) في غرفة معيشة ألمانيـة أو عندما رأينا أول سيارة (تويوتا) تنطلق في طرقنا السريعة كان هذا شيئاً يبعث على الضحك ومنذ حوالي عشرين عاماً تكررت تلك المسرحية ولكن هذه المرة كانت المنتجات الكورية هي ما تثير الضحك فجأة قدمت أجهـزة الفيديو والسيـارات الكورية ومـلأت الأسـواق العالمية وبدأت الأسماء التجارية ومـاركات تلك المنتجات تملأ الأسواق مثل (هيونداي) و(سامسـونج) ولاكي جولـد ستار (إل جي) و(دايـو) وأيضاً لم يقبل أحد في الغـرب على تلك المنتجات الكورية سواء من الشركات أو المستهلكين اليـوم وقد أصبحنا أكثر حكمة نرى أن اليابانيـين والكوريين قد أصبحوا مسيطريـن علـى العديد من الصناعـات في جميع أنحاء العـالم وقد سيطر

بعضهم على قطاعات صناعية غربية بأكملها.

فالكاميرات ومعظم الأجهزة الإلكترونيــة الاستهلاكية لم تعد تصنع في الغرب وأصبحت أغلب تلك المصنوعات تأتي من كوريا واليابان وصارت ماركات مثــل (توشيبا) و(باناسونيــك) وJVC و(ســوني) و(سامسونغ) تسيطـر على الأسواق كما أصبح اليابانيون والكوريون لاعبين مهمين في أسواق السيارات العالمية.

والآن تتبع الصين نفس الخطى السابقة على طريق كوريا واليابان ولكن أيضــاً يبدو أننا في الغرب نقع في نفس الخطأ للمرة الثالثة لأننا لا نعتقد أن الشـركات الصينيــة بمنتجاتها وماركاتها سوف تتمكــن من السيطرة على الأســواق العالمية قريبــاً وبسبب غطرسة وجهل بعض القيــادات التنفيذية الغربية سوف يتكــرر اليوم ما حدث منذ خمسين عاماً مع اليابانيين ومنذ عشرين عاماً مع الكوريين.

يقــول الخبــيران والاستشاريــان والأستــاذان بجامعتــي (إنسيــاد) في سنغافورة و(فونتنبلو) الفرنسية (مينج ويليامسون) و(بيتر تسينج):

«تحقيقاتنــا أثبتت صعــوداً للشركات متعــددة الجنسيــات في الأسواق الصينيــة وقد غــزت الشركات الصينيــة الجديدة الأســواق العالمية بنجاح بالغ».

وقد حــدث بالفعل أول ظهور للشركات الصينية المتعددة الجنسيات في الأســواق الغربيــة، تبدأ صغيرة ثم تأخــذ أولى خبراتها في الأسواق الأجنبية من خلال الأسواق الآسيوية المجاورة ويذهبون تدريجياً نحو الأســواق الغربية الناضجة؛ وسوق وراء سوق وقطاع بعد قطاع حتى

يسيطروا على الجميع.

من الصعب رؤية أسماء مشهورة لهم الآن؛ المتابعين فقط يعرفون (هاير) و(هاواوي) و(لينوفو) و(نينجبو بيرد) وTCL وهناك أيضاً بعض الأسماء التي ينبغي تذكرها دائماً مثل: (سامسونج) و(سوني) لأنهم يظهرون في قائمة (فورتشين500) ومثلها أيضاً الشركات المتعددة الجنسيات مثل (جنرال إلكتريك) و(سيمنز) وكيفية دعوتها للمنافسين بقوة وحينها لن يقدر أحد على المزيد من الضحك.

التعلم من اليابان وكوريا

كانت القدوة بالنسبة للصين في الشرق هي اليابان وكوريا الجنوبية، ودائماً ما كنا نسمع من القادة الصينيين اسم شركتين ترغبان بشدة في محاكاتهما سوني في اليابان وسامسونج في كوريا الجنوبية.

هاتان الشركتان الآسيويتان العالميتان استطاعتا السيطرة على أنظمة السوق العالمية وعندما تساءل الصينيون عن سر نجاح اليابانيين والكوريين وجدوا أن وراء ذلك العمل الجاد والدراسة الدقيقة.

ففي التسعينيات كانت اليابان وكوريا تشكلان تكتلاً قوياً ونموذجاً مثالياً أمام الصيين كما ظهرت تلك التكتلات العملاقة من خلال تجمع الشركات الكبرى واقتراض سلف من البنوك حتى تتمكن من الوقوف وإغراق السوق، وظهر العمالقة الكوريون دايو وهيونداي ولاكي جولد ستار وأيضاً الشركات اليابانية الكبرى ميتسوبيشي وميتسوي وسوميتومو.

لكن في منتصف 1997 اندلعت الأزمة الآسيوية ما أدى إلى سقوط عنيف

لبعض التكتــلات الكورية وأصابت العديد من الشـركات الأخرى حالة هائلــة من الفوضـــى عندئذ تشكك الصينيون في جــدوى تلك التكتلات الكــبرى وبعد وقت قصير تبنت الحكومة الصينية إستراتيجية جديدة لخلق تكتــلات موازية لتلــك الكوريــة واليابانية وكانت شـركات خالصة مثل سامسونج وسوني يتركز عملها في مجال الإلكترونيات بشكل عالٍ وبطريقة متقدمة للغاية.

سوني إحدى الشركات التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحت مــن الشـركات الرائدة في العالم في مجال الإلكترونيــات وتدين في نجاحها إلى الابتــكار المستمر، وقد أصبحت الأجهزة التــي تنتجها من (وكمان) و(كاميرات فيديو) ليست مجرد أجهزة عادية ولكنها متطورة للغاية، أيضاً شركة سامسونج كانت قد بدأت صغيرة ومن خلال العديد من المشروعات مع الشركات الأجنبية والاتفاقات زاد حجمها وكانت أولى صادراتها في بداية الثمانينيات إلى الولايات المتحدة وفي ذلك الوقت لم يكن أحد يسمع باسم سامسونج كعلامة تجارية.

وقــد اختــاروا إستراتيجيــة جديدة لجــذب الأنظار إليهم فقــد خفضوا أسعارهــم فأصبحـــت منتجاتهم أرخص بكثــير من منافستهــا الأمريكية واليابانية وهكذا ببساطة استطاعوا اجتياح السوق.

واليــوم قد أصبحت مبيعــات سامسونج تزيد عن 35 مليــار يورو سنوياً وأصبحـــت واحدة من أكبر الشـركات الإلكترونية في العالم وقد ظهر هذا الشبــه الجديد الذي تحاول الصين اتباعــه كما حدث في سوني وسامسونج وسوف تنجح في ذلك.

ولكــن السؤال هو هل ســوف تستغرق الشركات الصينيــة وقتاً طويلاً حتى تصل إلى ما تريد؟

فقط مجرد وقت

حتــى الآن وصل عــدد الشركات الصينيــة في قائمة فورتشــن500 التي تصــدر عن مجلة مــال وأعمال في أمريكا –وتعــد التصنيف السنوي لأهم 500 شركة في العالم– إلى 15 شركة صينية ومن بين أهم 100 ماركة مشهورة عالمياً والتي تحددها وكالة (إنتربراند) لا يوجد حتى الآن اسم صيني ولكن هل يعد هذا تغيراً؟

يقــول الخبراء إن التغيير لا يحدث بين عشية وضحاها ولكنه يكون على المدى الطويل ويتوقع (باري نوتون) أستاذ الاقتصاد في جامعة كاليفورنيا أنه في خلال العشر سنوات القادمة سوف يصبح لدينا العديد من الشركات الصيبية القادرة على المنافسة عالمياً.

وكان علماء ومستشارو شركة (ماكينزي) أكثر حذراً فلم يريدوا الالتزام بتحديد فترة زمنية معينة ويتساءل العديد منهم في مجلتهم الفصلية (ماكينزي كوارترلي): «هــل تستطيع المــاركات الصينية غزو الأســواق الخارجية؟» وبعد بضعة أسطر نجد إجابة دبلوماسية: «نعم ولكن لن يكون هذا سهلاً».

رأى خبراء ماكينزي أوجه القصــور في الشركات الصينية التي تمثل عبئاً في وصولهــا إلى العالميــة فعلى سبيل المثال ليســت لديهم خبرة حقيقية في مجــال التسويــق، كما أنــه ليست لديهم أيضــاً قنوات توزيــع وخاصةً في البلدان المتقدمة، وكل هذا يكلف الكثير من الوقت والمال.

ويدرك الطامحون الصينيون أنهم مازال أمامهم العديد من الواجبات التي عليهم القيام بها أولاً ولكن أيضاً فإن الدولة تمنحهم دعماً كبيراً ففي ربيع عام 2003 أنشأت الحكومة الصينية منظمة مراقبة ومتابعة إدارية خصيصاً لهذا الغرض تدعي SASAC والتي تهدف إلى جعل من 30 إلى 50 شركة صينية صالحة للمنافسة الدولية والشركات التي تم اختيارها هي التي لديها بالفعل استثمارات أجبية وتنمو بمعدل سريع وتقوم الدولة بمنحها قروضاً مخفضة الفائدة وإعانات سخية إذا لزم الأمر.

وتقلد حكومة بكين بذلك ما فعلته الحكومة اليابانية والكورية من تدريب واحتضان للشركات التي سوف تنطلق نحو العالمية ولكن المال وحده غير كاف فالشركات الصينية التي ترغب في اقتحام الأسواق العالمية ينبغي أن تعيد النظر مرة أخرى أن العلامة التجارية بنفس أهمية المنتج لذلك ينبغي عليهم إنفاق المزيد من المال من أجل الدعاية الجيدة.

ومنذ فترة طويلة وكانت الدعاية بمثابة شيطان مغرٍ للرأسمالية وفي بداية التسعينيات لم تكن موجودة في الصين إعلانات تلفزيونية أو لوحات دعائية واليوم على مسافة 25 كيلو متر وهي طول الطريق لمطار بكين تمتلئ باللوحات الإعلانية كما أصبحت مدينة شنغهاي مضيئة طوال اليوم عبر إعلانات النيون التي تملأ الشوارع والشاشات العملاقة التي تعرض إعلانات مصورة والآن الشركات الصينية تدرك جيداً أهمية انتشار العلامة التجارية من أجل تسويق جيد لمنتجاتها.

فقد أصبحت جميع كبرى وكالات الدعاية والإعلان العالمية لديها الآن مكاتب في بكين وشنغهاي كما قامت الشركات الصينية الكبرى بإنشاء

إدارات تسويق مستقلة وأغلب العاملين في وكالات الإعلان من الخبراء والمستشارين الأجانب، (فيونا جيلمور) واحدة من هؤلاء المستشارين وقد ساعدت العديد من الشركات الصينية في صنع علامة تجارية خاصة بهم وألفت كتاباً أسمته (حرب العلامات التجارية في الصين) وتقول فيه:

«إنه في غضون ما لا يزيد عن عقد من الزمن على الأكثر سوف تكون إحدى الشركات الصينية في قائمة أشهر عشر ماركات عالمية».

أي من تلك الشركات سوف تكون إنها لا تعرف ولكن الذي تعرفه جيداً هو أنه أصبحت العديد من الشركات الصينية تنتمي إلى تلك الدائرة.

عمالقة مازالوا غير معروفين

كيف ستصبح سامسونج وسوني غداً؟ وكيف سيكون الهجوم الصيني على بقية الشركات الأجنبية في الأسواق العالمية في المستقبل القريب سيمنز وباير -فودافون ونوكيا- سيسكو وثيسن كروب.

هناك مجموعة من الشركات الصيبية ذائعة الصيت والتي لديها ما يؤهلها لكي تصبح منافساً هاماً في الأسواق العالمية يعملون في التكنولوجيا العالية والمنخفضة وفي الشركات الكبيرة والصغيرة لقد جاؤوا من بين الصناعات القديمة والجديدة واتخذوا أماكن في كبرى المدن والمحافظات وكان العامل المشترك بينهم أنهم استطاعوا السيطرة والإمساك بمعظم الأسواق الصينية الرئيسة لأنهم كانوا مؤسسين للعديد من الشركات هناك ولديهم جميعاً رؤية مستقبلية مشتركة وهي الخروج نحو آفاق أوسع في الأسواق العالمية.

ما يلي هو اختياري الشخصي لـ 11 شركة صينية متعددة الجنسيات

والتـي أرى أنه باستطاعتها النمـو في السنوات القادمة لتكون منافساً قوياً في الأسواق العالمية:

تشينـا موبايل: أكبر مشغل محمول في الصين، صـدق أو لا تصدق فإن لديهـم 170 مليون عميل أكـثر بكثير من فودافون التي تحتـل المرتبة الثانية عالميـاً وينضم إليها شهريـاً أربعة ملايين مستخدم جديـد ويدر هذا ربحاً قدره 4,3 مليار دولار على 19 مليار دولار مبيعات سنوياً.

ننجبو بـيرد: أكبر مصنع للهاتف المحمـول في الصين وبكميات تفوق كل مـا ينتجه المنافسون الأجانب، وقد باعوا أول هاتف محمول صيني في عام 1992 وأصبحوا ينتجون الآن 20 مليون قطعة سنوياً.

علـي بابا دوت كـوم (Alibaba.com): شركة تجـارة إلكترونية كانت تعمـل في البداية بنظـام B2B[1] وأصبحت اليوم تعمـل بنظام B2C[2] وقد بدأت في الصين ثم انتشـرت إلى بقية أنحاء العالم، وتأسست في عام 1998 على يـد مدرس اللغة الإنجليزيـة جاك ما ثم تضخم الحجـم وأصبح لدى الصـين اليـوم 100 مليون مستخـدم للإنترنت وهي بذلك ثـاني أكبر دولة بعـد الولايات المتحدة في هذا المجال وقد أصبح لدى علي بابا دوت كوم شراكة مع الشركة العملاقة ياهو.

وونشيـانغ جروب: من شركات القطاع الخاصـ في مقاطعة تشينجيانغ الرأسماليـة القريبة من شنغهاي وقد أسسها (لـو جوانكو) وهو من أغنى

Business to Business (1)

Business to Customer (2)

خمسة أشخاص صينيين برأسمال قدره 670 مليون دولار وهو أكبر مورد سيارات وأول صيني أنشأ مصنعاً في الولايات المتحدة.

سايك: أكبر شركة سيارات صينية مقرها في شنغهاي وهي الشريكة لاثنين من أكبر مصنعي السيارات في العالم فولكس فاجن وجنرال موتورز وقد أخذت تنشط تدريجياً في سوق السيارات الكورية وتملكت في البداية 10٪ من أسهم شركة دايو وبعدها بفترة قصيرة تمكنت من السيطرة على إس سانج يونج وتسعى الآن للسيطرة على العديد من أسهم شركات السيارات الأوروبية.

CITIC:[1] وكانت قد أنشئت في نهاية السبعينيات وقد ظلت لفترة طويلة خاضعة تحت نفوذ وسيطرة الحكومة وقد أصبحت الآن جزءاً هاماً في البورصة وقطاع المال هناك ولها أيضاً العديد من الاستثمارات في مجالات الطاقة والمقاولات والاتصالات.

سينوبك: واحدة من أكبر ثلاث شركات نفط عملاقة في الصين وهي الآن من أكبر شركات تكرير البترول وإنتاج البتروكيماويات في آسيا وأسهمها أصبحت مدرجة بالفعل في أسواق المال العالمية مثل بورصتي لندن ونيويورك وتشترك مع شركات BP و(شيل) في عمليات استخراج النفط والغاز في الخارج ولاسيما في الشرق الأوسط وقد كان لديهم 1,3 مليون موظف والآن وبعد اتباع سياسة تقليص العمالة أصبح لديهم 400 ألف موظف فقط.

(1) China International Trust & Investment Corporation

لي نينــج: في عام 1984 فاز رجــل الأعمال (لي نينج) بالبطولة الأوليمبية في الجمبــاز ونال شعبية كبيرة في الصين وقام بعدها بتأسيس شركة ملابس رياضيــة عــام 1989 وهو لم يتجــاوز السادسة والعشرين وقــام بالدعاية في وكالات إعــلان أجنبيــة وأصبح اليــوم 450 محلاً تجاريــاً في الصين يبيعون ملابســه وأحذيتــه الرياضيــة بأسعار أرخصــ بكثير مــن أديداس ونايك وسوف يصبح ناجحاً في شركته كما كان ناجحاً في الجمباز.

باوستيــل: وهي الشركــة المفضلة لدى الحكومــة تأسست عام 1978 في شنغهــاي وكانت دائمــاً تحصل على أفضــل المديرين وأحــدث التقنيات التكنولوجيــة من الغــرب بغض النظر عمــا يكلف ذلك اليــوم تنتج أكبر وأفضــل فــولاذ في الصين وتحق صــافي ربح قدره 1,6 مليــار دولار على مبيعات تصل إلى 14 مليار دولار سنوياً وتشتد منافسة باوستيل في الأسواق العالميــة حيث يقول توماس يوشر المدير التنفيذي لشركة الصلب الأمريكية عــن باوستيل أنها شركة من الدرجــة الأولى وأصبحت اليوم تنشط بشكل متزايــد في الخــارج حيث تشارك خــام الحديد بأستراليــا وعمليات صهر وإذابة الحديد في البرازيل.

تشينجتاو بريوراي: علامــة تجارية صينية عالمية في كل مطعم صيني في كافة أنحاء العالم نجد بــيرة من تشينجتاو تأسست عام 1903 على يد الألمان لذلــك تصنــع وفقاً لقانون النقــاء الألماني 1,2 مليــار دولار رقم ضخم في مبيعــات البيرة الصينية ومع ذلك غير منتشرة عالمياً بشكل كاف مثل البيرة الأمريكيــة، لذلــك بدؤوا في فتح قنــوات توزيع خارجــي إلى كافة أنحاء العالم.

الصــين للأعمال الهندسية والمقاولات: أكـبر شركة مقاولات في البلاد لديهم خـبرة كبيرة في إنشاء المشاريع العملاقة مثل السدود والمطارات في داخل الصين وخارجها في البلدان النامية وبدأت الآن في الوصول للدول الصناعية الكبرى حيث قاموا بتشييد أبراج تجارية وفنادق فخمة في وسط نيويـورك ويقـول رئيس الشركة ســن ون جيه نريد أن نصبــح من أكبر 10 شركات في مجال البناء والتشييد حول العالم.

هذه الشركات الإحدى عشرة سوف تصبح في المستقبل القريب من أهم المتواجدين في ساحة الاستثمار العالمي وسوف تنافس مع الشركات الغربية بقـوة شديدة في مجـالات الكمبيوتر (هايـر) والسلع الخفيفـة (هاواوي) ومعدات الاتصالات TCL.

ولكن كيف بدأت تلك الشركات؟

ســوف نجد الإجابة علــى هذا مثـيرة للاهتمام في ما حــدث في تاريخ الصين الحديـث.

بداية أسطورة

كان يــوم 26 مارســ 2004 يوماً تاريخياً فقد تمــت مراسم توقيع في قاعة حفــلات بأحد أكبر فنادق بكين وشهد الاحتفال مئات المدعوين وممثلون للعديــد من وسائل الإعلام العالمية كانت هناك أكثر من مائة عدسة موجهة نحو المنصة حيث كان يجلس الطاقم بأكمله.

فريــق من اللجنــة الأوليمبية الدوليــة IOC ورئيس شركــة لينوفو وبعد العديد من الخطابات وكلمات التحية الموجهة للسيدات والسادة الحضور

تم توقيع اتفــاق لرعاية دورة الألعاب الأوليمبية الدورة الشتوية في تورينو عام 2006 والدورة الصيفية في بكين عام 2008.

واندلــع تصفيق حــاد ودوت أصوات زحاجـات الشمبانيا فلأول مرة شركــة صينية توجد في مقدمة الرعــاة الرسميين لدورة الألعاب الأوليمبية إلى جوار كبرى الماركات العالمية مثل كوكاكولا وماكدونالدز.

ويقــدر ما سوف تتكلفه شركة لينوفو لإحضار معدات إلكترونية حديثة ينبغــي تفرهــا في الصين أثناء الــدورة بحوالي 40 مليــون دولار ولكن في المقابل فإن شعار لينوفو سيوجد في كل مكان وسيبث على شاشات التلفاز حيث يشاهده المليارات في جميع أنحاء العالم.

ويتســاءل الكثــيرون: ما هــي لينوفو؟ ولكــن لا أحد يعــرف الإجابة، (لينوفــو) كانت تسمــى حتى وقت قريــب (ليجند) (أسطــورة) وكانت الشركة قــد أسست في منتصف الثمانينات على يــد (ليو تشاونشي) وقد كان عضــواً في أكاديمية العلوم ببكين وكان في سن الأربعين ويقول (ليو): «بســبب الثورة الثقافية لم تكن هناك فرصة متاحة لإقامة مشاريع تجارية في وقتها»

وبدأ في عام 1990 أولى تجاربه في تجارة الكمبيوتر مع عشرة شركاء آخرين ومنــذ هذا الوقت وحتــى عام 1996 كانــت تسيطر الشــركات الأمريكية الكبرى على سوق الكمبيوتر في الصين مثل DELL، IBM، HP وكانت وصفتهــا السحرية للنجاح أنهم استطاعوا تقــديم تكنولوجيا جيدة قادرة علــى منافسة الشــركات الأجنبية بأقل الأسعار ومــن خلال هذا أصبحت التكنولوجيا الصينية تلي الأمريكية مباشرة.

وعبر 13 ألف موظف يعملون في مجالات البحث والتطوير أصبحت الشركة هي الاختيار الأفضل للكثيرين وأصبحت شركة ليجند في الشمال الغربي من بكين إحدى أهم المناطق التكنولوجية.

وعلى مر السنين توسعت الشركة في أعمالها فإلى جانب تصنيع الكمبيوتر بدؤوا في إنتاج الـ(نوت بوك) و(السيرفرات) ومشغلات الـ MP3 و(الكاميرات الرقمية) و(الهواتف المحمولة).

وأصبح شعارها: (بما أن كل منتجات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تتقدم معاً فعلينا أن ننتجها بأنفسنا).

في البداية اعتمدت لينوفيو على ثالث أكبر شركة كمبيوتر في العالم IBM وبدؤوا بإنتاج قسم الكمبيوتر الخاص بهم ثم بدأت الشركة في السعي نحو تحقيق هدفها الرئيس الواضح وهو التحول لشركة دولية رائدة وبالتالي تغير اسم ليجند لأنه بمعني أسطورة وهو منتشر كثيراً بين العديد من الماركات التجارية في كل أنحاء العالم، ثم اختاروا اسماً مميزاً ليصبح اسمها منذ ربيع عام 2004 هو لينوفو.

الأعمال الداخلية للشركات متعددة الجنسيات

(شنتشن) مدينة مجاورة لهونغ كونغ ويقع مباشرة خلف حدود تلك المستعمرات التي كانت خاضعة للتاج البريطاني قبل أن تنفصل عن الصين قبل 20 عاماً كانت شن تشن مجرد قرية صيد فقيرة واليوم أصبحت مدينة الستة ملايين نسمة وهي تعمل تماماً مثل هونغ كونغ.

بعد أن تترك مدينة شنتشن بحوالي نصف ساعة على نفس الطريق السريع

ســوف تجد علامات خضراء تشير إلى (هــواوي) وهي ليست قرية أو حي مــن أحياء المدينة ولكنــه اسم لمؤسسة ضخمة وإحــدى الشركات الصينية الرائدة في مجال التكنولوجيا.

ولكن نطاق الشركة يشبــه مدينة صغيرة حيث يوجد هناك مستشفى به 20 طبيبــاً مــن أشهر أطباء جامعة بكين، وبها مساكــن للموظفين والعمال تســع لحوالي 3,000 شخص ويمتلأ منتصفهــا بالنخيل وحمامات السباحة وملاعــب التنس والأندية الليليــة والبارات وطــاولات البلياردو وينطلق الشباب هناك في كل مكان.

(مرحبــاً بكــم في هواوي) يقولهــا ريتشارد لي وهــو يستقبل الضيوف ويصطحبهــم إلى قاعة المؤتمرات بمقر الشركة، وبلغــة إنجليزية سليمة للغاية يقــدم عرض (باور بوينــت) يعرض فيه تاريخ الشركــة تأسست عام 1988 علــى يد (رن تشينــج فاي) أحــد مهندسي الجيشــ الصينــي العسكرين برأسمال قدره 1,000 دولار.

كان يحضــر شبــكات الهاتــف وينــي لها محطــات استقبــال بنفسه ثم يبيعهــا في المناطق الريفيــة بعيداً عــن المنافسين الأجانب اليــوم أصبحت مبيعــات هواوي تقدر سنوياً بحوالي أربعة مليارات دولار وتقدم مستوى تكنولوجــي عالٍ إلى جــوار منافسين أجانب كبار مثــل سيسكو ونورتل وسيمنز.

والميــزة الرئيسة في هواوي أن نصف الــ 22 ألف موظف الذين يعملون في مجــال البحث تحت سن الثلاثين وهــم يعملــون نهاراً وليلاً إذا لزم الأمر إلى ذلك، ويقول مدير العلاقات العامة (فون نيون): «يتم تدريب الباحث

لدينا تكلفة حوالي الربع مقارنة بالخبراء الغربيين».

وتنتج هواوي (الروترات) و(السيرفرات) و(الهواتف المحمولة) بأسعار أقل كثيراً من الشركات الغربية، وفي الوقت نفسه بدأت هواوي في الانتشار نحو بلدان العالم الثالث والأسواق الجديدة الناشئة.

وفي ألمانيا قامت هواوي باستئجار مكتب في إشبورن بالقرب من فرانكفورت بين العديد من الصينيين المقيمين هناك، ويقول مدير التسويق في ألمانيا (سورين بورشال): «إن الأزمة هي فرصتنا في الأوقات العصيبة تنخفض التكاليف وتتاح فرصة أفضل للوافدين الجدد في السوق».

وزادت هواوي من نسبة مبيعاتها في 2006 إلى30٪ ولم تقل مثل العديد من الشركات الأخرى.

وفي دراسة داخلية أجرتها شركة سيسكو الأمريكية وجدت أن أخطر المنافسين لها الآن في السوق هي شركة هواوي.

الرجل ذو المطرقة

تحكى هذه القصة كثيراً مراراً وتكراراً: كان هناك مدير صيني لم يكن سعيداً بنوعية وكفاءة المنتجات التي ينتجها العاملون معه في مصنعه وفكر كثيراً في تحسين هذه المنتجات حتى لجأ إلى هذه الوسيلة غير العادية. أحضر مطرقة أمام أعين موظفيه حطم العلامة التجارية من على الثلاجات والغسالات وفوجئ الجميع بهذا وظنوه أحمقاً ولكنه أراد تحسين المنتج لزيادة شهرة العلامة التجارية.

وقعت حادثة المطرقة تلك عام 1984 وكانت هذه الشركة تسمى وقتها

مصنـع ثلاجـات تشينجتاو الاشتراكي العام وكان هـذا الرئيس وقتها هو الشاب ذي الخمسة والثلاثين عاماً (تشانغ رومين) اليوم تعمل تلك الشركة تحـت اسم (هاير) ومازالت تنتج اليـوم العديد من الثلاجات وباقي السلع الاستهلاكية.

وقاد رومين ثورة رجال الأعمال العصاميين وأخذ دروساً عدة من باقي البلدان الأخـرى فقد تعلم فن الابتكار من الأمريكيـين والرقابة الصارمة على جودة منتجات من الألمان والتضامن مع القوى العاملة من اليابانيين.

وأصبحـت هاير واحدة من أكبر الشـركات الصينية العالمية عبر مبيعات أكـثر من 9 مليـارات يورو سنوياً وثلاثين ألف موظـف وعامل وإنتاج في 13 دولة وتوزيع في 165 دولة وأصبح رئيس الشركة تشانغ رومين من رواد التصنيع في الصين وتدرج من عامل صغير إلى أكبر مدير مثل الشيوعيين.

ويحظى تشانغ أيضـاً بمكانة كبيرة لدى الحزب وقد وجه نداء للحكومة قائـلاً: «لن تصبح الصين قوة عالمية في قطاع التصنيع إلا بعد أن يكون لها علاماتها التجارية الخاصة بها لبناء قوة تصنيع وطنية».

وأصبحـت هاير بالفعل اليوم أحد أهم رموز الصناعة الوطنية في الصين كمـا صارت ماركة معروفة في كل مـكان فسوف تجد اليوم منذ دخولك إلى مطار بكين عبارة:

Hair and higher أي: هاير أعلى وأعلى

كمـا أصبحت في التصنيف الخامس عالمياً في مجالها ولكن رومين يتطلع دائمـاً نحو المزيـد ويقول لمجلة (هاندسبلات): «هدفنـا أن نصل أولاً إلى التصنيف الثالث ثم الأول عالمياً».

وهــذا يحدث بزيادة التوسع في الأســواق العالمية وهم يتقدمون خطوة بخطـوة وقـد أخذوا في البدايـة جنوب شـرق آسيا كبوابة عبـور لهم ثم الولايات المتحدة والآن في أوروبا.

وتتنوع منتجـات هاير الصغيرة والكبيرة حتى تصل إلى 250 منتج مابين مستلزمـات الفنـادق وثلاجـات الخمـور ولذلك بدأت دخـول السوق الأمريكي عام 1994 والإنتاج فيه بشكل مظم واليوم هاير في المركز التاسع لأهم وأفضل 10 سلاسل محلات تجارية في أمريكا كما أن لدى هاير مركز تصميم في لوس أنجلوس ومصنعاً في جنوب كارولينا ويقع مقرها الرئيس في الولايات المتحدة بوسط مانهاتن.

وتنتـج هايـر العديد مـن السلع الاستهلاكيـة والمعمرة مثـل الثلاجات وغسالات الأطباق وأجهزة التلفزيون وأنظمة الصوت.

(تشانغ هـونغ) و(كونكا) و(بانـدا)؛ مازالت أسمـاء وعلامات تجارية غـير معروفـة ولكنها تنتج بوفـرة وتنتشر في دول العـالم الثالث مثل الهند وإندونيسيـا حيث تسيطـر المنتجات الصينية على تلـك الأماكن وسوف يكون مصيرها الازدهار مثل غيرها من الماركات الصيبية.

كيفية الصعود في أسواق الهاتف المحمول

منـذ بضعة أعوام لـو كنت ذهبـت إلى الصين ودخلـت أي متجر لبيع الهواتف المحمولة لوجدت العديد من الماركات الأجنبية مثل: موتوريلا، ونوكيا، وإريكسون، وسيمز، وقد كانوا يحلمون في ذلك الوقت بإنتاج ماركات هواتف صينية.

ولكـن عندما تزور الصين اليـوم وتدخل أحد تلك المحلات سوف تجد العشـرات من المـاركات الصينية التي انتشرت بشكل كبـير في مدة زمنية قصيرة للغاية ومن هذه الماركات: بيرد، وTCL وكونكا، وآموي، وهاير، وجميعها ماركات صينية.

وقـد صعدت هذه المـاركات ورشحت بقوة للسـوق العالمي في وقت قياسي وأصبحت هذه المـاركات الوطنية مسيطرة هناك الآن، كما أصبح واضحـاً استبعـاد الماركات التي كانـت تقود السوق هناك مـن قبل لتبدأ أسواق المحمول الصينية في مرحلة جديدة.

ونتعلم من هـذا المثال درسين: الأول تقييم الشـركات الأجنبية الخاطئ للأسـواق الصينية نتيجة شعورهم بالثقة الزائدة، والثاني هو كيفية الصعود السريـع للشـركات الصينية وسيطرتها علـى منافسيهـا الأجانب ومحاولة طردهم من السوق خطوة بخطوة.

وقد كان صعود تلك الشركات في هذا المجال بشكل صاروخي لا يكاد يصدق وفي سابقة لم تحدث من قبل مع الشركات الكورية أو اليابانية وعلى سبيل المثـال شركة ننجبو بيرد تأسست عـام 1990 برأسمال ضخم حوالي 20 مليـون دولار وقـد صم (شوليهـوا) أول جهاز استدعـاء بها في نهاية التسعينيات الذي تطور بعد ذلك وأصبح هاتفاً محمولاً خاصاً بها.

اليـوم ننج بو بيرد أصبحـت الأولى في الصين في هذا المجال حيث يزيد عدد مستخدمي الهواتف المحمولة هناك على 300 مليون شخص.

وعلـى بعد حوالي 30 دقيقة مـن ننجبو-مدينة الستة ملايين نسمة والتي تقـع جنوب شنغهاي بـ 250 كيلو مـتر- يوجد مقر شركة ننجبو بيرد، عند

المدخل الرئيسي سوف تجد خريطة كبرى للصين عليها نقاط سوداء وهذه النقاط تمثل الأماكن التي تغطيها الشركة داخل الصين وهي تزيد على 400 مكان، كما تعد الشركة أيضاً أكبر شركة وطنية في إنتاج الهواتف المحمولة.

ومن بين 10 آلاف موظف يعمل سبعة آلاف منهم في مجال التسويق والمبيعات والباقون في مجال البحث وتطوير الإنتاج ومخطط المعلومات للشركة يحتوي على العديد من الرسومات البيانية والمنحنيات الحادة المتصاعدة التي تظهر النمو السريع والمتزايد للمبيعات والأرباح.

وفي الصفحة الأخيرة من هذا العرض نجد هدف الشركة (سوف تصبح بيرد علامة تجارية رفيعة المستوى بين الشركات المتعددة الجنسيات) ومن هذا المنطلق يقول شوليهوا مدير الشركة: «لدي حلم وهو أن نصبح عمالقة مثل موتوريلا وIBM ومايكروسوفت»، وعندما يسمع أحد مثل هذا الكلام من شخص ما فإنه سرعان ما يظن أنه متغطرس أو مصاب بداء جنون العظمة (بارانويا) ولكن عندما يصدر من أشخاص تمكنوا من السيطرة على الأسواق الصينية في هذا الوقت القياسي ووصلوا إلى العالمية فإنه يمكن الوثوق بهم.

وللأسباب التي ذكرناها فإن السوق الصيني له قدرة تنافسية عالية ولذلك أيضاً فإننا نجد أن معظم الشركات متعددة الجنسيات لها تواجد ظاهر وملحوظ داخل هذا السوق ولذلك لم تكن ننحبو بيرد تواجه فقط نوكيا وموتوريلا ولكن أيضاً حوالي 35 ماركة محلية ولكن لديهم العديد من الطموحات العالية.

وتتمثل إستراتيجية ننجبو بيرد في السيطرة أولاً على السوق المحلية

ثـم الهجـوم على الأسواق العالميـة كما حدث في العديد مـن الصناعات الأخـرى التي دخلـت المنتجـات الصينية ميـدان المنافسـة عليها، وهذه الإستراتيجيـة تشكل خطراً مزدوجاً على الشـركات العالمية الكبرى فإنها في البدايـة تخسر حصتها مـن الأسواق الصينية ثم بعـد ذلك تجد منافسة شرسة في الأسواق العالمية.

والعديـد من الشركات المتعددة الجنسيـات مازالت غير مدركة خطورة هـذا التطور للصناعـة الصينيـة، وفي الوقت الذي لا يـزال البعض يحلم بمعجـزة اقتصادية فـإن المنافسـون الصينيـون يقظون للغايـة ولا يتركون أسواقهم للأجانب بدون قتال باستخدام صناعاتهم الوطنية

ولكـن مازال هـاك صناعة واحدة ربما لم يمتلكوا بعـد مفاتيحها، هل ينجح الصينيون في صناعة السيارات أم لا؟

متى تجيء السيارات الصينية

يعـاني من يركب سيـارة أجرة شنغهـاي من أزمة ازدحـام المرور هناك ولكـن سوف تكون لديه فرصة جيـدة في متابعة أنواع السيارات التي تمر عـن يمينه وشماله من خلال زجاج التاكسي وسوف يرى بوضوح العديد مـن سيارات الفولكس فاجن لدرجة أنـه يشعر كأن ماركة الـ VW تصنع في الصـين وأيضـاً موديلات البولـو والبوراس والجولـف وباقي مجموعة الفولكس فاجن بأكملها نجدها على الطرق الصينية.

لقـد مضت تلـك الأيام عندمـا كنت تستطيـع بيع أو شـراء الموديلات الصينيـة القديمـة والطويلـة وأصبحت السيـارات الصينية اليـوم تواكب

أفضـل الموديلات العالمية وعبر أكثر مـن 30 مجلة سيارات عالمية سوف تجد صوراً عديـدة للسيارات الصينيـة التي تظهر فيها موديـلات جديدة كل أسبـوع تقريباً وتغزو السوق العالميـة بكميات كبرى في شوارع ديترويت وفرانكوفورت وجنيف وباريس وطوكيو.

وليست الفولكس فاجن هـي فقط النوع الوحيد الذي نراه في شوارع الصـين ولكـن أيضاً هناك جـنرال موتورز، وBMW وهونـدا، وتويوتا، وبيجـو، وهي ليسـت مجرد ماركات عالمية فقط ولكنهـا أيضاً أنتجت في مصانـع صينية قد أنشئت في إطار مشاريـع مشتركة مع الشريك الصيني؛ حيث توفر الصين اليد العاملة الرخيصة وتحصل على خبرة كبيرة ومشاركة ماركات عالمية ناجحة للغاية.

وكانت الفولكس فاجن هي أولى شركات السيارات تواجداً في الأسواق الصينيـة فقد تمت الشراكة بين الصينيين والشركة الأم عام 1984 ومنذ ذلك الحـين بدأت تتجه أنظار صناع السيـارات في العالم نحو الشريك الصيني فلا يريد أحد تفويت المشاركة في هذه الأسواق المربحة.

وقـد أصبحت الصين قبلة صنـاع السيارات من شتى أنحـاء العالم لأن معـدلات النمو هناك تتراوح بـين 20٪ و30٪ وتزداد حتى تصل إلى 60٪، وفي الشمـال في مدينـة تشانجتشـون نجـد الفولكـس فاجـن والأودي، وجنوبـاً في مدينـة قوانجتشـو نجد الهونـدا، وشرقاً نحـو شنغهاي توجد جـنرال موتورز، وفي الغرب عند تشونجتشينج توجد فورد، في أي مكان هناك توجد العديد من المشاريع الكـبرى المشتركة بين المصنعين الأجانب والصينيين.

ولكن فيما عدا القليل لا توجد ماركات سيارات صينية خالصة فلماذا؟ وللايضــاح ينبغي الاستعانة بـ(شينج هــونج) وهو في بداية العقد الرابع من عمره ويتكلم الإنجليزية بطلاقــة شديدة فقد عاش فترة طويلة في نيويورك و(هونج) هــو مدير شركة (بريليانـس القابضة للسيــارات) وهي الشريك الصينـي لشركة BMW ومنذ أغسطـس 2002 وهم ينتجون في تشينجهوا سيارات ليموزين لرجال الأعمال بتكلفة أقل من 35٪ من سيارات أودي.

يقول هــونج: «ينبغي علينا استيعاب الدرس مــن البرازيل» حيث كانت بلــدان أمريكا الجنوبية من كبار منتجـي السيارات الوطنية ولم يكن لديهم ماركات خاصة بهم وسوف يكون هذا مصير صناعة السيارات في الصين إذا لم تتجــاوز ذلك الخطـأ وهذا هو الغرض من إنتــاج تلك الشركات في تشينجهوا.

ولكــن مديرو مصانع السيارات في الغــرب يقولون بأن الصين مازالت مفتقــرة إلى المعرفة الفنية في مجال تصنيــع السيارات، ويجيب هونج بهدوء شديد: «نحن نصنع خبراتنا هنا خطوة بخطوة ومالا نقدر عليه نحضره من الخارج» وفي النهاية ستتمكن الصين من اللحاق بركب صناعة السيارات ويكون لها ماركاتها الخاصة بها.

ويقــول هــونج في النهاية: «انظــروا نحو (جيلــي)»، وجيلي هي شركة سيــارات خاصــة رئيسهــا (لي شوفو) وهو يقــول: «لا ينبغــي أن تقتصر صناعة السيارات الصينية فقــط على المشاريع المشتركة مع شركات أجنبية عملاقة» لذلك قد قام بإنتاج سيارته الخاصة ولكنه أخذ بعض المساعدات في عمليات التصميم مــن إيطاليا وكوريا وقد سميت موديلاته هاوكينج،

مايرل، أوليــو، أوروبان ناني وهي سيارات جيدة ذات دفع رباعي ومحرك وهيــكل بــدون أي رتوش وبسعر رخيص جداً فقــط 5000 دولار ولذلك فهي مثالية جداً للمبتدئين في تعلم قيادة السيارات.

وفي عام 2004 باعت جيلي 200 ألف سيارة ويتوقع أن تصل مبيعاتها عام 2010 إلى 1,2 مليــون سيارة ولم يبيــع (لي شوفو) سياراته داخل الصين فقط ففي سبتمــبر 2005 ظهرت سيارات جيلي لأول مرة في معرض السيارات الدولي بفرانكفورت (IAA) وأعلن (لي شوفو) خلال أسبوع العمل هناك قائلاً: «خطتنا هي الوصول إلى الأسواق الأمريكية والأوروبية أيضاً».

جمع التبرعات في الغرب

كانــت هناك ضجــة هائلة عندما حدثت تلك القفــزة الكبرى في سوق الأسهم، في وقت مبكر من صباح 18 ديسمبر 2003 كانت الناس تصطف في طوابــير أمام بنك (فيليالــين) بهونغ كونغ وكان كل فرد يريد شراء بعض الأسهم وقد كان الحشد كبيراً لدرجة أنهم استعانوا بالشرطة لتنظيم السوق المصرفية.

وارتفــع سعر الأسهم في اليوم الأول مــن تداولها بشكل كبير وجمعت خزائــن بورصتــي هونغ كــونغ ونيويورك أكــثر من ثلاثة مليــارات دولار بسبــب شركــة (تشاينا لايــف) وكان هذا هــو الاكتتاب العــام الأول في الصين، واكتشف الصينيون أهمية البورصة في عمليات تداول المال والبيع والشراء الحر.

ومع ذلك مازالــت العديد من البلاد التجارية الجيــدة بعيدة عن أسواق

الأوراق المالية (البورصات) ربما بسبب بعض الشركات ذات السمعة السيئة في هذا المجال، ولكنهم بدؤوا يدخلون هذا المجال وفقاً للمعايير الغربية وبمساعدة المستثمرين الأجانب من الأفراد والمؤسسات وبمجهود إداري ضخم في أسواق المال الصينية.

الشركات الصينية التي تود كسب المال من المستثمرين الأجانب تقوم بالذهاب إلى بورصة هونج كونج أو نيويورك حيث يكون لديهم هناك ثلاث مزايا:

السمعة والشهرة الكبيرة في هذا المضمار.

متطلبات الإدراج في باقي البورصات الغربية مرتفعة جداً.

لديهم فائض كبير من السيولة في خزائنهم.

العديد من الشركات الصينية تحتاج إلى مصادر تمويل مثل تلك الموجودة في الغرب وهو ما يتناسب مع نهمهم المتزايد في النمو والتوسع مع أولئك المستثمرين الغربيين؛ لأنهم في الغرب ينظرون إلى الصين باعتبارها تلك المعجزة الاقتصادية التي أحدثت طفرة هائلة في الأسواق العالمية، وكذلك أيضاً فإن الشركات الصينية تريد الاستفادة من النمو المتزايد لاقتصاد بلدهم مما يجعل منها استثماراً مثيراً للاهتمام لدى الغرب.

لذلك فإن كبرى البورصات العالمية تحاول الآن التقرب من البورصات الصينية، ويوجد الآن 70 شركة صينية في البورصتين الأمريكيتين نيويورك وناسداك، ولكن نظراً لزيادة الاكتتاب العام العالمي فإن العديد من الشركات الصينية لا تتمكن من المشاركة في نفس البورصات لذلك فإنهم يتوجهون نحو بورصات لندن وسنغافورة وطوكيو.

يقــول رئيس القسم الآسيوي في بورصــة لندن LSE[1]: «إن الصين هي السـوق الأهم لديـا»، وقد افتتح هذا القسم في خريـف 2004 وأصبح له مكتب في الصين.

لكــن مازال الصينيون يفضلون بورصة هـونغ كونغ حيث اللعب داخل أوطانهم، في عام 2005 كان سوق الأسهم في بورصة المستعمرة البريطانية السابقـة هــو الأكثر شعبية في العــالم، وقد بجح اكتتــاب أسهم بنك الصين للتعمـير بجاحاً كبيراً حيث تم ضخ حوالي تسعة مليارات دولار في الخزائن المملوكة للدولة في أكتوبر 2005.

وكمــا في أغلب دول المؤسسـات قامت بكين بطـرح من 20٪ إلى 25٪ مــن أسهم رأسمال الشركة المملوكـة للدولة للاكتتاب العام بشكل واضح وشفـاف وتم ضخ حــوالي 20 مليار دولار جديدة للتوسـع في العديد من المشروعات في الداخل والخارج.

على أعتاب السوق العالمية

في منتصف عام 2004 قامت شركة (شنغهاي إلكتريك كوربريشن)؛ وهي إحدى أكبر شـركات الإلكترونيات في الصين، بإرسال اثنين من موظفيها إلى مدينـة هامبـورج في مهمة سرية لتفقد أحوال شـركات الإلكترونيات الأوروبية والنظر في إمكانية التعامل معها أو المشاركة والشراء.

وعلـى هذا المنـوال فإن معظم الشـركات الصينية سـواء التابعة للقطاع

LSE London Stock Exchange (1)

الخاص أو الحكومية تقوم بإرسال العديد من الجواسيس إلى جميع أنحاء العالم، وقد اعترفوا أن هذا يسهل لهم العديد من الأمور في الأسواق الخارجية ليكتسبوا المزيد من المعرفة والخبرة وتزداد فرصة اقتحامهم لتلك الأسواق العالمية.

ووفقاً لما ورد في تقرير الأونكتاد UNCTAD[1] فإن استثمارات الشركات الصينية في الأسواق الخارجية قد بلغت 27 مليار دولار في حوالي 40 بلداً، وتتزايد عاماً بعد عام.

يقول (كارل بي سوفانت) مدير مؤتمر الأونكتاد: «تقف الشركات الصينية الآن بالفعل على أعتاب الأسواق العالمية الكبرى، فقد أصبح كبار المستثمرين الأجانب من الآسيويين».

ويتوقع (فيليب فورندران) المحلل الإستراتيجي في بنك كريدي سويس السويسري أن الهجوم الصيني ليس سوى مسألة وقت، ويمكن تصور ما توقعه (فورندران) بالفعل عندما ننظر نحو العديد من الشركات الأوروبية التي كانت متفوقة في مجال تصنيع الرقائق الإلكترونية ثم أصبحت اليوم مهددة من مثيلاتها الصينية.

ولا يقتصر الأمر على الشركات الكبرى فقط فإن المنافسة الصينية تتشعب في كافة الاتجاهات؛ بداية من مستحضرات التجميل وحتى شركات الطيران وخدمات الخطوط الجوية، والسعي دائماً نحو المزيد، فعلى

(1) UNCTAD اختصار جملة United Nations Conference on Trade and Development أي مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية

سبيــل المثال؛ شركــة (سابك) للمحركات وصناعــة السيارات استطاعت الاستحواذ على شركة (سانج يونج) المصنفة رقم 4 في كوريا.

ولكــن مــازال الصينيون في مرحلــة التعلم، ومازالــت عمليات الدمج والاستحواذ جديدة عليهم ويبدو ذلك واضحاً في ما حدث لشركة TCL للإلكترونيات.

في خريــف 2002 حصلــت TCL علــى توكيــل إنتاج شركــة (شنايدر) الألمانيــة للإلكترونيــات؛ وفي خــلال عام واحــد كانوا يقومــون بتصنيع أغلــب إنتاج الشركة، وأعقب ذلك توقيــع TCL مع عملاقتين فرنسيتين؛ طومســون للتليفزيونات في خريف 2003 وألكاتيــل للتليفونات المحمولة في ربيع 2004.

وقــد كانت الشركتــان الفرنسيتان غير قادرتين علــى تحقيق أرباح عالية فقامتــا بالتوجه نحــو الشرق الأقصــى وهاتان الشركتان كفيلتــان بإعطاء الصينيــين الخبرة الكافية في مجالهما حيــث أن ألكاتيل فقط لديها أكثر من 600 باحث.

وأصبــح هذا هو الوضع المستقبلي الذي ينتظــر كل شركة غربية تقع في تعــثر مــالي وتبحث عن مشترٍ؛ ويكــون المنافسون الصينيــون هم الأقرب للشراء.

لم يعــد لدى الصينيــين العديد من المخاوف كمــا كان في السابق ولكن أصبحت أفكارهم أكثر انطلاقا وتحرراً.

(وهاهــا) –الطفل الضاحك– اســم شركة في (هانجتشــو) تقوم بإنتاج المشروبات المعبــأة في زجاجات مثل: المياه معدنيــة، والحليب، والشاي،

والمشروبـات الغازية. وتقـوم أيضاً بتعبئة (كـولا المستقبل) في زجاجات حمراء وبيضاء مثل التي تنتجها الشركة الأصلية (كوكاكولا).

في يونيـو 1998 ملأت (كولا المستقبل) جميـع الأسواق الصينية كمنتج قومـي بديل للكوكاكـولا والبيبسي، وسوقت الشركـة لمنتجها باستخدام عبارة: «الصينيون يفضلون شـرب الكولا الصينية»، اليوم تكلف زجاجة كولا المستقبل فقط 20 سنتاً.

أغرى ذلك النجاح النسبي الذي حققته شركة (وهاها) مديرها بتصدير منتجه إلى الولايات المتحدة، فقام بشحن 170 ألف زجاجة (كولا المستقبل) إلى نيويـورك ولوس أنجلوس، وسوف يكون مـن المثير معرفة هل سيكون المستقبل في صالح (كولا المستقبل) أم لا.

الفصل السابع

هواء ملوث ومياه قليلة

المزيد من النمو الاقتصادي والعديد من المشاكل البيئية

«1.3 مليار نسمة؛ وهدفهم جميعاً مضاعفة إنتاجهم القومي أربع مرات بحلول عام 2020، ولكن سيؤدي ذلك إلى إضرار هائل بالبيئة الصينية والعالمية أيضاً».

كلاوس توبفر

رئيس برنامج حماية البيئة التابع للأمم المتحدة

تظـل الشمس مشرقـة في تلك الأيام الأولى من فصـل الربيع في بكين؛ ولكن في غضون دقائق ينقلب الجو إلى خليط من اللونين البني والرمادي، حيث تهب رياح قوية محملة بالملايين والمليارات من حبات الرمال الضئيلة التي تتخلـل الملابس والمساكن، ولكن يحاول المواطنون في بكين مقاومة هذا الجو.

وفي اليـوم التـالي لتلـك العواصـف الرملية نجـد الصحف تحمل هـذا الخبر في عناوينهـا الرئيسة: «هبوب عاصفـة رملية كبرى على العاصمـة»، وتتكرر تلك الواقعة أكثر مـن 17 مرة في العام الواحد، وتواجـه خلالها الطائـرات مشكلة كـبرى في الإقـلاع والهبوط؛ لدرجـة أنـه ربما يتعـين علـى ركاب 1200 رحلة جويـة الانتظار في مطارات أخرى مختلفة.

عامـاً بعد عام تتزايد تلك العواصف الرملية في شمال الصين، وتتجاوز الحـدود أيضاً لتصل إلى مابين كوريا واليابـان والبعض منها يستطيع عبور المحيط الهادئ لتهب على الساحل الغربي الأمريكي.

لقـد أصبح العالم بالفعل قرية صغيرة، فعند حدوث مشكلة بأحد أركانه تتصـدع بقية الأركان، لذلك عـدما أطلقت الصـين 200 مليون سيارة في الأعـوام الماضيـة في الشوارع فـإن ذلك سوف يؤثر علينـا وسوف يصل

ضرره إلى باقي سكان العالم.

تواجه الصين العديد من المشاكل البيئية مثل باقي دول العالم كسوء الأحوال الجوية، والأمطار الحمضية، والأنهار الميتة (غير العذبة)، وإزالة الغابات، والتصحر المتزايد.

وهذه هي نفس المشكلات التي تواجه كل دولة تسير في طريق التقدم الصناعي، ولكن الفرق الرئيس هو حجم وتعداد السكان في الصين والذي عن طريقه تتطور الصناعة بسرعة رهيبة وأيضاً تتضاعف الأخطار البيئية.

(ديرك بيتكي) أحد خبراء البيئة الصينية يقول: «ينبغي على المجتمع الصيني اليوم التوحد من أجل مواجهة تلك التحديات الخطيرة؛ التي نتجت عبر التطور الصناعي الكبير لهم».

وتقع تلك المهمة الضخمة على كاهل الحكومة الصينية؛ التي ازداد وعيها بالأضرار البيئية الناجمة عن زيادة معدلات التصنيع بشكل غير عادي، لذا فقد أقرت الحكومة هناك العديد من القوانين وأنفقت العديد من الأموال أيضاً لحماية البيئة.

لكن على الرغم من كل ذلك فمازال هذا قليل، ويقول متحدث باسم البنك الدولي: «يتعين على الحكومة الصينية فعل ما هو أكثر من ذلك، فنحن نتوقع منها إنفاق المزيد من الأموال وتوجيهها بشكل سليم للمحافظة على البيئة».

إنه بالفعل سباق مع الزمن، ولا نعرف هل سيكون الفوز فيه من نصيب الصين -ومعها بقية العالم- أم لا؟

أزمة المياه

تتناقص مصادر المياه العذبة بشكل متزايد، ويتوقع الخبراء زيادة الصراعات العالمية عليها حتى تصل إلى حد الحرب، ويمكن توقع دخول الصين بقوة في تلك الصراعات، حيث قد بدأت الحرب هناك بالفعل، المزارعون ضد أرباب العمل، والمدن ضد المدن، والمقاطعات ضد بعضها، ومن ذلك النزاع الشهير الذي حدث بين المدينتين الكبيرتين الجارتين بكين وتيانجين على نهر يوهي.

وقد نشب بين عامي 1990 و2002 أكثر من 120,000 نزاع حول مصادر الماء، لذلك فقد تم توظيف حوالي 60,000 موظف في وزارة خاصة سميت وزارة المياه لتكون كل مهمتهم تحجيم النزاعات حول مصادر المياه.

ولم تكن معظم تلك الصراعات سلمية كما أن بعضها قديم للغاية مثل تلك التي تدور حول نهر تشانغ الذي يفصل بين محافظتي هبي وهينان، كما أن هناك قرى بأكملها وعلى مدى عقود طويلة يتهم كل منهما الآخر باستنزاف مصادر المياه بشكل غير قانوني كما يلاحظ استخدام أنواع عديدة من الأسلحة في كثير من الأحيان.

وتظهر من خلال تلك النزاعات أن الصين لديها بالفعل مشكلة ضخمة مع المياه، بل هما مشكلتان: الأولى أن مصادر الماء تصبح أكثر ندرة، والثانية أن الكميات القليلة الموجودة من الماء العذب تزداد تلوثاً يوماً بعد يوم.

المشكلة الأولى: نقص مصادر الماء؛ يقول (ليستر براون) – خبير البيئة الدولي لدى الأمم المتحدة – : «إن مشكلة نقص الماء تعد واحدة من أكبر المشاكل التي تواجه الحكومة الصينية»، حوالي 400 مدينة من الـ600 مدينة

الكبرى في الصين تعاني من نقص الماء بشكل سيئ وخاصةً في بكين، حيث تقل المياه في الخزانات الكبرى هناك في (ميون) و(جوانتينج).

والكارثة الأكبر تتمثل في تجفيف البحيرات العذبة، لأن المياه السطحية تقل أكثر وأكثر؛ وتغور المياه الجوفية أعمق وأعمق؛ وكلما قلت المياه الجوفية ازدادت صعوبة الحصول عليها، وفي شنجهاي على سبيل المثال انخفض منسوب المياه الجوفية عنه في الأربعين عاماً الماضية بحوالي 1,7 متر.

والمشكلة الثانية: هي التلوث؛ هناك خمسة من بين أكبر سبعة أنهار في الصين والتي تمثل 70٪ من المياه العذبة هناك غير صالحة للاستخدام الآدمي، وحوالي 90٪ من مياه الترع والأنهار الصغيرة ملوثة، وهناك العديد من الأشخاص الذين يعانون من أمراض عديدة في الكبد وسرطان في المعدة بسبب تلوث المياه، كما يعتبر تلوث الماء أيضاً هو السبب الرئيس في وفاة العديد من الصينيين سنوياً.

وهناك أسباب عديدة لمشاكل المياه تلك ومن أهمها بالطبع الكثافة السكانية العالية، والاقتصاد المزدهر المتصاعد، وكذلك استخدام العديد من المصانع للماء ثم إعادته إلى مصادره مرة أخرى محملاً بالعديد من النفايات السائلة والتي يكون بعضها ساماً.

لكن الاستهلاك الأكبر للمياه يكون عن طريق المزارعين الذين يعتمدون على الماء العذب بشكل أساسي في زراعاتهم نظراً لقلة الأمطار، ويلاحظ (ليستر براون) تناقص أعداد الأراضي التي تعتمد على الري بشكل كبير، بالإضافة إلى أن العديد من المزارعين أصبح يستخدم الأسمدة الكيماوية والتي تعود إلى المياه الجوفية بصورة أخرى.

كمـا أن جميع خطوط وأنابيب الماء متصدعـة وتؤدي إلى فقدان الكثير منهـا، حيث يصرح (تشو جيينج) رئيـس صندوق حماية البيئة في الصين بخصوص هذا الموضوع لمجلـة (ريفيو بكين) قائـلاً: «إن هناك مضيعة هائلة للماء».

لقـد أدركت الحكومة حجم المشكلة التـي تواجهها وتتوقع وزارة المياه هناك أنه بحلول عام 2030 حدوث أزمة مياه خطرة، ولكن ما العمل؟

يتـم الآن تطبيـق سياسة تنظيم استخـدام الماء، وبالطبـع سوف يتم رفع أسعارهـا حيث كان سعر الماء رخيصاً جداً ولم يطرأ عليه أي تغيير منذ عام 1949 وقد حدث إهدار هائل فيه كنتيجة لذلك، ويقول (جياوتشي تشونج) –مدير عام الهيئة التي أنشئت حديثاً في بلدية بكين والتي تختص بشئون الموارد المائية– : «إن الناس ستقدر قيمة الماء ويقتصدون في استخدامه فقط عندما يشعرون بغلو تكلفته».

وقـد اتخذت أيضاً العديـد من الإجراءات الأخـرى في الآونة الأخيرة لتنظيم استخدام الماء وزيادة سعره لدرجة بلغت الضعف بين عامي 2003 – 2006 ووضعت العديد مـن الرسوم الإضافية بحسب الاستهلاك والحاجة للمياه، وقننت الحكومـة المركزية نظم تسعير بحسب الاستخدام في باقي المدن والبلديات الأخرى.

وبالإضافـة لذلـك فقـد اتبـع القـادة في بكين خطـة عملاقـة لتوزيع المـاء بالتسـاوي، وبحسب موارد المـاء، وبشكل عام علـى كافة الشعب فـإن هناك الكثير من المـاء في الجنوب والقليل منهـا في الشمال، ولذلك فسيتم إنشاء حطـين أنابيب عملاقين بطول 1000 كيلومتر من الجنوب إلى

الشمـال، وستصل تكلفة هذه المشاريـع الضخمة لحوالي 50 مليار دولار، وسيتم تهجير حوالي 400,000 نسمة لإفساح الطرق أمام خطوط الأنابيب العملاقة تلك.

في الطريق الخاطئ

لـن ينسى أحد تلك الصور التي ظل التليفزيون الصيني يعرضها وتنقلها وسائـل الإعلام العالمية طوال صيف 1998، عندما خاض الجنود الشجعان معركة شرسة للسيطرة على فيضان نهر اليانجتسي، وقد كان هذا أحد أسوأ الفيضانـات في تاريخ الصـين، حيث تم تهجير وإخلاء حـوالي 18 مليون نسمة، بينما مات وفقد أكثر من 4,000 مواطن.

لقـد تأثرت الدولة بشـدة بسبب هذه الكارثة المروعـة، ولكن السؤال الـذي كان يطـرح نفسه وقتها هو: كيف حدث هـذا؟ وكيف يمكننا منع تكرار حدوثها في المستقبل؟

وعندما حقـق الخبراء أدركوا الأسباب بسرعة؛ ففـي الروافد العليا لنهر اليانجتسي كانت توجد العديد من الغابات والأشجار الضخمة والتي تغطي مساحـة من 30٪ إلى 40٪ من تلك المنطقة منـذ 50 عاماً، كما كانت تقوم بحجز ميـاه النهر الزائدة لتمنع حدوث تلـك الفيضانات، اليوم وبسبب التقطيع المستمر لتلك الأشجار والغابات؛ فإن المساحة التي تغطيها لا تزيد عن 10٪ وهي غير كافية لحجز مياه النهر.

وقـد تم إيقـاف العديـد مـن الأشخاص في الحكومـة الصينيـة بعد تلك الكارثة، وعلى الرغم من تلك الأوامر الصريحة بعدم تقطيع المزيد من أشجار

الغابـات؛ فإن ذلك لا ينفد، وأصبحـت مساحة الغابات الصينية في تراجع مستمر، حيث تغطي الغابات فقط مساحة 17٪ من الأراضي الصينية، وهذا أقـل بكثير من المتوسط العالمي البالـغ 27٪، وكل هذا بسبب تلبية المزيد من الطلبات المستمرة على تجارة الأخشاب في العديد من البلدان.

وبالفعـل فقـد أصبـح الصينيـون اليوم مـن أكـثر الشعـوب استهلاكاً للأخشـاب -بعد الأمريكيين- انظر كم سيحتـاج أكثر من مليار شخص يومياً من أعواد الخشب التي تستخدم في تناول الطعام ثم ترمى بعد ذلك، وأيضاً كلما ارتفع مستوى معيشة المواطنين فإنهم يتوسعون في بناء المنازل وفرش الأثاث وكل هذا يحتاج للمزيد من الأخشاب.

وعندمـا نأخذ جولة في معارض (إيكيـا) للأثاث في بكين وشنجهاي، نرى مـدى إقبال الصينيين على شراء الأثاث الجديـد وهم يعدونه من أهم أولوياتهم هناك.

ولأن الطلـب يتزايـد على الخشـب في الصين، ونظراً لقلـة توفره؛ فإن الصينيين يعززون احتياجاتهم منه بشرائه من الأسواق الخارجية مثل ميانمار (بورما)، وروسيا، وإندونيسيا.

ولأن تقطيـع الغابـات باستمرار يكون على حسـاب البيئة؛ فإن الكثير منه يتم بصورة غير قانونية، ووفقاً لأبحاث الصحفيين بجريدة نيوزويك، (بـروك لارمـر)، و(أليكسانـدرا سينو)؛ فـإن حوالي 40٪ مـن واردات الأخشاب الصينية تتم بشكل غير قانوني.

ولذلـك فإن الصـين قد أصبحت سوقـاً رائجة للأخشـاب القادمة من اندونيسيـا بطريقة غير رسمية، ويقول الصينيـون إنهم غير مسؤولين عن

التحقــق من مصادر تلك الأخشــاب التي تأتي من الخارج هل هي قانونية أم لا؟ ولكــن الأهم: هل هم يشاركون بالتعدي على البيئة بقطع المزيد من الأشجار أم لا؟ فعلى سبيل المثال في نهاية التسعينيات عند صدور القوانين البرازيليــة بتغريم مقطعي الغابات في منطقة الأمــازون بغرامات باهظة أو مغادرة البلاد فقد رحلت تلك الشركات الصينية من هناك حينها.

وأيضــاً في الصين إذا لم تتخذ إجــراءات حاسمة تجاه من يقطع الأشجار فإن هذا سيؤدي للمزيد من التدهور البيئي هناك خاصةً بعد ظهور الأمطار الحمضية وتلوث الهواء في أجزاء عديدة من البلاد.

هواء ملوث

في نوفمــبر مــن كل عــام تتغير الأجــواء في شمــال الصيني بــين عشية وضحاها تغيراً كبيراً، يمتلئ الجو بالضباب الدخاني والسحب السوداء التي تحجب ضوء الشمس، ويمتلئ الهواء بروائح كريهة مثل أبخرة المصانع.

وتتكــون هذه السحب السوداء نتيجة إحراق الفحم (الذهب الأسود)، حيث يتم استخدامــه في المنازل والمصانع بسبة تصل إلى 75٪ من إجمالي الطاقــة المستخدمة في الصين، كما أن المحطات التــي تعمل بطاقة الفحم في الصــين تحرق سنويــاً حوالي 1,3 مليار طن فحم، كمــا أن التكنولوجيا المستخدمــة في تلــك المحطات قديمــة للغاية وبالتالي فإنهــا تنتج طاقة غير نظيفــة، ولذلك يتسبب ذلك الدخان في الكثــير من التلوث والذي يزداد في فصل الشتاء.

كمــا أن الهواء الــذي يستنشقــه الصينيــون ممتلئ بالرصاص والعديد

مـن الجسيمات الصغـيرة الضارة والسخام والرمـاد المتطاير وثاني أكسيد الكبريـت، ويزداد الأمـر سوءاً بسبب أن الفحـم المستخرج من الأراضي الصينية يحتوي على الكثـير من مركبات الكبريت السامة، لا عجب إذن عندمـا نرى أن انبعاثات ثاني أكسيد الكبريـت في هواء الصين هي النسبة الأعلى في العالم.

ورغـم أن الصين تأتـي دائماً في المرتبة الثانية بعـد الولايات المتحدة في كل شـيء حتى نسبة التلوث؛ إلا أن الخـبراء يتوقعون أنه بحلول عام 2020 ستكون الصين هي البلد الأكثر تلوثاً من باقي بلدان العالم.

يقـول الباحث في شـؤون البيئة (بيتر هيـك): «إن عواقب هذا التلوث البيئي ستكون في غاية الخطورة على البشر والبيئة سواء في الصين أو الدول المحاورة لها».

وبعملية حسابية بسيطـة لقياس نسبة التلوث في الهواء الصيني نجد أنها مرتفعـة للغاية لدرجة أن كمية السموم التـي يستنشقها الطفل هناك يومياً تعـادل تدخين حـوالي علبتين من السجائر، خمسة مـن أعلى عشرة مدن تلوثـاً في العالم توجد في الصين: (قوانجتشـو)، و(شنجهاي)، و(شنيانغ)، و(شيان)، وتحتل (بكين) المركز الأول في أعلى نسبة تلوث في العالم.

وكثيراً ما كان يتذمر رئيس الوزراء السابق (تشو رونغ جي) من التلوث، وقال ذات مرة موجهاً حديثه إلى البيروقراطيين في بكين في ديسمبر 1999: «إن التلوث في بلدكم هذه ينقص من عمري خمس سنوات على الأقل»، وقـد بلغ الـ75 ولا يزال حياً، بالرغم من مـوت العديد من مواطنيه بسبب تلـوث الهواء، ووفقاً للبنك الدولي في الصين فإن حوالي 300,000 شخص

يموتون سنوياً من آثار تلوث الهواء في المدن الصينية.

ويتسبب سوء الهواء في تلك المدن الكبرى بهطول أمطار حمضية تحوي على العديد من السموم المذابة، وتغطي تلك الأمطار الحمضية حوالي ثلث البلاد، ولكنها لا تتوقف عن حدود الصين فقط بل تنتقل بفعل الريح الغربية نحو الشرق إلى كوريا واليابان، وتؤدي تلك الأمطار إلى موت الغابات وتلوث مياه البحيرات.

لكن تلك الدول المجاورة لا تمثل نهاية المطاف بالنسبة لانتقال التلوث عبر الهواء، فقد أجرى الباحثون العاملون في الاتحاد الدولي لأبحاث الغلاف الجوي أبحاثاً على انتقال التلوث عبر الهواء في عام 2004 ووجدوا أمراً في غاية الغرابة؛ وهو أن تلوث الهواء في الصين ينتقل حتى يصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ليس على الساحل الغربي فقط ولكن حتى الساحل الشرقي أيضاً.

الآن أصبح واضحاً أن مشكلة تلوث الهواء في الصين ليست مجرد مشكلة محلية ولكنها مشكلة عالمية، ولكن البلدان المتضررة لم تتمكن من فرض أية عقوبات على الصين أو أن تجبرها على دفع ثمن تلويثها للبيئة، وبالتالي فإن كل تلك النداءات تظل فقط مجرد نصائح، وأهمها أنه ينبغي على الصين تقليل اعتمادها على الفحم.

يقول البروفيسور الأمريكي (جيفري ساكس): «في خلال السنوات القادمة سوف تتضاعف نسبة الكربون في الغلاف الجوي، وسوف يتسع نطاق التلوث مما سيؤدي إلى زعزعة استقرار المناخ والنظم الايكولوجية في العالم».

ولكن ما البدائل النظيفة للفحم؟

هل تصلح الطاقة النووية كطاقة بديلة؟

بالرغم من أن الصين تعتمد على العديد من محطات الطاقة النووية وتبني المزيد منها إلا أن هذا لا يمثل سوى 4٪ فقط من الطاقة المستخدمة هناك، ولكي تحل الطاقة النووية محل الفحم كبديل عنه فإنه يلزم بناء المئات من محطات الطاقة النووية في مختلف أنحاء البلاد، وبصرف النظر عن التكاليف الخيالية لهذا فإن هذا الأمر سيمثل خطراً كبيراً على البلاد.

هل تصلح الطاقة الطبيعية المتجددة كطاقة بديلة؟

للأسف رغم أن الطاقة الطبيعية المتحددة (كتلك المتولدة من الشمس والأنهار والرياح) طاقة نظيفة إلا أنها لن تستطيع سد ذلك الفراغ أو أن تحل محل الفحم في الصناعات الصينية.

ويقول (هيك): «ينبغي علينا الاعتراف بعدم وجود بديل حقيقي في الأفق».

ويأتي في المركز الثاني لأسباب تلوث الهواء في الصين بعد الفحم: السيارات.

فوضى على الطريق

يتفرع الطريق الرئيس بين (يانجومين ديا) و(بكين) إلى ثماني حارات، ولكن بداية من الساعة الرابعة والنصف عصراً فإنه يمتلئ بالسيارات الخاصة والأجرة والحافلات الناقلة ويتوقف لعدة ساعات، ويصيح سائقو سيارات الأجرة في غضب: «كل يوم تقع نفس المشكلة، بطء السير يجعل

من هذه الوظيفة عبأً ثقيلاً»، ثم يعرض على الركاب الذين يقلهم أخذ باقي المسافة سيراً على الأقدام لأن الوقوف ربما يطول لعدة ساعات.

تختنق بكين من كثرة الضوضاء والزحام والرائحة الكريهة، وتضاف يومياً حوالي 1000 مركبة جديدة على الطرق الصينية، وقد كان متوسط السرعة على الطرق الرئيسة في 1994 حوالي 45 كيلومتر/ساعة، وقد أصبح في أكتوبر 2003 حوالي 12 كيلومتر/ساعة، ومن يملك سيارة ويقودها في الصين فإنه يقطع بها مسافة تقدر بـ 47,400 كيلومتر في العام، وهذا الرقم يمثل ثلاثة أضعاف المسافة التي يقطعها قائد السيارة في أمريكا، ويرجع ذلك إلى العديد من الكيلومترات التي يهدرها الصينيون بدون فائدة.

يقول البروفيسور (تشانج جوفو) من جامعة (ياتونج) في بكين: «أرى في الكثير من الأحيان العديد من الأشخاص الذين يذهبون بسياراتهم الفارهة إلى أحد المطاعم لتناول وجبة عشاء هناك بينما هم يقيمون بالقرب منه».

كما أنه من الصعب جداً الحصول على مكان فارغ للانتظار، فإن حوالي 300,000 سائق يعانون يومياً في بكين من عدم وجود أماكن انتظار لسياراتهم، حيث يقول (وانج ليانج) رجل الأعمال الصيني: «إني قد أضطر أحياناً إلى ركن سيارتي على بعد أميال من المكان الذي أود الذهاب إليه ثم أستقل سيارة أجرة للوصول إلى المكان الذي أريده وذلك لعدم وجود أماكن انتظار خالية».

وليس الوضع أفضل من ذلك في باقي المدن الصينية الأخرى، ففي (قوانجتشو) حركة المرور غير منتظمة، وفي (شنجهاي) -وبالرغم من انتباههم المبكر لتلك المشكلة المرورية منذ منتصف التسعينيات واتخاذ

الإجـراءات اللازمة مثل إنشاء الكبـاري العلوية التي تحل الطرق الرئيسة مزدوجة- ولكن مع ذلك أيضاً فإنهم يعانون من تزايد حجم حركة المرور.

ولا ينظـر صناع السيـارات إلا للمستقبل القريب فقط، فهـم يريدون زيادة صناعاتهم وارتفاع مبيعاتهم بصـرف النظر عن حجم المشاكل البيئية التي تنتج عنه. ويقول مدير شركة BMW (هيلموت بانكي): «بحسب دراسات أجريناها فـإن من بـين كل 1000 صيني فقــط 6,6 يملكون سيارات، ووفقاً للمتوسطات العالميـة والتي تمثل 133سيارة/1000 نسمة فـإن الصين ستحتاج لإنتاج ما يقرب من 163 مليون سيارة، ونأمل أن تنتج BMW الجزء الأكبر منها».

ولكن تـرى ما هي العواقب الإيكولوجية التـي ستنجم عن هذا؟ يقول (تشاي قوانج مينج): «ستكون فكرة مرعبة إذا أصبح لكل مواطن سيارة».

ويتوقع المدير السابق لشركة البترول الوطنية الصينية CNPC: «إن حدوث هذا سيشكل خللاً للبيئة العالمية وسيؤدي إلى هلاك العالم».

وتتوقــع السلطات الصينية انطلاق 140 مليون سيارة على طرقات البلاد بحلول عــام 2020، وهذا سيشــكل تهديداً إيكولوجيــاً لكوكب الأرض وغلافه الجوي.

ولكن هل يمكن وقف هذا؟

بالطبــع لا، لأن الغــرب نفسه يعطــي نموذجاً سيئاً علــى ذلك حيث أن معظم الأسر هناك لديهم سيارتان، وهذا مما ساهم في حدوث مشكلة ثقب الأوزون، لذلك لا يمكن وضع قيود امتلاك من الغرب على الصينيين.

وتقــف العديد من المدن في حالة عجز أمام هــذا الوضع مثل شنجهاي التــي حاولت تطبيق نظام إليكتروني شامل بداية من يونيو 2004 ولكن لأن

كل شخص يدفع ما يعادل 1700 يورو يمكنه الحصول على سيارة؛ لذا فلم تجد تلك النظم الإليكترونية هناك؛ وبالتالي لم تحل المشكلة.

والاحتمال الوحيد لمنع انهيار النظام الإيكولوجي العالمي هو إيجاد تقنية حديثة يمكننا من خلالها استبدال وقود البنزين الضار بالبيئة بنوع آخر من الوقود أكثر ملاءمة للبيئة مثل الهيدروجين.

وقد أثار هذا الموضوع اهتمام العلماء، وفي ربيع 2004 في شنجهاي تمت إقامة ورشة عمل لهذا الموضوع، وقدم علماء الغرب في أثنائها العديد من الورقات البحثية حيث قالوا فيها: «نظراً للتأثير العالمي الذي سوف يحدث بزيادة عدد السيارات الصينية فإننا نضع رؤية مستقبلية لتخطي نوعية المحركات القديمة للسيارات التقليدية والدخول نحو تكنولوجيا المستقبل عن طريق استبدال الطاقة بخلايا هيدروجينية نظيفة».

لكن ما مدى واقعية هذا الأمر؟

ويقولون أيضاً: «وبالرغم من كونها فكرة مثيرة للإعجاب إلا أن تطبيقها ليس سهلاً؛ لأن هذه التكنولوجيا الحديثة ستكون مكلفة للغاية». لكن ليس لدى الصين خيار آخر سوى الاعتماد على هذه التكنولوجيا الحديدة.

وسوف يكون الصينيون في سباق حقيقي مع الزمن في هذا التحدي مثل كافة التحديات البيئية الأخرى التي تواجه بلادهم.

التصحر قادم

في جميع أنحاء المدن الصينية الكبرى توجد على الطرقات الرئيسة العديد من اللوحات الإعلانية الضخمة التي تعلن عن ملاعب للعب

الجولـف. ويأتي إلى هناك لاعبو الجولف العمالقـة مثل الأسترالي (جريج نورمـان)، حيث توجـد العديد من ملاعب الجولـف الجميلة وخاصةً في المدن الجنوبية مثل (شتشن).

الجولـف في الصـين..!! نعـم في الصـين، إن هـذا يثير الدهشـة إذ أن تلـك الرياضة خاصـة بالمجتمعات الغنيـة والمترفة؛ بينما لا تـزال الصين دولـة صاعدة. وقد أنشئت في أثناء الـ 20 عاماً الماضية حوالي 200 ملعب جولف، حيث يوجد في إقليم (حواندونج) وحده حوالي 60 ملعباً، وحول شنجهاي 20 ملعباً، وفي بكين حوالي 20 ملعباً أيضاً.

كمـا أنـه من المخطـط إقامة حـوالي 600 ملعب آخر!، وهـذا شيء غير معـروف؛ حيت أن معظم ملاعب الجولـف في الصين تم إنشاؤها بصورة غير قانونية، فقط 5٪ منها تمت الموافقة على إنشائها من قبل السلطات.

ويوجـه البيروقراطيون اللوم في إقامة تلـك الملاعب التي يطلقون عليها (الأفيون الأخضر) حيت تلتهم مساحات شاسعة من الأراضي، وينظرون نحو هذا الموضوع من وجهة نظر صراع طبقي ضد رياضة النخبة الغربية، ويشـيرون إلى مسؤولية هؤلاء الأغنياء في تدمير العديد من الهكتارات من الأراضي الثمينة.

والأرضـ الخصبة في الصـين نادرة، ولن تصدق هـذا إلا بعد النظر إلى خريطـة الصين، فبالرغم من كون الصين هي رابـع أكبر دولة في العالم من حيث المساحـة (بعد روسيا وكندا)، ولكن معظـم أراضيها مناطق جبلية أو صحراوية ولذلك لا فائدة ترجى من تلك المناطق في البناء أو الزراعة.

ويقـول عالم البيئة (بيتر هيـك): «لم يعد يبقى للصينيين سوى جزء صغير

من بلدهم تزدحم فيه كل أنشطتهم الاقتصادية والصناعية والزراعية وهذا لا يمثل سوى ربع مساحة الصين».

وحتى تلك المجالات الحيوية فإنها آخذة في الانكماش، لأن الصحراء في حالة تمدد واتساع مستمر، حيث أن ربع مساحة البلاد مناطق صحراوية، وهي في ازدياد مستمر كل عام، ولاسيما في منطقة الشمال الغربي، حيث كانت مساحة الأراضي الصحراوية هناك في السبعينيات 1560 كيلومتر مربع ثم أصبحت في التسعينيات 3436 كيلومتر مربع.

وتقترب الصحراء من بكين، وفي مايو 2000 قد أثار هذا الموضوع حفيظة رئيس الوزراء الصيني آنذاك (تشو رونغ جي) حيث أجرى استطلاع رأي للعلماء حول نقل العاصمة من بكين ولكنهم طمأنوه بأنه من المستبعد أن تحتل الصحراء بكين.

وتدعى هذه الظاهرة (التصحر)، حيث تنتقل الرمال لتتحول المناطق المفتوحة مثل ملاعب الجولف إلى مناطق صحراوية وهذا على حساب الحقول والمزارع والأراضي الخصبة ولذلك فقد بدأت الحكومة في عام 2003 حملة ضد تلك المناطق غير القانونية وتمكنت من استعادة حوالي أكثر من 5000 منطقة.

وقد أثمرت تلك الحملة الحكومية عن نجاح واضح حيث بدؤوا في برنامج إعادة تشجير البلاد، ورافق تلك الحملة العديد من الشعارات الدعائية مثل: (التشجير من أجل غد أفضل). وقد وضعوا خطة لزراعة حوالي 42 مليار شجرة جديدة في العشرين عاماً القادمة، ويعد هذا البرنامج أكبر عملية تشجير في البلاد.

ولا تعـد العواصف الرملية ظاهرة جديدة على الصين؛ فهي تعود لأكثر من 1000 عام مضى، ولكنها أخذت تتزايد في الآونة الأخيرة، وقد زادت مرات حدوثها على سكان بكين منذ عام 2000 بمعدل 13,4 عاصفة سنوياً.

مقلب قمامة العالم

(قوييـو)، بلدة تعداد سكانها حـوالي 100,000 نسمة، وتقع في جنوب مقاطعـة قوانـدونج، وعبر كل الازدهار الاقتصادي للبـلاد فإن (قوييو) لا تحصل سوى على الجانب المظلم فقط.

إنها مقلب قمامة الدولة، وهي أيضاً بمثابة مجمع لنفايات من جميع أنحاء العالم تقريباً، فمنذ التسعينيات وتلك البلدة الصغيرة تستخدم للتخلص من النفايات الإليكترونية.

تتراكم في شـوارع وساحات (قوييو) أجهزة الكمبيوتر القديمة واللاب تـوب والشاشات أطنان كثيرة من تلك النفايات الإليكترونية، وفي مقابل حـوالي 2 يـورو في اليوم تتسلخ أيـدي العمال المهاجرين مـن المقاطعات الغربية ويتعرضـ جهازهم التنفسي لخطر شديد عـن نقل تلك النفايات، لأنهـم يقومون بعمل خطير عند إحراق ودفن تلـك النفايات التي تحتوي علـى العديد من المواد السامة مثل الرصاص والكادميوم والفسفور وينتج عن إحراقها ودفنها تسمم الهواء والتربة والمياه.

ولكـن من ناحية أخـرى فإن بعض المـواد في تلك النفايـات يتم إعادة تصنيعها ليستخرج منها النحاس والبلاتين وحتى الذهب.

وبالرغـم مـن أن تجارة الخردة مشهـورة في جميع أنحـاء العالم؛ ولكن

الدول الصناعية الكبرى تبتعد عن تلك الأعمال الأقل أهمية، ولأن العمل في إعـادة تصنيع الخردة يؤثر على الجـذب السياحي للبلاد لذا فقد فضلوا الإلقاء بنفاياتهم إلى دول أخرى والتفرغ لأعمال أهم.

وقـد نشطت صناعـة الخردة في الصـين في السنـوات الأخيرة، وكان أحـد مراكزها الرئيسة في (قوييو) وآخر في مدينة (تايتشو) التابعة لمقاطعة (تشجيانغ)، ويجري تفريغ النفايات الإليكترونية للكوريين واليابانيين في (تايتشو)، بينما تذهب نفايات أمريكا وهونغ كونغ وباقي الدول المجاورة إلى (قوييو).

وفي واقع الأمر فإنه من غير المسموح تصدير تلك النفايات السامة طبقاً لاتفاقية (بازل)، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية هي واحدة من الدول المتقدمة القليلـة التي لم توقع بعد على تلك الاتفاقية، ويتمكن الأمريكيون من تصدير نفاياتهم السامة طالما يمكنهم الدفع في المقابل، وعلى الرغم من الحظـر المفروض لنقل تلك النفايـات إلا أن أكثر النفايات الإليكترونية في العالم ينتهي بها الأمر في الأراضي الصينية.

ويوميـاً تنتقل مئات الشاحنـات التي تحمل تلـك النفايات من مخلفات المصانع الضخمة نحو (تايتشو)، كما أن جو مدينة (قوييو) يمتلئ بالروائح الكريهة بسبب الأحماض والكابلات المتفحمة.

ونظـراً لموافقة الصين على تلك الأعمال، وتراخـي قوانين حماية البيئة الدوليـة، فإن الصين تصبح بشكل متزايد نقطـة جذب لجميع أنواع تلك الصفقـات المشبوهة، وتقول الكاتبة الأمريكيـة (إليزابيث إيكونومي) في كتابهـا (تدفق النهر الأسود): «إن الصين هي الواجهة الاستثمارية الأشهر

لأكثر الصناعات الملوثة في عصرنا».

وبمساعدة من البيروقراطيين تستخدم الشركات والمصانع في كوريا وتايوان وهونغ كونغ الصين للتخلص من نفاياتهم، وتقول (إليزابيث) أيضاً: «إن ضعف قوانين الحفاظ على البيئة وعدم تنفيذها سبب رئيس لعدم تحويل المصانع والشركات منتجاتها إلى منتجات صديقة للبيئة».

وقد قامت شركتي باير وباسف الألمانيتين للكيماويات بإنشاء استثمارات ضخمة في الصين، وأقاموا هناك العديد من المشاريع المخالفة لقوانين البيئة، ولكن مديري الشركتين ينفون هذا قائلين: «إننا نطبق هنا نفي المعايير البيئية التي تطبق في ألمانيا»، ولكن من يمكنه التحقق من ذلك؟ وكالة حماية البيئة مثلاً..؟

كيفية تفعيل السياسة البيئية؟

يتم اختصار السلطة الحكومية المسؤولة عن شؤون البيئة في الصين بـ SEPA[1] وهذا الاسم سار منذ عام 1998، ولأن حماية البيئة أمر في غاية الأهمية فقد أضيفت تلك الوزارة المختصة بهذا الشأن وهي تعمل بكفاءة حتى الآن.

ويعمل في SEPA 270 موظفاً، ولكن البعض يتساءل عن مدى فعالية تلك المجموعة الصغيرة من الناس لهذه المهمة الضخمة، وأرجو ألا يسيء البعض فهمي؛ فإن الصين قد حققت الكثير من الإنجازات في مجال

(1) State Environmental Protection Administration – اي وزارة الدولة لشؤون البيئة

حمايــة البيئة وخاصــةً إذا ما قورنت بالوضع السابــق تحت حكم (ماو)؛ عندما كان الشيوعيون شيوعيين، حيــث كان البعض يعتقد بقوة الإنسان اللامتناهيــة، ونجد هذا في بعض كلمات (ماو): «ينبغي أن ينتصر الإنسان على الطبيعــة»، ولكن هذا كان خطأً فادح؛ فقد تضــرر البشر والصينيون على وجه الخصوص نتيجة تعاملهم السيئ مع الطبيعة.

وقــد بدأ تاريــخ السياسة البيئية بالفعل في الصــين منذ عام 1972، حينما عقــد المؤتمر البيئي الأول للأمم المتحــدة في أستوكهلم، وقد كان الصينيون يــرون وقتها أن التلوث البيئي العالمي قــد تسببت فيه دول العالم الرأسمالي الصناعي.

لقــد قاموا بإرسال وفد مكون من ثلاثة أعضــاء إلى العاصمة السويدية، كان أحــد أعضاء ذاك الوفد هو: (كو جي بنــج)، وقد كان تلميذاً لرئيس الــوزراء وقتها؛ (تشوي إنلاي) في منتصــف السبعينيات، وقد تحدث في المؤتمر عن المشاكل البيئية التي تواجه بلاده خاصةً بعد انفتاحها على العالم بصورة أكسبته احترام الحضور الأجانب.

التقى (كــو) مؤخراً في بكين بـ(موريس ســترونج) الكندي الذي رافقه في مؤتمر أستوكهلم للبيئة منــذ سنوات، وناقشا التقدم الذي تم إنجازه بعد 30 عاماً، وفي الوقت الذي كان يتقد فيه (كو) الصين كان يرى (سترونج) الغربي أن الصين قد حققت تقدماً كبيراً.

تــرى أيهما كان على حق أكثر؟ ربمــا كلاهما، فعند النظر للوهلة الأولى نجد أن الصين قد توسعت للغاية في السياسات البيئية منذ أستوكهلم 1972، ولكــن أيضاً فإن هذا لا ينفي وجــود العديد من المشاكل البيئية، وهنا يأتي

انتقاد (كو) سبب عدم التوازن بين التوسعات الاقتصادية والمحافظة على البيئة.

وتشتد هنـاك الحاجة للعديد من القوانين البيئيـة الصارمة، وبالرغم من وجـود العديـد من القوانـين المتقدمة بالفعـل في حماية البيئـة إلا أنها قد أضيفت على اللوائح مؤخراً، وبدون دراسة جيدة، (باول زودينج) الخبير البيئي الألماني في الوكالة الألمانية للتعاون التقني في بكين؛ يقول: «هذا هو ثمن سرعة الصعود الصيني، حيث أدى إلى عدم اتساق قوانين حماية البيئة وتناقضها مما يسهل خرقها».

وبالإضافـة لذلك فإن هنـاك مشكلة أخرى؛ حيث يقـول الخبير البيئي (بيتر هيك): «إن قوانين البيئة الشاملة المماثلة لتلك النوعية يتم تنفيذها في الغرب بشكل كامل وبحزم شديد»، بينما نجد أن الحد الأقصى للعقوبة في الصين على جريمة الإضرار بالبيئة غرامة مالية لا تزيد عن 10,000 يورو.

وتـدرك القيادة السياسية وجود العديد من المشاكل ولكنها تحاول دائماً أخـذ خطوات في هذا الموضـوع، وفي كلمته أمام مجلس النواب في 2004 وعد (ون جيا باو) بالتنمية البيئية الشاملة وأنه سوف يتم اعتماد موازنات لمشاريع حماية البيئة تتناسب مع النمو الاقتصادي.

وبـدون شك فإن الحكومة لا تتحدث فقط بل تعمـل أيضاً، فقد قامت بضخ وتوفير الكثير من الأموال لحماية البيئة، ويقدر أجمالي ما تنفقه على هذا سنوياً بحوالي 1,3٪ مـن إجمالي الدخل القومي للبلاد، ولكن مازال هـذا غـير كاف، حيث يرى علماء البيئـة الصينيين أنفسهـم أن هذا المبلغ يجب أن يصل إلى نسبة 2,2٪ من إجمالي الدخل القومي.

جنة أم جحيم أم فوضى- ثلاثة سيناريوهات

أصدقاء الأرض، والسلام الأحضر، والصندوق العالمي للطبيعة والعديد من المنظمــات البيئية العالمية الموقرة قد أصبح لديهــا بالفعل مكاتب عمل في بكين، هذا إلى جانب عدد لا يحصى من الجماعات البيئية المحلية التي أسســت منذ منتصف التسعينيات، ويقدر عــدد تلك المنظمات البيئية غير الحكومية في الصين بأكثر من 1000 منظمة.

وجميع تلــك المنظمات تلعب دوراً هامــاً ومتزايــداً في السياسة البيئية الصينية، ودائمــاً ما يشيرون إلى أوجه القصــور هناك؛ ويعبرون عن ذلك بقوة عــبر كل وسائل الإعلام، حتى أنه لم يعد أحــد فوق مستوى الانتقاد من تلك المنظمات (الحضراء)، ويتم ذلك من خلال مجموعة من الصحفيين المهتمــين بشؤون البيئة حيث يثيرون تلــك المواضيع في حملات صحفية موسعة.

وبالنســبة للكاتبة (إليزابيث إيكونومــي)؛ فإن تلك الحركات تمثل بادرة مشجعــة للغاية حيــث أنه يمكــن التواصل من خلالهــا إلى نقطة تحول في سياســة الصين البيئية. وأضافت أيضاً في كتابها (امتداد النهر الأسود) أنها تتوقع حدوث واحــد من بين ثلاثة سيناريوهــات مستقبلية خلال العقود القادمة للبيئة والاقتصاد في الصين:

(الصين الخضراء)، هكذا دعت إيكونومي إحدى نظرياتها الثلاث والتي تراها أجملهم من خلال المشاهد التالية:

ظهور وانتشار ذلك النمط النموذجي للحفاظ على البيئة في العديد من المدة الأخرى.

إطلاق قطارات ذات سرعة عالية تربط شجهاي بباقي المدن من حولها.

التعاون بين شركات السيارات الصينية والعالمية في إنتاج سيارات موفرة للطاقة.

ترك الزراعة اليدوية واستخدام المزارعين المنتجات العضوية الآمنة.

توليد طاقة كبيرة من السدود المائية لاستخدامها كمصدر طاقة بديل ونظيف للغاز والفحم.

زيادة الاهتمام بالمناطق الغربية في الصين والتي تعاني من تدهور بيئي شديد.

التأثير المتزايد للمنظمات غير الحكومية.

اتخاذ القضايا البيئية دوراً أكبر في برامج الانتخابات المحلية.

الإصلاح البيئي المتزامن مع الإصلاح السياسي وقيام تعددية حزبية.

بينما تطلق إيكونومي اسم (الانهيار البيئي) على السيناريو الأكثر تشاؤماً، وتبدأ أطروحتها تلك بانهيار الاقتصاد الصيني وعدم زيادة نسبة معدلات النمو عن 7٪، حيث تكون النتيجة المتوقعة لذلك هي: ارتفاع معدلات البطالة، وزيادة الاضطرابات الاجتماعية، وأحداث عنف وتخريب، حيث قد يتسبب التجاهل المستمر لقوانين البيئة في حدوث كل ذلك.

وبين هذين النقيضين يقع السيناريو الثالث، وهو: الاستمرار على نفس الوضع الحالي، واستمرار الأعمال التجارية بنفس الشكل المعتاد، والجهود المتواصلة من الحكومة لمحاولة حماية البيئة والحفاظ عليها؛ ولكن هذا سيزيد من تورطها والاتجاه بالبلاد نحو وضع أكثر فوضوية وبالتالي

حدوث اضطرابات اجتماعية هائلة.

وللأسـف فإن هـذا السيناريو الأخير يبدو أكثرهـم واقعية، حيث يقول (بيـتر هيك): «بمكننـا من خلال رصـد التاريـخ البيئي الصينـي المعاصر استنتـاج الأوضـاع المستقبلية له، حيث يبدوا أنهم لـن يتمكنوا هناك من تحقيق التنمية البيئية المطلوبة»، لكن (هيك) فصل سياسة الصين البيئية عن النمو الاقتصادي هناك.

لذا فإنه ينبغـي على الحكومة التوجه أكثر نحو حمايـة البيئة واستخدام طاقـة نظيفة لتحقيق تنميتهم الصناعيـة الكبرى، وإلا سوف تكون الصين بذلـك قـد وضعت أقدامهـا في: «نفـس الطريق الـذي سلكتـه البلدان المتقدمة» نحو كارثة بيئية كبرى.

الفصل الثامن

العملاق الجائع

هجوم الصين على أسواق المواد الخام الأولية

«أصبحت الصين تستورد مؤخراً كميات ضخمة من الحبوب الغذائية بشكل يمكنه التأثير على أسعار السوق العالمية وإصابتها بارتفاع هائل غير مسبوق»

ليستر براون

المدير السابق لمعهد ورلدوتش

كان قائدو السيارات غاضبين بشدة من الارتفاع المفاجئ لأسعار البنزين عام 2005، عندما قفز سعر برميل النفط لأكثر من 70 دولاراً حيث أنه لم يصل إلى هذا الرقم منذ سنوات عدة مضت بعد أزمة النفط العالمية سنة 1973، وعللت شركات النفط بسبب تصاعد الصراع المستمر في منطقة الشرق الأوسط، والأزمة التي يمر بها الاقتصاد العالمي، وكانت الصين بالطبع واحدة من تلك الدول المتعطشة للنفط.

وبعد الازدهار الذي شهدته الصين في المجال الاقتصادي؛ لم تعد مكتفية ذاتياً في مجال الطاقة، وبالتالي فإنها تسعى للحصول على المزيد من النفط عن طريق شرائه من الأسواق العالمية، وأدى الطلب المتزايد من الصين إلى ارتفاع أسعار النفط العالمية، ولأن الاقتصاد الصيني ينمو سنوياً بمعدل من 7 إلى 9 ٪ لذا فهم يحتاجون دائماً إلى المزيد من النفط.

وهكذا فإن الصين تلعب دوراً كبيراً في ارتفاع أسعار النفط العالمية، يقول (يو جياو) – الباحث في شركة سينوبك للنفط: «هناك العديد من العوامل الأخرى التي تتسبب في ارتفاع أسعار النفط ، منها تغير أسعار العملات، وخطر الهجمات الإرهابية، والحروب». ولكن في الحقيقة فإن كل ما ذكره لا يتوقف عليه ارتفاع أسعار النفط إلا بنسبة 50٪ فقط بينما تكون الـ50٪ الأخرى بسبب تعطش الصين المتزايد للنفط الذي تعتمد

عليـه في العديد من صناعاتها وهـذا بحسب إحصائيات قام بها خبراء في وكالة الطاقة الدولية.

ولم يجلـب علينا عام 2005 ارتفـاع أسعار النفط فقط ولكن أيضاً العديد مـن المواد الخام الأخرى ارتفع سعرهـا بعد الهجوم الصيني عليها وبالتالي فقد ارتفعت أسعارها العالمية، وهذا ما حدث مع صناعة الصلب حيث أنه يعد عماد الصناعة والعنصر الثاني الأكثر أهمية للبلدان الصناعية والمتقدمة.

وكما هو الحال مع الصلب والنفط فقد أدى ارتفاع أسعارهم إلى ارتفاع أسعار باقي المواد الخام والسلع الاستهلاكية بين عامي 2003 و2005 بشكل هائل، مثـل: النحاس والقصدير والفحم وأيضـاً الذهب والبلاتين وحتى الحبـوب الغذائية مثل الذرة وفول الصويا، فقـد أصبح الصينيون يشترون مـن كل شـيء وبكميات هائلة، حتـى إنهم قد لجؤوا مؤخـراً إلى استيراد مئـات الأطنان من الخردة لكـي يستغلوها كمواد خـام أولية حيث تشتد الحاجة إليها في عمليات التصنيع.

(شفـط بالمكنسة)؛ هذا ما يطلقه المحللـون الاقتصاديون على الصينيين الذين يجمعون المواد الخام من كل الأسواق العالمية بالرغم من ثراء بلادهم بمختلـف أنواع المواد الخام الأولية، وعلى سبيـل المثال؛ كان إنتاج الصين من محاصيل الحبوب مذ سنوات قليلة كاف لإطعام 1,3 مليار نسمة، ولكن منذ عام 1996 أصبحت الصين تستورد المزيد من الحبوب الغذائية.

وكذلك النفط عند اتخاذه كمثـال نجد أنه يحيق بالعديد من آباره هناك جفـاف كبير بينمـا لا يتم اكتشاف المزيد من مـابعه، كمـا أنه سلعة لا يتم نقلهـا إلا تحت ظروف خاصة جداً، لذلـك فقد تعين على الصينيين النظر

خـارج حدود أراضيهم، وتمكنوا من عقد صفقات شراء للنفط من أفريقيا وأمريـكا الجنوبيـة ولكن تلك المصـادر الجديدة ما زالت غـير قادرة على سـد حاجتهم لذلك فهم الآن يتطلعون نحو منطقتـي وسط آسيا والشرق الأوسـط، وهما منطقتـان مليئتـان بالصراعـات الإقليميـة والتدخلات الأمريكيـة -كونها أيضاً من أكثر البلدان تعطشاً للنفط- وقد تلجأ أمريكا أحيانـاً إلى استخدام القوة العسكريـة، ولذلك فإنه من الممكن أن تخوض الصين حروبـاً في سبيل التكالب العالمي على النفـط، والأمر نفسه ينطبق على باقـي السلع الأخرى من خلال حاجة الصين المتزايدة إلى المواد الخام والصراع العالمي على الموارد.

من يطعم الصين؟

قـد أثـار تلك القضية المهمة في عـام 1994 (ليستر بـراون) رئيس معهد ورلدوتش لحماية البيئة، والجواب على هذا السؤال هو أن الصين لا يمكنها الاكتفـاء ذاتياً من المحاصيل الغذائية، ولذلك فإن الصين تعتمد كثيراً على واردات الحبوب من الخارج، ويعقـب براون على كلامه قائلاً: «قد أدى الهجـوم الصيني على أسـواق الحبوب الغذائية العالميـة إلى زيادة أسعارها بشكل لم يسبق له مثيل».

وفي الحـال قام المسؤولـون في بكين بالرد على ذلـك السيناريو المروع لبراون، حيـث عقدت وزارة الزراعـة الصينية في اليوم التـالي الموافق 25 أغسطـس 1994مؤتمراً صحفياً؛ وقام نائـب الوزير (ون باورو) بالرد على أفكار براون بأن الصين ليست لديها أي ثغرات في إنتاج محاصيل الحبوب

الغذائية، وأصبحت هذه هي السياسة الصينية حتى اليوم.

ومن الطبيعي ألا تعترف الحكومة الصينية بوجود مشاكل في نظام التغذية لأنها مسألة في غاية الحساسية بالنسبة للصين من عدة قرون –حيث أنه من الملاحظ تكرار حدوث العديد من المجاعات لديهم– ويضيف براون قائلاً: «تعتمد الصين في تلبية جزء كبير من احتياجاتها الغذائية على الخارج، ولكن يصعب (في الصين) تقبل ذلك الأمر داخلياً من الناحية النفسية والوضع السياسي الدولي».

وقد أثبت براون بالفعل وجود نقص في الغذاء لدى الصين؛ بسبب تغير العادات الغذائية مع زيادة الدخل الناتج عن النمو الاقتصادي. المزيد من اللحوم والدواجن والمنتجات الحيوانية، وكل هذا يتطلب المزيد من الحبوب الغذائية، وبناءً على العديد من التجارب المتخصصة وجدوا أنه يلزم توفير كيلوجرامين من الحبوب للحصول على كيلوجرام واحد من لحم الدواجن، وأربعة كيلوجرامات من الحبوب لكل كيلوجرام من لحم الخنزير، بينما يتطلب إنتاج كيلوجرام من اللحم البقري سبعة كيلوجرامات من الحبوب.

وبينما يستهلكون في الصين حوالي 200 مليون طن من الحبوب سنوياً كعلف للماشية والدواجن؛ فإنهم يحتاجون إلى 300 مليون طن للبشر.

والسؤال الأهم هو: إذا كان احتياج الصين للحبوب الغذائية في حالة ازدياد؛ فلماذا لا تزيد كميات إنتاجها هناك؟ وهنا يطرح براون تساؤلاته حول الأراضي الصالحة للزراعة هناك وأعداد المزارعين الذين يهجرون الزراعة، ويتوقع أنه بحلول عام 2030 ستزداد واردات الصين من الحبوب بشكل كبير للغاية حيث ستصل إلى ضعف الصادرات العالمية للحبوب الآن.

اليوم وبعد أكثر من عشر سنوات على أبحاث براون نرى أن أجزاء كثيرة من توقعاته قد تحققت بالفعل، فمساحة الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة في الصين تقل عاماً بعد عام حتى وصلت إلى 500,000 هكتار، وزيادة نسبة ملوحة التربة وجفافها، وتحويل العديد من الأراضي الصالحة للزراعة إلى مناطق صناعية، وهجرة الفلاحين نحو المدن الصناعية.

ويحذر (هوانج جيكون) –مدير مركز البحوث الزراعية والسياسية في الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية– من عدم الإسراع في إعادة زراعة محاصيل الحبوب الغذائية وأن هذا سيمثل خطراً كبيراً في المستقبل.

وقد استخدمت الصين أراضي جيرانها في أوقات حدوث أزمات غذائية ومجاعات؛ حيث قاموا بزراعة 7000 هكتار في كازاخستان، و5000 هكتار في لاوس، وكان العمل يجري في كلتا المنطقتين بأيدي مزارعين صينيين.

وقد انخفض إنتاج الحبوب –كما توقع براون أيضاً– سنةً بعد أخرى، فوفقاً للأرقام الصادرة عن وزارة الصناعة الصينية فقد كانت الصين تنتج حوالي 512 مليون طن من الحبوب عام 1998 وهذا بالطبع يعد محصولاً وفيراً، ولكن هذا الرقم انخفض ليصبح 435 مليون طن بحلول عام 2003، ولذلك فقد اتجهت الحكومة الصينية بالفعل إلى استيراد الحبوب من الخارج كما جاء في تقرير (ليستر براون) حيث تحولوا للشراء من أستراليا وأمريكا وكندا.

وبسبب زيادة الطلب الصيني على الحبوب فإن أسعارها العالمية تزيد في المقابل بمعدل 20٪ سنوياً، وبالرغم من استيراد الصين لـ 3٪ فقط من متطلباتها الزراعية؛ إلا أن هذه النسبة تنمو سنوياً وترتفع معها أسعار كل المواد الغذائية لدينا.

فصل مظلم

في أحد مصانع النسيج في نينجبو (مدينة الخمسة ملايين نسمة) والتابعة لمحافظة تشيانغ المجاورة لشنحهاي، يسأل صاحب المصنع الألماني (أولريش ميدر) الحاكم الصيني الجنرال (جيمس): «متى سوف يصل إلينا مولد الكهرباء الجديد؟»، فيجيب جيمس: «في غضون ثلاثة أسابيع»، يتذمر (ميدر) آملاً أن يكون هذا هو الموعد النهائي لوصوله، حيث أن لديه أكثر من 800 شخص يعملون في مصنعه الذي ينتج السراويل والتنانير والمعاطف ثم يصدرها لشركات أزياء أوروبية.

في المساء كان يجلس (ميدر) في أحد المطاعم البسيطة التي تقع بجوار المصنع مباشرةً، وكان الجو حاراً، والمروحة تدور، والتليفزيون يعرض مقاطع من أوبرا السواب الصينية، وفجأة..!! يصمت التليفزيون وتتوقف المروحة وتنطفئ الأنوار.

كان ميدر يتناول طعامه الروتيني الأسماك والخضار بتلك العصي الصينية، ثم صاح قائلاً عندما انقطعت الكهرباء: «نحن نحيا لكي نعاني دائماً من سوء الحظ».

بعد حوالي ثلاث دقائق عاد التيار مرةً أخرى، غالباً يتطلب الأمر وقتاً أكثر من ذلك حتى يعود مجدداً، لأن في فصل الصيف يتم تشغيل الملايين من أجهزة تكييف الهواء ربما لعدة أيام متواصلة في بعض الأحيان.

والأسوأ من مفاجأة انقطاع الكهرباء أن المرء ينبغي عليه أن يظل ساكناً في الظلام لا يكاد يتلمس طريقه، بينما لا يعلم إلى متى ينتهي هذا الظلام الإجباري؛ هل ثلاث دقائق أو ثلاث ساعات أو ربما ثلاثة أيام..!

وتوجد أسباب عديـدة أخرى لانقطاع التيار المتزايد هناك، أحد أهمها هو النمو السريع للتصنيع الصيني، حيث يزيد طلب واحتياج السوق على العرض المقدم، وبالتالي يـؤدي ذلك إلى استهلاك كبير للطاقة، وبالإضافة لذلـك فإن المستهلكين أصبحوا يعتمدون بشكل أكبر على تلك المنتجات التي تعمل بالطاقة؛ فغالبية الأسـر الصينية أصبح لديهم تليفزيون وثلاجة، هــذا بالإضافة إلى الطلب المتزايد على مكيفات الهواء، ومنذ عدة سنوات واستهلاك الصين للطاقة ينمو سنوياً بنسبة 15٪.

وسـوف يستمـر ذلك كما يتوقـع البروفسـير الألماني الخبـير بالشؤون الصينيـة في جامعة برلين (ساند شنايدر) قائـلاً: «إذا نظر أحد نحو النمو الذي ظهر به الاقتصاد الصيني خلال الـ15 عاماً الماضية ثم نظرنا الآن فإننا لا نجد لديهم من الطاقة ما يكفي لإتمام هذا النمو».

وحتـى الآن لم تـزل هناك فجوة كبيرة بين العرضـ والطلب، وبحسب العديـد من الخبراء مثل مستشـار الطاقة في بكين (جيم بروك) فإن الطلب علـى الطاقة في الصين يزيـد عن الموجود بحوالي 11٪ وهـذا يفسر سبب الانقطاع المتزايد للكهرباء في 21 مقاطعة من بين الـ35 هناك.

كمـا أن هناك أيضاً بعض المصانع التـي تم إغلاقها بشكل مؤقت بسبب نقصـ الطاقة، وكذلك تعطل إشارات المـرور وإظلام غرف المعيشة، وقد أرسـل بعضـ طلاب الصـف الثانوي مـن مقاطعة تشجيـانغ شكوى إلى السلطـات المختصة من أنهم لا يستطيعـون عمل واجباتهم المنزلية بسبب كـثرة انقطاع التيار الكهربائي، وقـام بالرد عليهم (شو دينج مينج) رئيس مكتب التنمية الوطنية للطاقة بقوله: «وأنا أيضاً قلق جداً بسبب هذا».

وتحاول السلطات العمل علـى إنشاء أنظمة قصيرة الأجر عن طريق بناء العديد من محطات توليد الكهرباء الحديدة ذات المدى المتوسط.

كمـا تم إطلاق حملـة للدعـوة إلى توفير الطاقـة، وبدأتهـا شنجهاي، وتشمـل تلك الحملة استخدام أجهـزة التكييف في المكاتب والمنازل فقط إذا ارتفعت درجة الحرارة عن 26 درجة مئوية، كما تعمل أجهزة التكييف في المطاعـم لمدة 16 ساعة فقط وتغلق باقي اليوم، وكذلك طلب من بعض المصانـع في شنجهاي وحولها التحـول للعمل في نوبات ليلية أو الإغلاق لمدة يومين أسبوعياً.

في بكـين في صيـف 2004 تم منح عمـال 6389 مصنـع ومؤسسة إجازة طارئة بسبب ارتفـاع درجة الحرارة لمدة أربعة أسابيع –من 15 يوليو حتى 15 أغسطس– لأنها كان أعلى درجة حرارة تشهدها البلاد.

وفي الصيـف الماضي رأينـا منظراً أكثر غرابة؛ فقـد حلقت طائرات في سمـاء شنجهـاي وبـدأت في إلقاء مواد تكـوّن غيوماً صناعيـة، وكانت تلك المواد عبارة عـن الملح ويوديد الفضة والثلج الجاف حيث يكوّن هذا المركـب عند إطلاقه على ارتفاع معـين من سطح الأرض سحباً تؤدي إلى هطـول أمطار صناعية تساعد في تبريـد حالة الغليان التي تشهدها البلاد، وقد بلغت تكلفة تلك الأمطار الصناعية حوالي 500,000 يورو.

وتعد كل تلك الإجراءات السابقة مثل قطرة في دلو، كما اتخذت أيضاً المزيد من إجراءات توفير الطاقة حتى يتم التخفيف من حدة المشكلة قليلاً، كذلك هناك حاجة شديدة إلى زيادة الجهود الرامية إلى التوجه نحو مصادر طاقـة بديلة (مثل: طاقة الرياح، والطاقـة الشمسية، والمد والجزر) وإنشاء

محطات جديدة لتوليد الكهرباء.

وتتسارع اليوم عمليات بناء محطات توليد كهرباء جديدة في الصين، حيث يتم هناك الآن إنشاء 70٪ من محطات توليد الكهرباء الجديدة في العالم ضمن برنامج التوسع الهائل الذي أعلن عنه (شو دينج مينج) حيث قال: «إن محطات توليد الطاقة الجديدة التي بنيت في الصين عام 2004 تعادل حوالي نصف الطاقة المولدة في بريطانيا العظمى».

كما أن هناك أيضاً محطات الطاقة النووية حيث تحاول الصين اللحاق بركب استخدام تطبيقات الطاقة النووية بشكل آمن، حيث أعلنت (تشانغ هواتشو) رئيس هيئة الطاقة الذرية في الصين أنه بحلول عام 2020 سيكون قد تم إنشاء مالا يقل عن 27 محطة طاقة نووية.

ولكن حتى ذلك الحين فإن الصين مازالت لا تعتمد على الطاقة النووية إلا بنسبة 4٪ من احتياجاتها، وهذا قليل إذا ما قورن بالمعدل العالمي البالغ 17٪ ولذلك فإن الصين سوف تظل تعتمد على الفحم والنفط بشكل متزايد.

التعطش للنفط

(داتتينج)؛ مدينة صينية ذات تاريخ نضالي كبير، تقع في أقصى الشمال بالقرب من الحدود الروسية، ويعمل أهلها في استخراج النفط في ظل تلك الظروف الجوية القاسية حيث تكون ذات برد قارص في الشتاء وحر شديد في الصيف.

يعمل هناك حوالي 90,000 شخص في استخراج النفط الذي يكفي ثلث

احتياجـات البلاد هنـاك. حيث كان يتم استخراج حـوالي 50 مليون طن من النفط عام 1997 ولكن انخفض هذا الرقم ليصل إلى 40 مليون طن عام 2003 كمـا أنه من المتوقع أن يصبـح 30 في عام 2010 ثم يصل إلى 20 مليون طن بحلول عام 2020.

علـى أن بحث الصين عن منابـع جديدة للنفط داخـل بلادهم قد أخذ يـزداد، خاصـةً في تلـك المناطق الوعـرة حيث توجد آبـار النفط في ظل ظـروف قاسية مثل تلك المناطق الغربيـة العميقة، بينما قد اكتشفت بضعة حقول فقط في (داتشينج) ثم لم يظهر المزيد.

وتنتشـر العديد مـن الأرقام المتباينة عن احتياطـي النفط في الصين، ففي الوقـت الذي أعلنت فيه شركة النفط البريطانيـة BP (بريتش بتروليوم) أن الصين لديها 3,2 مليار طن من احتياطي النفط، فعلى النقيض أعلنت وزارة المـوارد الصينيـة أنهم لديهم 6,5 مليار طن، وهذا يعـد قليلاً وفقاً للمعايير العالمية حيث تمتلك الصين فقط من 2 إلى 3٪ من الاحتياطي العالمي للنفط؛ بل ربما يصل إلى 1٪ بحسب بعض الإحصائيات.

لذلك فـإن الصينيين ليست لديهـم خيارات أخرى غـير استيراد المزيد والمزيد من النفط، ومنـذ عام 1993 وأصبحت الصين مستورداً للنفط أكثر ممـا تصدره، وقد بلـغ استهلاك الصين عام 2004 نحـو 320 مليون طن من النفـط الخام، استخرج من أراضيهم حوالي 170 مليون طن بينما استوردوا 150 مليون طن من الخارج.

كما يتوقع أيضاً ارتفاع واردات الصين من النفط في السنوات القادمة بشكل يثـير القلق، حيث سيصـل استهلاك الصين للنفـط بحلول عام

2020 إلى 450 مليــون طن سوف يستــوردون منهم من 60 إلى 80٪ أي: مــن 170 إلى 360 مليــون طن وهذا رقم ضخم لا يمكــن تصوره، ووفقاً للاستهلاك العالمي اليوم فــإن الصين تستهلك حوالي 10٪ من استهلاك النفط العالمي.

يقــول الخبير النفطي المعــروف (دانييل يرجين) –رئيــس رابطة كامبريدج لأبحــاث الطاقة– في حديث لصحيفــة وول ستريت: «ستكون الصين هي اللاعب الأكثر ديناميكية في سوق النفط العالمية أثناء السنوات القليلة المقبلة».

لا؛ بــل ســوف تصبح الصين أيضــاً هي العامل المؤثــر الرئيس في سوق النفط خلال السنــوات القادمة وخاصةً عندما يزداد عدد السيارات هناك مــن 20 مليــون الآن إلى 140 مليون سيارة بحلول عــام 2020، ومن خلال ارتفــاع الطلــب في واردات الصين من النفط فإن أسعــاره العالمية تميل إلى مزيد من الصعود، حيث ستكــون الصين عنصراً مؤثراً وحاسماً في تحديد سعر النفط في المستقبل.

وقد توجهت الآن أنظار منتجي النفط نحو الصين بشكل مباشر، ومن خلال النمو المتصاعد بقوة للاقتصاد الصيني فإنه يدفع بأسعار النفط صعوداً، والعكس بالعكــس أيضاً فإذا ضعف الاقتصاد الصيني فــإن هذا سيؤثر على أسعار النفط هبوطاً، ولذلك فقد أصبحت أسعار النفط العالمية مرتبطة بالاقتصاد الصيني.

وكذلــك فإن وجود الصين القــوي في أسواق النفط العالمية لا يؤثر على سعر النفط فحسب ولكن أيضاً على هيكل الطلب، من يشتري ومن أين؟ وستعاود العلاقات القديمة الظهور فجأة من جديد.

وتقــول وكالة الطاقة الدولية في أحد التقارير الصادرة عنها: «إن الصين

تغير خريطة الطلب العالمي على النفط بسرعة كبيرة للغاية».

توابع جيوإستراتيجية

منذ سنوات قليلة بدأت تلك القوة الجديدة في الشرق الأقصى توجيه اهتمام كبير نحو منطقة الشرق الأوسط، كما أنه من الملاحظ أيضاً انحيازهم للفلسطينيين كما حدث من قبل أيام المعارك القديمة وكما يتم دعم حركات التحرر في جميع أنحاء العالم.

وأيضاً في المستقبل فإن الصين ستكون بحاجة -سواء أرادت ذلك أم لا- إلى المزيد من المشاركة في منطقة الشرق الأوسط، ويتطلب ذلك وجود دور سياسي نشط في المنطقة، وقد استجابت الحكومة الصينية بالفعل وقامت بتعيين مبعوث رسمي لها في منطقة الشرق الأوسط.

ولكن لماذا هذا الالتزام المفاجئ؟

والجواب هو: (النفط)، تقريباً كل دول الشرق الأوسط تعوم فوق أكبر احتياطي نفط في العالم.

ومنذ سنوات قليلة مضت كانت الصين تتجنب منطقة الشرق الأوسط كمصدر للنفط، حيث كانت الصين تتجنب مناطق الصراعات وتشتري أغلب وارداتها النفطية من تلك البلدان التي يبدي الغرب اهتماماً قليلاً أو معدوماً نحوها، مثل: أفريقيا (أنجولا والسودان)، وأمريكا الجنوبية (فنزويلا)، وحتى الآن مازالت أفريقيا السوداء (أنجولا) هي المورد الأول لاحتياجات الصين النفطية.

ولكن مع طلب الصين المتزايد على النفط أصبحت تبحث عن مصادر أخرى أكثر ثراءً، ثم ظهرت فجأة على الساحة منطقتان بهما الكثير من

النفـط ولكن في المقابـل تمتلئان بالعديـد من الصراعـات، وهما منطقتي الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

وفي كلتـا المنطقتين تواجه الصين قوة أخرى متعطشة للنفط.. الولايات المتحدة الأمريكية.

ويتقـدم الأمريكيون على الصينيين بفارق كبير في كونهم أكبر مستهلك للنفـط في العـالم، ولكن أوشـك الاحتياطي المحلي على النفـاد حيث أنه مـن المتوقع نضـوب منابع النفط المحليـة هناك بحلول عـام 2010 إذا ظل الأمريكيون في تبذيرهم المتزايد للطاقة.

وبحلـول ذلك الوقـت ستكون هنـاك مواجهة حتمية بـين العملاقين المتعطشـين للنفط، كما أنه من المرجح أيضـاً نشوب العديد من الخلافات بينهما قبل هذا الوقت.

ويتوقـع (جيمس كافـرلي) -مـن وزارة التجارة الأمريكيـة- أنه سوف تتضارب المصالـح قريباً بين الصين والولايات المتحـدة ولاسيما في منطقة الخليج، ومع ذلك فإن الأمريكيين يمارسون نشاطاً واسعاً في الشرق الأوسط.

كمـا تتزايـد الجهـود الأمريكيـة في منطقـة آسيا الوسطـى منذ انهيـار الاتحاد السوفيتـي لتضع أقدامهـا على الأرض هناك من خـلال حملتين عسكريتين ضد أفغانستـان والعراق، وقد نجح الأمريكيون بدكا. شديد في بسط نفوذهم في بعض جمهوريات آسيا الوسطى تحت ستار سحوه بأنفسهم وهو الحرب على الإرهاب.

وبـدأ الصينيون يسيرون علـى خطى الأمريكيـين في انحيازهم لقضايا المنطقـة، خاصـةً وأن بكين ترقب عن كثـب حقول الغـاز وأنهار النفط المتدفقـة في آسيـا الوسطـى، وقد بـدأت الصين الآن في تنفيـذ نشاطات

دبلوماسية عديدة واتخاذ مواقف قوية، وعلى سبيل المثال فقد بدأ تعاون دولي وثيق في قطاع الطاقة مع كازاخستان وأوزبكستان.

بينما يبقى موقف الصين ضعيفاً في الشرق الأوسط؛ على الرغم من التواجد الدبلوماسي لها هناك، وقد قام وزير الخارجية الصيني بجولة في سبتمبر 2004 شملت اليمن وسلطنة عمان ومصر والسعودية.

كما أفرد اهتماماً خاصاً بالدول الست أعضاء مجلس التعاون الخليجي[1] (بما فيهم السعودية أحد أهم الأعضاء)، وعقد العديد من المناقشات والاتفاقات بشأن التجارة الحرة مقابل تسهيل الحصول على حقول النفط والغاز.

وأصبحت هناك علاقة وثيقة ومتزايدة خصوصاً مع المملكة العربية السعودية؛ حيث أنها تعد الشريك الأهم في منطقة الخليج، كما أنها أصبحت في حالة شكوى زائدة من الأمريكيين وبالتالي فقد أصبح البنتاجون[2] في حالة قلق شديدة من تنامي النفوذ الصيني في بلد النفط السعودية، لذلك فقد أعد دراسة بعنوان:

«التقارب الصينوسعودي في مجال الطاقة وانعكاسات ذلك على الأمن القومي الأمريكي»

لا يحب الأمريكيون أن يرسل السعوديون أبناءهم إلى الصين كما أنهم

(1) مجلس التعاون الخليجي: هو منظمة إقليمية عربية مكونة من ست دول أعضاء تطل على الخليج العربي هي السعودية والإمارات والكويت وقطر وسلطنة عمان ومملكة البحرين، تأسس المجلس في 25 مايو 1981 بالاجتماع المنعقد في أبوظبي بالإمارات العربية المتحدة، وكان كل من الشيخ جابر الأحمد الصباح والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من أصحاب فكرة إنشائه، يتولى رئاسة الأمانة العامة للمجلس حاليا عبدالرحمن بن حمد العطية، ويتخذ المجلس من الرياض مقرا له (المترجم)

(2) البنتاجون: هو اسم مبنى مقر وزارة الدفاع الأمريكية ويقع في مدينة أرلنغتون في ولاية فيرجينيا، وباعتباره رمزا للجيش الأمريكي فإن مصطلح البنتاجون يستعمل عادة للإشارة لوزارة الدفاع نفسها عوضا عن المبنى ذاته (المترجم)

غـير راضين لتوريـد الصين الأسلحة للسعودية، حيـث أنهم قاموا بالفعل بإمدادهـم بصواريخ متوسطة المدى من نوع CSS–2 التي لها القدرة على حمـل الرؤوس النوويـة، كذلك يرسلون أفراداً مـن الجيش الصيني لعمل صيانة على تلك الصواريخ وتدريب الجنود على استخدامها.

يقـول (توماس وودرو) الخبير بالشـؤون الصينية في وكالة استخبارات الدفـاع الأمريكية: «من المؤكد أن الصينيـين حريصون للغاية على توسيع نفوذهـم في الخليج العربي، وإستراتيجيتهم هـي استخدام المملكة العربية السعودية كمفتاح لتلك المنطقة».

ويظهر الانحياز الصيني للسعودية بشكل كبير، ففي مارس 2004 ولأول مـرة منذ عام 1973 يتم منح حقـوق التنقيب عن الغاز في السعودية لشركة أجنبية غير الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات أو مجموعة (لوك أويل) الروسية، كانت لصالح شركة (سينوبك) الصينية.

كما أن هذه الشركـة المملوكة للدولة تعمل أيضاً في إيران، ولذلك فهي مصـدر إزعـاج كبير للأمريكيين، وهـم يحاولون بشتى الطـرق الحيلولة دون مشاركـة الصين في أراضي (دولة مارقة) مثل إيران، حتى إنهم قاموا بتهديد الصين إدا استمرت في ذلك، ولكن مدير سينوبك رد قائلاً: «نحن لا نهتم بتلك التحذيرات الأمريكية».

ويخشـى خـبراء الأمـن الغربيين من دخـول الصين بشـكل متزايد في تحالفات مع بعضـ دول النفط العربية التي تساند الإرهاب، ويقول أستاذ العلوم السياسية (إيبرهـارد ساندشنايدر) عبر الموقع الإليكتروني لمجلة دير شبيحل الألمانية: «قد تضطر الصين للتصالح مع بعض الأنظمة التي ليست

بالضرورة على قائمة أصدقاء الولايات المتحدة».

على سبيـل المثال إيران حيث قـد أصبح بينهما الآن نشاطـاً دبلوماسياً متعلقـاً بالنفـط، وأيضاً مع سوريا حيـث قد بدؤوا في صيـف 2004 أول مشروع مشترك للنفط.

ولكن هل هي إستراتيجية متعمدة من الصينيين للدخول في علاقات تجارية مع هذه الـدول الخارجة على القانون؟ من الصعـب إثبات ذلك. ولكن في حقيقة الأمر فإن الصينيين قد أصبحت لديهم بالفعل فرصة في منطقة الشرق الأوسط، لأن الشعـوب العربية أصبحت تكره الأمريكيين ورسالة الخلاص التـي يحملونها ووعودهم بالديمقراطية التي سرعان ما تتحول إلى قوة محتلة، والتواجد الصيني هناك بشكل عملي من شأنه جعلها البديل المناسب.

ترى أية إستراتيجية سوف تفوز: الدبلوماسية الأمريكية أم سياسة الصين الخفيـة، علـى كل حال فإن الصـراع بين الولايات المتحـدة والصين على النفط في الشرق الأوسط قد بدأ بالفعل لتوه.

الفصل التاسع

لاعب جديد

كيف أثر الصعود الصيني في السياسة العالمية؟

«إلى أي مدى يضع العالم الصين خارج حساباته وموازناته على الرغم مما هي فيه من ضخامة حجمها، يجب أن يبحث العالم عن قوى توازن جديدة تسيطر عليه في غضون 30 أو 40 سنة قادمة، ولا يمكن الادعاء بأن الصين مجرد لاعب مهم فقط على الساحة العالمية، ولكنها أهم لاعب في تاريخ البشرية».

لي كوان يو

الرئيس السابق لسنغافورة

ومع ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال هي القوة العالمية الوحيدة حتى الآن، ولكن هذا لن يستمر طويلاً فسرعان ما ستلحق الصين بالركب حيث إنها حالياً البلد الأكثر منافسة للأمريكيين، والسؤال الوحيد هو متى ستحدث هذه المواجهة الحتمية؟ الصينيون يرون أنهم مازالوا أصغر من تلك المواجهة ومازال اقتصادهم أضعف وقوتهم العسكرية أقل بكثير من الأمريكيين، لا.. لن تكون الصين قوة عالمية إذا لم ترد أن تكون، كما أن الصين ليست قوة مهيمنة على العالم، وهذا هو ما نتعلمه عبر التاريخ الصيني الطويل، وهذا هو الموقف الرسمي للحكومة الصينية.

ولكن ماذا عن الأمريكيين؟ إنهم لا يثقون في السلام ويعرفون أن ثمة منافساً قوياً لهم في الشرق الأقصى وربما لم ينصح بعد بما فيه الكفاية لملاقاتهم إلا أنهم يتطلعون نحوه بشكل وثيق.

توجد حالياً في واشطن العشرات من اللجان الرسمية التي تدرس وتحلل ذلك الصعود الصيني وتنتر العديد من التقارير الضخمة بشكل منتظم وتعقد جلسات عمل كثيرة لمناقشة موضوع (القوة الصينية الناشئة).

لكن مراقبي الصين في أمريكا منقسمون حول فكرة تحول الصين لقوة مناهضة للولايات المتحدة ويضعون العديد من الإستراتيجيات المستقبلية نحوها.

وفي خلافهم هذا يعكسون سياسة الحكومة الرسمية للبلاد، منذ اختلاف (بيل كلينتون) مع الإدارة الأمريكية في سياسة التعامل مع الصين بين (الاحتواء) و(الشراكة)، وهل الصين بلد صديق أم عدو للأمريكيين؟

والعلاقة الثنائية بين الولايات المتحدة والصين سوف تكون هي الأهم على ساحة السياسة العالمية خلال العقود المقبلة، ولكن السؤال الحاسم هو: هل سيكون هناك تعايش سلمي أم صراع عسكري؟ المتشائمون يشيرون إلى التاريخ الماضي حيث جرى الحال دائماً أنه عند كل ظهور نهضة اقتصادية كبرى لإحدى الأمم فإنه يتبعها رغبة في إظهار قوة وتفوق عسكري، يقول (صمويل هنتنجتون) أستاذ العلوم السياسية الأمريكي: «إن ظهور قوة جديدة يعمل على زعزعة الاستقرار دائماً»، وقد كان ظهور ألمانيا واليابان في النصف الأول من القرن الماضي أحد تلك النماذج السيئة لذلك.

ومن الواضح أن الصينيين يعرفون تلك المقارنات التاريخية، يقول (لي جونرو) المفكر والقيادي في الحزب الشيوعي الصيني لصحيفة بكين ريفيو: «في التاريخ الحديث تكون النهضة الناجحة لأي أمة عبر طريقين: إما من خلال التوسع العسكري، أو المواجهة غير المباشرة من خلال حرب باردة»، ولكن يؤكد (لي) أن الصين لا تسير في أي من الطريقين، فهي ليست قوة مدمرة ولكنها تسير على طريق التقدم والإصلاح.

والصين -بصرف النظر عن الصراع السابق مع تايوان- لا تتدخل عسكرياً في أي صراع ولكن مجرد تدخل دبلوماسي، فالصين الجديدة

القويـة –التـي تظهر بوضـوح شديـد– أصبحت تُرى كثـيراً على ساحة السياسـة الخارجيـة أكثر مـن ذي قبل فقد مضـت أيام متابعتهـا الصامتة للسياسة العالمية وأصبحت تُعبر بقوة عن مصالحها وزيادة نفوذها في آسيا، ولكنها مازالت أيضاً تمشي خلف التوجه الأمريكي.

السياسة الخارجية الجديدة

تقـع جزيرة (هاينـان) الاستوائية بعيداً في جنوب الصـين قبالة سواحل فيتنـام، ومنذ عـام 2001 يلتقي هناك سنوياً العديد مـن السياسيين ورجال الأعمال الآسيويين في بلدة صغيرة بها تدعى (بواو) لمناقشة الوضع الراهن ومستقبـل قارتهم، وفي نهاية أبريل عـام 2004 كانت تدور هناك نقاشات مكثفة عن قوة الصين المستقبلية0

وكانت أكثر كلمة مدوية في منتدى (بواو) هي: (النهضة السلمية) والتي قصد بها الصعود السلمي للعمـلاق الصيني، وقد استغل ذلك المتحدثون الصينيون بدءاً من رئيس الوزراء (ون جيا باو) فقد قاموا بالإفادة من تلك الصيغة.

الشعـور السياسي مـن بكين يزداد خوفاً حيث إنـه يُنظر نحو الاقتصاد الصينـي المتنامي على أنه يمثل تهديـداً، لذلك فإن الصين دائماً ما تنفي أي نية للتوسع وتعلـن كثيراً أنها أمة مسالمة تسعى لتولي المسؤولية في المجتمع الدولي.

(إيفـان ميديروسـ) و(تايلور فرافيـل) الخبيران الأمريكيـان في العلوم السياسية يقولان في دراستهما التي نشرت تحت عنوان (دبلوماسية الصين

الجديدة): «إن الصين تعمل الآن في إطار النظام الدولي» حيث قد تغيرت سياسة الصين الخارجية في العمل فأصبح يوجد الآن نشاط كبير وسباق متلاحق، ويؤكد ميديروس وفرافيل أن هذا سوف يعني التغيرات الأكثر دراماتيكية في العلاقات الدولية.

إعادة تنشيط سياسة الصين الخارجية جاءت نتيجة إعادة فهم للسياسة الخارجية حيث إن الصين تعمل منذ بضع سنوات على مفهوم التعددية القطبية في فترة الحرب الباردة[1] حيث كانت هناك قوتان تهيمنان على السياسة العالمية وهما الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، لذلك فقد كان التوجه الفكري في السياسة الخارجية للصين نحو عالم متعدد الأقطاب ذي مراكز سلطة متنوعة. وهذه المراكز جميعها ذات قوة متساوية وتعمل سوياً على أساس المساواة والاحترام المتبادل، وتعد الصين واحدة من مراكز القوة تلك وإلى جوارها بالطبع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا واليابان، ويتعلق أيضاً مفهوم التعددية القطبية ببعض البلدان الأخرى، مثل روسيا وفرنسا وبشكل جزئي ألمانيا، وقد كتب (جوستاف كيمبف) في كتابه (السياسة الخارجية للصين): «إن أياً من الحكومات لم تعمل باستمرار على تحقيق هذا المفهوم غير الحكومة الصينية».

ونتيجة لذلك فإن الصين تحاول بناء روابط وعلاقات مع جميع مراكز

(1) الحرب الباردة: هي مصطلح يستخدم لوصف حالة الصراع والتوتر والتنافس التي كانت توجد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحلفائهم في الفترة من منتصف الأربعينات حتى أوائل التسعينات. خلال هذه الفترة، ظهرت الندية بين القوتين العظميين من خلال التحالفات العسكرية والدعاية وتطوير الأسلحة والتقدم الصناعي وتطوير التكنولوجيا والتسابق الفضائي. لقد اشتركت القوتان في إنفاق كبير على الدفاع العسكري والترسانات النووية وحروب غير مباشرة. (المترجم)

القوة في العالم وقد سمتها بكين بـ(الشراكات الإستراتيجية).

وقد تمت بالفعل هذه الشراكات مع روسيا وفرنسا عام 1997 والولايات المتحدة عام 1998 بينما فشلت في التوقيع مع اليابان بسبب العداوات القديمة (انظر الفصل الحادي عشر).

وتظهر الحكومة الصينية بقوة في هذا العالم المتعدد الأقطاب، ولكن هل واقع الأمر يختلف عن ذلك؟

العلاقات المتوترة مع الولايات المتحدة

وصف السفير الأمريكي لدى الصين (كلارك رانديت) العلاقة بين البلدين بأنها: «أهم علاقة ثنائية في العالم» لأن كلاهما -القوة العلمية الوحيدة الآن الولايات المتحدة والقوة العالمية القادمة الصين- سيتعاملان سوياً في المستقبل مع بعضهما البعض وسوف يؤثر ذلك بشكل أساسي على السياسة العالمية وبالتالي على السلام العالمي، ولكن علاقة الصينيين مع الولايات المتحدة متناقضة حيث تختلط المعارضة مع الإعجاب بالولايات المتحدة، فهم من جهة ينتقدون القوة الأمريكية العظمى ودور الولايات المتحدة في السياسة العالمية ومن جهة أخرى معجبون بكل الإنجازات العديدة التي يتمتع بها الكثير من الأمريكيين من السياسة التكنولوجية حتى الوضع العالمي ومن مايكروسوفت حتى ماكدونالدز.

كذلك الولايات المتحدة قد اتخذت طريقاً متعرجاً في سياستها تجاه الصين وقد تحدث بيل كلينتون عند انتقاله إلى البيت الأبيض عن سياسة (الاحتواء)، أي: احتواء الصين، لكن سرعان ما تحقق لكلينتون أن تلك

كانت إستراتيجية خاطئة ثم أطلق وصفاً جديداً على العلاقة مع الصين هو: (المشاركة الشاملة)، ثم استقبل (جيانغ تسه مين) الرئيس الأمريكي كلينتون عام 1998 لتوطيد روابط (الشراكة الإستراتيجية).

ثم جاء بعد كلينتون إلى السلطة الجمهوري جورج دبليو بوش الذي اتخذ في بداية حكمه -مثل الكثير من رؤساء الولايات المتحدة- موقفاً متشدداً من الصين، وكانت الصين بالنسبة له و لفريقه من المحافظين الجدد ولكوندوليزا رايس منافساً مرة أخرى.

ثم جاء بعد ذلك 11 سبتمبر وغيّر هذا التاريخ الوضع السياسي العالمي بين عشية وضحاها، فقد احتاج بوش إلى حلفاء في حملته ضد الإرهاب ويمكن للصين أن تمثل جبهة قوية مناهضة للارهاب حيث إن بعض البلاد تعاني من مشاكل مع الإرهابيين، ففي أقصى الغرب الصيني يسعى الإيجور-أقلية إسلامية- إلى الاستقلال وذلك من خلال هجمات مختلفة من وقت لآخر بالقنابل، ويشارك الصينيون الأمريكيين في مكافحة الإرهاب حيث يمكنهم سوياً حصار الإيجور كما يحدث أيضاً مع المتمردين التبتيين دون توقع أي ضجة من الأمريكيين حيث إنهم في كفاح مشترك ضد الإرهاب.[1]

(1) الإيجور: هي احدى الأقليات الاسلامية وموطنهم الأصلي هو اقليم تركستان الشرقية الغني بالبترول والذي يقع شمال غربي الصين والذي حصل على الاستقلال الذاتي صوريًا عام 1955م ويبلغ عدد سكان (الإيجور) نحو 25 مليون نسمة، والايجور يتكلمون لغة محلية تركمانية ويكتبونها بالحروف العربية ولهم ملامح القوقازيين، وكانوا يشكلون 90 % من سكان المنطقة، لكن هجرة الأغلبية الصينية الشيوعية (هان) همشت هذه الأقلية المسلمة. وبالرغم من الهجمة القمعية التي تفرضها حكومة بكين على مسلمي الايجور إلا انه كان لهجمات الحادي عشر من سبتمبر تأثير كبير على معاملة مسلمي الإيجور وازدادت هذه الهجمة حدة بعد ارتفاع نغمة (الحرب على الإرهاب)؛ حيث استغلت الصين هذا الحدث ذريعة لتعريض المسلمين الناشطين في المجالات الدينية السلمية هناك للاعتقال والتعذيب والإعدام احيانا (المترجم)

ولذلك فقد أصبحت أمريكا والصين فجأة أصدقاء -أو بشكل أفضل- فهم حالياً (شركاء في الدبلوماسية) بحسب تعبير بوش عند زيارة (ون جيا باو) إلى الولايات المتحدة في ديسمبر 2003.

وفي أثناء أربع سنوات تحول الوضع من المنافسة إلى المشاركة، مثل كلينتون فقد وقع بوش أيضاً في نفس سياسته تجاه الصين، لذا فإن كل رئيس أمريكي -سواء كان ديمقراطياً أو جمهورياً- يكون من الصعب عليه فعل شيء قبل أن يتفق مع هذا البلد الشاسع في أقصى الشرق.

وقد كان الصراع واضحاً في انتخابات الرئاسة الأمريكية في خريف 2004 فقد ألقى المرشح الديمقراطي جون كيري خطاب شجب قوي ضد الصين عندما وصف سياسة بوش تجاه الصين بالساذجة: «إنني سوف أتصدى بكل قوة ضد الممارسات التجارية غير العادلة في بكين»، بينما ظل بوش الجمهوري هادئاً ومتجنباً لأي خطاب مناهض للصين.

وتنقسم سياسة النخبة الفكرية الأمريكية بشأن العلاقة مع الصين حيث تجري العديد من النقاشات حول كيفية التعامل هل باستخدام سياسة (الاحتواء) والتكامل أم الصراع والمواجهة؟

هل أنت عدوٌ أم..

يوجد العديد من المتشددين الأمريكيين الذين يطلق عليهم المبشرون الصينيون وهم موجودون في كافة المستويات في الإدارة ومراكز البحوث ووسائل الإعلام والجامعات، والصين تشكل تهديداً بالنسبة لهم، وقد قال الدبلوماسي المخضرم هنري كيسنجر: «مما يؤسف له أنه كان للصين

دور كبير في انهيار الاتحاد السوفيتي».

ويقــول أحد المعلقين في صحيفة الشعب الصينية اليومية (بيوبلز ديلي): «لم تختــف فكرة الحرب الباردة مــن عقول صناع القرار في أمريكا، إنهم دائماً يحتاجون إلى أعداء وقد اختاروا الصين بأنفسهم لتكون كذلك».

فكر (ريتشــارد بيرنشتاين) و(روس إتش هـنرو) في هذه الفئة (العدو/ الصديق) وتنبؤوا بذلك عام 1997 في كتابهم (الحرب القادمة مع الصين)؛ حيــث ستكون الولايات المتحدة والصين هم الخصوم في هذه المعركة وقد كانــت أطروحتهم الأولية أن يشتد التنافس بين البلدين ثم ينشأ عنه صراع عالمــي هائل في العقود الأولى مــن القرن الحادي والعشرين؛ لذا فهم يرون أن الصــين سوف تعمــل على رفع مستــوى قوتها العسكريــة أكثر وأكثر وسوف يؤدي ذلك حتماً إلى مواجهة عسكرية، وقد بُني استنتاجهم على أنه سوف يشتعل الصراع في قطاعين اثنين تايوان وبحر الصين الجنوبي لذا فإنــه يجب على الولايات المتحدة منع أي وجــود عسكري قوي في آسيا حتى لا تصبح الصين قوة مهيمنة على المنطقة.

واليوم تنشــر دراسة مماثلة لـ(جون ميرشايمر) الأستاذ في جامعة شيكاغو و(جــون تكاسيك) خبير الصينيات بمركــز الدراسات الآسيوية؛ وتفترض دراستهمــا أن تحول القــوة الاقتصادية الصينية إلى قــوة سياسية وعسكرية حيث يعتــبر ميرشايمر الصين كـ(أقــوى وأخطر قوة مهيمنــة سوف ينبغي علــى الولايات المتحدة مواجهتها أكثر من أي وقت مضى)، فإذا واصلت الصــين النمو الاقتصادي القوي فإنها (ســوف تحرص على الاستفادة من ثروتهــا لبناء آلة عسكرية قوية) وهذا قد استخدمته كوريا واليابان من قبل

وفي نهاية المطاف فإنها تسعى للسيطرة على منطقة آسيا برمتها.

وتتداول هذه الأفكار كثيراً في الدوائر السياسية الخاصة بالمحافظين الجدد. وقد قال بوش لوزيرة الخارجية كوندوليزا رايس -قبل 11 سبتمبر-: «إن الصين تشكل تهديداً أساسياً للاستقرار في منطقة آسيا والمحيط الهادئ».

ولذلك فإن الصين تعتبر منافساً إستراتيجياً وفي السابق كان عليه أن يقول: (عدواً).

.. صديق؟

(باندا هوجر) تطلق على أصدقاء الصين في الولايات المتحدة بمعنى: (الباندا المخادعة)، وهذا يشمل جميع المديرين الأمريكيين الذين يعدون الصين سوقاً مهماً ويحاولون تعضيد الروابط والعلاقات بين البلدين عن طريق الأعمال التجارية المشتركة، وهذا يشمل أيضاً بعض العلماء والسياسيين.

وكان (كولن باول) وزير خارجية بوش السابق يرى أنه ليس بالضرورة أن يكون الصينيون أصدقاء ولكن هم كذلك على الأقل بالنسبة للمتفائلين في المعسكر الأمريكي، وقد أعرب عن اعتقاده -بعكس وزيرة الخارجية الجديدة كوندوليزا رايس- أنه ليس من الضروري أن تؤدي نهضة الصين إلى مواجهة حتمية، ويشير (باول) أيضاً إلى أن العلاقة مع الصين أصبحت جيدة أكثر منذ زيارة نيكسون الأولى، واستغرق الأمر أكثر من 30 عاماً منذ الاحتفال بالسنة الصينية الجديدة عام 1972 فإنه يبقى الآن أن نرى كيف

ستتطور الأمور في ظل الإدارة الأمريكية الجديدة.

وفكـرة ممثلـو مشاركة الصـين الأساسيـة أن الصين لا تشـكل أي قوة عدوانية حتى الآن، ومع ذلك فإنه من الممكن أن ينشأ العدوان إذا شعرت الصين أن الغرب قد أعلن العدوان عليها، ولمنع هذا كما يقولون فإنه ينبغي إلزام الصين بشراكة ثنائية ومتعددة الأطراف.

وبهذه الروح أصبحت هناك العديد من الاتصالات بين الإدارة الأمريكية والصينية، والعديد من اجتماعات اللجان المشتركة، كما أن هناك زيارات وزاريـة منتظمة، ومناقشـات أفكار كثيرة تتم بين رجـال الأعمال وكبار المسؤولـين والعسكريين في كلا البلدين، ولذلك فـإن الأدميرال (توماس فارجـو) قائد الأسطـول الأمريكـي بالمحيط الهادئ يتحقـق بانتظام من القادة العسكريين والسياسيين في بكين.

ووفقـاً للمتفائلين بوجود تلك العلاقة فـإن الصين قد ساهمت كثيراً في التخفيـف عن الأمريكيين بعـد أحداث الحادي عشر مـن سبتمبر، وعلى الأمريكيـين والصينيين الكفـاح المشـترك -وإن كان بدرجات متفاوتة- على الجانب نفسه ضد عدو مشترك وهو: الإرهاب، وتقدر أمريكا سلوك الصين الجيد في هذا الشأن.

وأنصـار التكامـل يرون أنـه يبغي دمـج الصين في منظمـات متعددة الأطراف لذا فإنه يجب حصول الصين على عضوية منظمة التجارة العالمية ومـن الضروري للغاية أيضاً دمج الصين في الاقتصاد الرسمي العالمي حتى يكون التمسك بقواعده أمراً ملزماً لها.

(بانـج جاريت) مدير البرنامج الآسيوي في مجلس الأطلسي بالولايات

المتحدة يقول: «إن المصانع الأمريكية تخدم بصورة أفضل عندما تصير الصين عضواً متكاملاً في المؤسسات الدولية السياسية والاقتصادية والأمنية ويتم تشجيعها للحفاظ على الممارسات المقبولة دولياً». ولكن لماذا الصين ليست عضواً في الـG8 (مجموعة الثمانية)؟[1]

الصين تلعب قريباً مع الكبار

يلتقي في كل عام القادة لأهم سبع دول صناعية في العالم ويطبق على هذا المشهد G7 منذ المرة الأولى لانعقاده في مدينة (رامبويه) الفرنسية عام 1975 وقد تحول مساره من الاشتراكية إلى الرأسمالية عام 1998 وأصبحت روسيا تشارك بصفتها مراقباً جانبياً لذلك فإنه يطلق عليه أيضاً G8.

ولكن هذا النادي النخبوي لا يعكس في الحقيقة القوة الفعلية للاقتصاد العالمي، لأنك تجد أنه يعقد جلسات مع إيطاليا وكندا كدولتين صناعيتين بينما تم نسيان وضع الصين على خريطة الاقتصاد العالمي، هذا بالإضافة إلى أن الكثيرين يعتقدون أن الصين قد أصبحت أكثر اندماجاً في الاقتصاد العالمي خاصة بعد انضمامها إلى منظمة التجارة العالمية.

وقد أصبح العديد من المراقبين يطرحون هذا السؤال بإلحاح شديد:

---

(1) مجموعة الثمانية تضم الدول الصناعية الكبرى في العالم أعضاؤها هم أمريكا، واليابان، وألمانيا، وروسيا، وإيطاليا، وبريطانيا، وفرنسا، وكندا يمثل مجموع اقتصاد هذه الدول الثمانية 65 % من اقتصاد العالم وأغلب القوة العسكرية (تحتل 7 من 8 مراكز الأكثر إنفاقاً على التسلح وتقريباً كل الأسلحة النووية عالمياً) أنشطة المجموعة تتضمن مؤتمرات على مدار السنة ومراكز بحث سياسة تخرجاتها تجتمع في القمة السنوية التي يحضرها زعماء الدول الأعضاء أيضاً، يتم تمثيل الاتحاد الأوروبي في هذه القمم كل سنة، الدول الأعضاء في مجموعة الثمانية تتناوب على رئاسة المجموعة تضع الدولة الحائزة على الرئاسة الأجندة السنوية للمجموعة وتستضيف القمة لتلك السنة (المترجم)

حتى متى سيظل نادي هؤلاء الذين قد نصبوا أنفسهم عظماء يتجاهل ضم الصين والهند إليه؟ يقول البروفيسير (كارل كايزر) -الخبير في السياسة الخارجية الألمانية-: «أصبح من غير الممكن الآن أن تحل أية قضية في السياسة العالمية بدون مساعدة الصين».

تمتنع الدول المؤسسة السبع عن ضم عضو جديد لهذا النادي الحصري وخاصة الصين لأنهم يختارون بناء على معايير اقتصادية وديمقراطية، وفي الواقع أن الصين لديها بطاقة سيئة للعبور إلى هذا النادي، فهل هناك سوق اقتصادي جيد في الصين؟ نعم، وهل هناك ديمقراطية في الصين؟ قطعاً لا.

ولكن بمجرد أن تغفو عينيك لحظات قليلة فإن تغيرات كبرى تحدث على أرض الواقع. لقد حدث تفاوت كبير في أوزان الاقتصاد العالمي، وقد أصبحت الصين لاعباً خطيراً ومحركاً للاقتصاد العالمي ربما أكثر مما كانت ألمانيا أو اليابان منذ سنوات قليلة مضت.

وقد أصبح لدى بكين تأثير خطير على الأسواق المالية العالمية فقبل بضع سنوات قام البنك المركزي الصيني بخفض أسعار الفائدة لذلك فإن أي شخص من المهتمين بالأمر خارج الصين ينظر الآن فإنه سيرى الأمور مختلفة تماماً فثمة تغيرات كبيرة قد حدثت في السياسة النقدية الخارجية للصين.

فعلى سبيل المثال في ربيع 2004 قد اتخذت حكومة بكين الاحتياطات والتدابير اللازمة التي تحميها من أحداث انهيار كبرى الأسواق المالية العالمية لدرجة أن البعض اعتقد بحدوث كارثة في الاقتصاد الصيني، ولكن استطاع الصينيون منع ذلك، وعلاوة على ذلك أيضاً فإن لديهم أعلى معدل احتياطي نقد أجنبي في العالم 400 مليار دولار وهذا بالطبع له

تأثير كبير على أسواق العملات الدولية.

(فريد بيرجستين) مدير معهد الاقتصاد الدولي في واشنطن يطالب الصين بتحمل المسؤولية لكي تصبح قوة جديدة ورائدة للاقتصاد العالمي قائلاً: «إن الصين قاطرة جديدة تنمو لتلعب دوراً محورياً في المستقبل».

ويبدو أن عدداً قليلاً من الرجال في نطاق الـ(G8) أصبح يدرك الآن أن الصين قد صارت بالفعل قوة اقتصادية ينبغي ضمها بدلاً من عزلها.

وفي مؤتمر القمة الذي جرى في منتصف يونيو 2004 على البحر الأمريكي طرحت أيسلندا هذا الموضوع للنقاش وقد وافق رؤساء حكومة كل من بريطانيا وألمانيا وإيطاليا على قبول الصين ضمن نطاق مجموعة الـ(G8).

وفي الاجتماع الذي عقد بـ(جيلن إيجلز) الأسكتلندية في يوليو 2005 كان يجلس رئيس الوزراء الصيني (هو جين تاو) جنباً إلى جنب بجوار نظرائه من الهند والبرازيل وأحياناً على طاولة المفاوضات.

هل ستلعب الصين بالورقة الأوروبية

عندما تتحدث إلى بعض الدبلوماسيين الأوروبيين في بكين فإنه يمكنك سماع تقييم بالإجماع أنه لا توجد أي مشاكل في العلاقة بينهم وبين الصين، وحتى إن كانت غير ذلك، وأيضاً عند الحديث مع أشخاص ممثلين عن وزارات الخارجية فإنك سوف تسمع الشيء نفسه حيث لا تكاد توجد أية مشاكل خطيرة بين الصين ودول الاتحاد الأوروبي عدا واحدة فقط وهي: قضية حظر الأسلحة الذي فرض في عام 1989 بعد مذبحة

ساحة تيانانيمين، ولكن هذه ليست مشكلة خاصة بالصين وحدها فمعها في ذلك بريطانيا وبعض الدول الصغيرة الأخرى مثل: الدنمارك، والسويد، وهولندا، بينما قد طبقت ألمانيا وفرنسا قرار الحظر ولكن هذه المشكلة سوف تحل بمرور الوقت بين بروكسل وبكين.

والعلاقات بين الصين والاتحاد الأوروبي أفضل بكثير من تلك التي بينها وبين الولايات المتحدة، حيث إن الأوروبيين في قضايا حقوق الإنسان والمتمردين التبتيين ليسوا متشددين مثل الأمريكيين، فلا يتحدث الساسة الأوروبيون مع قيادة بكين في هذه القضايا الحرجة في اجتماعات مفتوحة وإنما تتم مناقشاتها في غرف دبلوماسية هادئة، فهم لا يستخدمون مع الصين سياسة التقريع كما يفعل الأمريكيون.

وقد دعم الأوروبيون تخفيض قيمة اليوان بسبب عدم حبهم للأمريكيين الذين يتهمون الصادرات الصينية بإغراق الأسواق ودعوا إلى سعر صرف ثابت بين اليوان والدولار.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا توجد منافسة بين القوى العظمى في حالة أوروبا والصين وذلك لأن بكين تنظر إلى الاتحاد الأوروبي بوصفه نمراً من ورق (نمرٌ بلا أنياب) بحسب تعبير تلك الدعاية القديمة (البروباجندا) التي كانت مستخدمة فترة حكم الزعيم ماو، ويقول (توماس هيبرير) الأستاذ بجامعة دويسبورج - إيسن: «إن الصين تنظر إلى الولايات المتحدة باعتبارها أكثر أهمية من الاتحاد الأوروبي».

والاتحاد الأوروبي يأتي بعد الصين في قوته الاقتصادية ولكنه ضعيف سياسياً، حيث إن سياسته تقتصر فقط داخل الحدود الأوروبية.

وعلى العكس فإنهم في الاتحاد الأوروبي -وخلافاً للولايات المتحدة- يرون أن طموحات الصين لتصبح قوة عالمية عظمى وليس فقط مجرد المشاركة الإستراتيجية لا يشكل خطراً أو تهديداً، ويقول مفوض الاتحاد الأوروبي السابق (كريس باتن): «أوروبا تنظر إلى الصين (...) كصديق إستراتيجي».

وبالرغم من أن العلاقة بين الصين والاتحاد الأوروبي قوية جداً إلا أنها قليلة على مستوى الاقتصاد، ومن الناحية الاقتصادية فإن الصين تأخذ علاقتها مع الاتحاد الأوروبي على محمل الجد لأن الاتحاد الأوروبي الموسع يضم الآن 25 دولة وتعتبر الصين الآن أكبر شريك تجاري فيه، كما أن هناك العديد من الصفقات المربحة التي تتم بين الصينيين وشركات أوروبية عملاقة مثل: ICE الألمانية و TGV الفرنسية.

وبالتالي فإن لدى بكين فرصة جيدة في التعايش مع أوروبا المنقسمة على نفسها بالرغم من وجود العديد من المدافعين عن فكرة التكامل الأوروبي، لذلك فإن (ون جيا باو) يقول: «تزداد قوة الاتحاد الأوروبي سياسياً واقتصادياً حتى يصبح قطباً مهماً في العالم»، ولكنه سيكون أيضاً واحداً من بين أربعة أو خمسة أقطاب أخرى.

وقد كان رد الفعل الصيني محاولة توثيق العلاقات السياسية مع الاتحاد الأوروبي، لذا فإنه قبل الحرب على العراق بوقت قصير علق بعض الدبلوماسيين الألمان والفرنسيين آمالهم على تكوين جبهة (مناهضة لأمريكا) يمتد محورها من باريس وبرلين وموسكو حتى بكين.

ولا يريد الصينيون اتخاذ اتجاه محدد في السياسة العالمية لأنهم يرون أنه

من الأفضل لهم ترك الباب مفتوحاً في عالم متعدد الأقطاب لتكون أمامهم العديد من الخيارات حيث سـوف تبدأ تحالفات عديدة بين الدول الناشئة في معاودة الظهور من جديد.

تحالفات جديدة بين الجنوب و الجنوب

في مايـو 2004 توجه رئيـس البرازيل لولا[1] بزيـارة إلى بكين وشنغهاي وكان خلفـه: ثمانية وزراء، و ستة حـكام ولايات، و450 مديراً، وأقيمت العديد من حفلات الاستقبال ووجبات العمل، وقد تم توقيع ما لا يقل عن 15 اتفاقيـة –معظمها اتفاقيات تعـاون اقتصادي– في أثناء زيارته، أيضاً تم الإعلان عـن إنشاء لجنة تشاور مشتركة على أعلى مستوى بدأت في عقد اجتماعات منتظمة منذ وقت إنشائها.

إن التقـارب بين اثنين مـن الكيانـات الاقتصادية الناشئـة مثل البرازيل والصـين يمثل نقطة تحول هامـة في السياسة العالمية، ويشـكل هذا الثنائي الجديـد في نصـف الكرة الجنوبـي نوعاً جديـداً من التحالفـات متعددة الأطراف ولكنها مازالت غير ثابتة لأنها تبحث عن العديد من الشراكات، لكـن هذا الاتجاه يبدو واضحاً حيث تميل تلـك القوى العظمى التي تنمو في الجنوب إلى المزيد من التعاون المتبادل، (روبنز ريكو بيرو) الأمين العام لمؤتمر الأونكتاد يتحدث عن: (جغرافيا جديدة في التجارة العالمية).

ويوحـد هناك العديد مـن المجموعات من دول العـالم الثالث تعاني من

(1) لولا لويس ايناسيو لولا دا سيلفا (المترجم)

صراعات بـين الشمال والجنـوب، ونذكر حركـة عدم الانحيـاز[1] التي تأسســت في بانـدونغ الإندونيسية عـام 1955 أو (مجموعة الـ 77)[2] التي تتكـون مـن دول نامية حاولت عبثـاً تنظيم عدد من مؤتمـرات القمة بين الشمال والجنوب أو مؤتمرات تجارة دولية، وكثيراً ما تكون هذه التجمعات المتعددة الأطـراف منحازة أيديولوجياً ولكنها تكـون غير متجانسة تماماً حيث تقف عاجزة أمام البلدان المتقدمة.

لكن تلك التحالفات الجديدة الناشئة والتي ظهرت في الجنوب من نوع مختلـف تماماً حيث تستند إلى التوعية بهذه القوة الناشئة، وقد شهدت هذه البلدان الصناعية مؤتمـراً لأول مرة لمحادثات تتعلق بوضع التجارة العالمية في سبتمبر 2003 في منتجـع (كانكون) المكسيكي والذي انتهى باتفاقات جديـدة بشأن المزيد من الانفتاح التجاري، ولكن هذا لم يحدث أبداً وقد أعادت هذه الدول الصناعية هـذه المرة توثيق تحالفاتها بشكل جديد وقد أطلـق على هذا التحالف الجديد بين الجنـوب والجنوب G20[3] –القوى الصاعـدة بقيـادة البرازيـل والهند والصـين– وتمت متابعـة أعمال مؤتمر (كانكون) بمؤتمر آخر في ديسمبر 2005 انعقد في هونغ كونغ.

---

(1) حركـة عـدم الانحياز واحدة من نتائج الحرب العالمية الثانية ونتيجة مباشرة أكثر، للحرب الباردة، وكان هدف الحركة هو الابتعاد عن سياسات الحرب الباردة. تأسست من 29 دولة، وهي الدول التي حضرت مؤتمر باندونغ 1955 على يد الزعيم المصري جمال عبدالناصر ورئيس الوزراء الهندي نهرو والرئيس اليوغوسلافي تيتو (المترجم)

(2) مجموعة الـ 77 هي تحالف مجموعة من الدول النامية ويهدف إلى ترقية المصالح الاقتصادية لأعضائها مجتمعة، بالإضافة الى خلق قدرة تفاوضيـة مشتركة ضمن نطاق الأمم المتحدة. كانت نواة تأسيس المجموعـة في الأصل تتكون من 77 عضواً مؤسساً ولكن المجموعة توسعت لتضم حالياً 130 دولة. تأسست المجموعة في 15 يونيو، 1964 (المترجم)

(3) مجموعة العشرين هو منتدى تأسس سنة 1999 بسبب الأزمات المالية في التسعينات. يمثل هذا المنتدى ثلثي التجارة في العالم وحوالي 90 % من الناتج العالمي الخام (المترجم)

ومــن اللافت للاهتمام قوة التواصل الجيد بــين الصين وأمريكا الجنوبية حيــث قام الرئيس (جيانغ تسه مــين) في أبريل 2001 بالعديد من الرحلات التــي تهدف إلى المتابعة وتعزيز تلك العلاقات زار فيها: شيلي، والبرازيل، والأرجنتــين، وفنزويلا، وقد أعقبــت زيارة الرئيــس البرازيلي إلى الصين ببضعة أسابيع زيــارة الرئيس الأرجنتيني (نيستور كرشنر) أيضاً في صحبة وفد كبير.

ولا يقتصــر الأمر فقــط على زيارات متبادلة بــين السياسيين ولكن أيضاً فإن الشركات هناك تتقارب فقامت شركات المواد الخام في الصين وشيلي بتشكيــل إستراتيجية شراكــة وتعاون بينهــم، كما افتتحــت شركة الطاقة البرازيليــة (بتروباس) مكتباً لها في بكين حيــث إن (بتروباس) ترغب في التنقيب عن اكتشافات جديدة للنفط والغاز بجوار شركات النفط الصينية قبالــة ساحل الصــين والبرازيل حيث بدأت (بتروباس) إجراء اكتشافات جديدة بالتعاون مــع شركات نفط صينية للتنقيب عن النفط وحقول الغاز قبالة ساحل الصين والبرازيل.

ويبــدو واضحاً الاهتمام الصينــي بتلك الدول حيــث إن لديهم الكثير مــن المواد الخــام التي تكون الصــين في أمس الحاجة إليهــم حيث تتنافس العديــد من الشركات والدول للحصول على تلــك المواد الخام التي تتمتع بهــا الأرجنتين والبرازيل وشيلي وفي الوقت نفســه تريدها القوة العظمى أمريــكا -التــي لا تــزال مهيمنة هنــاك ولكن قلــت شعبيتهــا في أمريكا اللاتينية- وتعتمد عليها في العديد من صناعتها.

و(لــولا) مثل (كرشنر) يسعون جميعاً من أجل تلك التحالفات الجديدة

التــي تتجاوز الإطــار الثنائي وتمتد لتشمــل بلداناً كـبرى كالهند وروسيا وجنوب أفريقيا حتى الصين، عندمـا تم التحالف الثلاثي G3 بين البرازيل والهنـد وجنوب أفريقيـا قال لولا: «نحلـم أن يصير تحالفـاً خماسياً G5 بانضمام روسيا والصين في المستقبل القريـب».

والتحالفـات الجديدة تعتبر اقتصاديـة في المقام الأول ولكـن أيضاً فإن جـزءاً منها سياسي ولكـن في الناحية العسكرية فـإن الصين تظل بمفردها وهي تريد أن تبقى كذلك أيضاً.

تراكمات عسكرية

كانـت حـرب الخليـج الأولى في عـام 1991 صدمة شديـدة للعسكرية الصينيـة وقد شاهدوا كيف تقود القـوات الأمريكية الحروب الحديثة عبر أجهـزة التلفزيون وعلى الهواء مباشرة ولأول مـرة لم تعد حرب يحسمها الرجال ولكن الماكينات.

وقـد أظهرت تلـك الحـرب التكنولوجيـة الأولى مدى تأخـر الجيش الصينـي الجـرار في تسليحه وترسانته وإستراتيجيـة إدارته للمعارك حيث إنهـم مازالوا يعتقـدون بفكرة الحـرب الشعبية ولكـن في تلك الحروب التكنولوجيـة تعد كثرة عدد الجنود مجرد وقود لمدافع العدو الذي يستخدم تكنولوجيا متفوقة.

وقـد نتج عن ذلك أن أعـادت بكين النظـر في إستراتيجيتها العسكرية مـرة أخرى فقد رأوا أن إمكانيتهم العسكرية قـد أصبحت محدودة للغاية في ظل ظروف الحروب التكنولوجية الحالية وهذا يتطلب تحديثات شاملة

في ترسانة الأسلحة العتيقــة لديهم وإصلاح عميق لجيش التحرير الشعبي الصيني (VBA).

ولم تعـد ضخامة حجــم الجيش في ظل الظروف الجديـدة أمراً ضرورياً ولذلــك فقد تم خفض عدد الجنود على مدى السنــوات الماضية من ثلاثة ملايـين إلى حــوالي 2,5 مليون واتضح زيـادة الحاجة إلى القــوات الجوية والبحرية وفي الوقت نفسه تم تخفيض الخدمة العسكرية من ثلاث سنوات إلى سنتين.

وتواجــه الصــين صعوبات عديـدة في تحديــث ترسانتها فعلــى الرغم مــن تحسين صناعة الإنتــاج الحربي الصيني في السنــوات الأخيرة بشكل ملحــوظ إلا أنها مازالت متخلفة كثيراً عن الغـرب في النواحي التقنية لذا فإنه يلزمه شراء الأسلحة الضرورية ذات التقنية العالية من الغرب ولكن من أيــن؟ فالأمريكان لا يرغبون بذلك والأوروبيون لا يسمحون به حيث إن الحظر على الأسلحــة الذي ذكرناه سابقاً يشمــل الصين وبعض العواصم الأوروبية الأخرى التي مازالت تنتظر قرار بروكسل.

أنهــم يحتاجون ويريدون شراء الأسلحة والمعدات من الشركات المصنعة في أوروبــا مثل BAE وتاليس وSAAB وEADS وجميعها تأمل في إنهاء فترة الحظر تلك لتتمكن من إبرام العديد من الصفقات المربحة.

أســواق أخرى لتلبية احتياجاتهم الدفاعية وقــد أبدى بلدان موافقتهما علــى تقديم احتياجات الصين الدفاعية وهمــا روسيا وإسرائيل فإن حوالي 80٪ من واردات الأسلحة إلى الصين تأتي مباشرة من مصانع تسليح روسية قد ارتبطت الصين بمجموعة كاملة من الأسلحة الروسية مثل طائرات مقاتلة

حديثة من نـوع su–27 و su–30 وطائرات استطلاع عسكري وأنظمة رادار وغواصـات من فئة KILO ومدمرات مـن فئة (سوفريميني) كذلك صواريخ سام، بينمـا زودتها إسرائيل بشكل رئيسـي بتكنولوجيا الحرب الإلكترونية والاتصالات.

ولكن مازالت القوات البحرية في الجيش الصيني تعاني من حالة ضعف كبـير وهذا له أسباب تاريخية فقد كانت الصين على مدار القرون الماضية قوة برية فقط وليست قوة بحرية، اليوم الصين بحاجة إلى العديد من القطع البحرية مثل حاملات الطائرات التي بدونها لم تصبح قوة عسكرية صخمة فـإذا أرادت الصين أن تصبح قوة عالمية فإنـه يلزمها تدعيم قواتها البحرية ويجـب عليهـا اقتناء بعض حامـلات الطائرات حتى تتمكـن من اقتحام محيطات العالم بكل سهولة.

ولكن.بما أنه لن يعطي أي أحد للصين حاملات طائرات فإنه سيستوجب علـى الصينيين بناءهـا بأنفسهم، ولكن بناء سفينة عملاقـة من هذا النوع أمـر معقد للغاية حيـث إنها تحتوي علـى تفاصيل فنية عاليـة من أحدث التكنولوجيات العسكرية.

وفي التسعينيـات قامت الصين بشراء بعض حامـلات الطائرات التالفة والتي خرجت من الخدمة من أستراليا وأوكرانيا وروسيا، وقد قام الصينيون بفك تلك الحاملات في مدن (ملبورن) و(منسك) و(كييف) لمعرفة كيفية بنـاء حاملات طائرات وقد فعلوا هذا عـام 1999 وقد تمت تلك العمليات الخاصـة بسرية شديدة تحت اسم (مشـروع 9935) وتم بناء حاملة طائرات صينية في أحـد أحواض بناء السفن العملاقة في شنغهاي تحت هذا الكود

السري وتستوعب تلك الحاملة من 30 إلى 40 مقاتلة.

وكل هـذا –سواء الشراء أو البناء– يكلف أموالاً طائلة ووفقاً لذلك فقد تقررت زيـادة ميزانية الدفـاع الصينية في السنوات الأخـيرة بمعدل 13٪ وتبلـغ الميزانية الرسمية المعلنة حوالي 20 مليار دولار وهذا الرقم أقل بكثير من الحقيقة كما يقول الخـبراء، حيث يقول الخبيران الأمريكيان (هاردلينز بيرنشتايـن) و(مونرو): «تضيف الصين العديـد من البنود الأخرى الخفية في ميزانيتها للنفقات العسكرية حتى تتمكن من شراء احتياجاتها اللازمة، والرقـم الحقيقـي لميزانيتهـا العسكرية لا يقل عـن عشرة أضعـاف الرقم المعلـن»، بينما يري الخبير الألمـاني للشؤون الصينية (فرانـك أومباخ) أن التقدير الفعلي لميزانية الدفاع الصينية من 2 إلى 5 أضعاف الميزانية المعلنة.

وبحسب الإحصائيات الصينية فإن تكاليف الإنفاق العسكري للجندي الأمريكـي حوالي 300 ألـف دولار وما يقرب من 200 ألـف للياباني بينما في الصـين لا تتجاوز الـ10 آلاف ويقولون إنهـم لا يتسلحون ولكن فقط يستعدون.

وبالرغـم من كل جهود التسليح المتزايدة فـإن الصين لا تعتبر حتى الآن منافساً جديـاً للولايات المتحدة في الناحية العسكرية ولكن تزداد مخاوف المراقبـين مـن أن تصبح الصـين عملاقـاً عسكرياً متوحشـاً (بعبع)، وفي تقديـر العديد من الخبراء أن الصين قـد تخلفت لسنوات وعقود عن القوة العسكريـة لأمريكا والعديد من البلدان الغربيـة الأخرى وحتى منافستها الآسيوية اليابان.

(ديفيـد شامباو) أحد الخبراء الغربيـين المهتمين بالعسكرية الصينية علق

في نهاية كتابه الجديـد (تحديث العسكرية الصينية) قائلاً: «بدون حصول جيشـ التحرير الشعبـي الصيني على الأسلحـة والتكنولوجيا الحديثة من الغرب فإنه سوف يجد صعوبة كبيرة في سد الثغرات مع الغرب واليابان».

وهناك تصور آخر يضعه أحد الخبراء في أنه لدى الجيش الصيني: (أذرع قصيرة، وأرجل طويلة) وهذا يعني أن الجمهورية الشعبية ليست في وضع يمكنها من التدخل السريع في أي نزاعات خارج حدودها

ولكن هل بعد كل هذا يمكن لجيران الصين النوم مطمئنين؟

الفصل العاشر

جار عدواني

الطريق نحو فرض السيطرة على آسيا

«إن ميـزان القوى في آسيـا يتحول، واحتمال كبير أن تعـود الصين إلى دورها السابق كسلطة مركزية».

ديفيد شامباو

أستاذ بجامعة جورج واشنطن

لـدى الصين حـدود مشتركة مع 14 دولة فيها الكبـير والصغير والقوي والضعيـف، لا يوجد بلـد في العالم لديها مثل هذا العـدد من الجيران مثل العمـلاق الصينـي، وذلك مـن خلال حـدود برية تصل لحـوالي 22,000 كيلومـتر وبحرية تصل أيضاً لحـوالي 18,000 كيلومتر، وفي الماضي كانت هنـاك اشتباكات عديدة بين الصين وجيرانها البعض منها انتهى بمناوشات عسكريـة مثل عـام 1962 في الصراع الكشميري ضد الهنـد، أو في نهاية الستينيـات علـى نهر (أوسـوري) الحدودي ضـد روسيـا، أو عام 1979 بالتدخل في حرب فيتنام.

ولكن الآن تحسنت الأوضاع على طول خط الحدود الصينية، في العقد الماضي قامت الصين بالتنسيق مع جميع جيرانها لإنهاء كل تلك الخلافات وتم توقيع عشرات المعاهـدات والاتفاقيات حتى مع الهند أكبر منافس في جنوب آسيا وتم عقد صلح حيث سيطر هدوء تام على كل المنطقة.

ولكنـه مجرد هدوء نسبي وسيتبعـه توتر في تلك البلدان الآسيوية -سواء كانـت جيرانـاً للصـين أم لا- بسبـب الـدور المتزايد للصـين في المنطقة وإحـكام سيطرتهـا عليها، ولكن هل ستصبح الصين هـي القوة المسيطرة علـى آسيـا كما كانت على مـدى قرون عديـدة ماضية؟ وهـل ستتركها الولايات المتحدة لتصبح القوة الحامية والمركز المسيطر في شمال وجنوب

آسيـا؟ وكيف ستكون العلاقة بين القوتين الآسيويتين العظيمتين والعدوين اللدودين الصين واليابان - مواجهة أم تعاون؟

وهنـاك اقتناع تـام لـدى الباحـث الأمريكـي (صمويـل هنتنجتون) -المتخصص في العلـوم السياسيـة- بعـودة الصين إلى سابـق عهدها في سيطرتهـا القديمـة علـى المنطقة حيـث يقـول في كتابه الشهـير (صراع الحضارات): «إن تاريخ الصين وثقافتها وتاريخها وحجمها وديناميكيتها الاقتصاديـة وبديهيتها كل ذلك ينبغـي أن يؤهلها لتصبـح القوة الرئيسية المسيطرة في شرق آسيا برمتها».

وتستخـدم بكين أسلوب التهدئة كإحدى أهم الوسائل الناجحة، فنحن لا نرى أي أغراض توسعية لديهم ولكن ما يسعون إليه دائماً هو: «الانتقال مـن نجاح إلى نجاح»، في جميع الحالات، ولكن ينبغي على الجميع الإفادة من نهضـة الصين الاقتصادية، ولهـذا السبب فإن الصـين تعقد اتفاقيات للتجـارة الحـرة مـع دول جنـوب شـرق آسيـا ASEAN (الكونفدرالية الآسيويـة)، والهدف هو تكوين تجمع لدول شرق آسيا[1] EAC والتي تمتد من كوريا حتى إندونيسيا مثل الاتحاد الأوروبي، وكان مؤتمر القمة الأول في كوالالمبـور في ديسمـبر 2005 وكل هذا يتم بـدون مشاركة الولايات المتحدة.

وتجمـع دول شرق آسيـا EAC هي فكرة قديمة لرئيس الـوزراء الماليزي السابـق (مهاتير محمد)، وتأمل الصـين -بوصفها نموذج اكتمال النضوج

(1) East Asian Community

الاقتصـادي الآسيـوي والقـوة الدافعة للاندمـاج في المنطقـة- أن يزداد نفوذها ويزداد إبعاد الأمريكين عنها.

حيـث إن أصابع الأمريكان تعبث تقريباً في كل مكان بآسيا، من خلال الشعار العالمي الذي رفعوه: (الحرب على الإرهاب)، فقد عززوا نفوذهم في آسيا وتواجدوا في العديد من البلدان هناك بحجة البحث عن إرهابيين، مثـل: باكستان والفلبين، وهذا بالطبع يُرسـخ حالة من الاستياء في نفوس الصينيين الذين قد أصبح لديهم شكل من أشكال جنون العظمة.

وسوف تواجههم الصين من خـلال اتفاقيات ثنائية ومتعددة الأطراف مع باقـي جيرانها الآسيويين، حيث تسعى الصين بنجاح لقيادة باقي دول المنطقة والسيطرة عليها.

وبرغم كل محاولات الاحتـواء السلمي تلك فإنه لا ينبغي نسيان وجود ثـلاث بؤر للتوتر في المنطقة الآسيوية متعلقـة بالصين وهي: النزاع طويل الأمد حول تايوان التي لا تُظهر الصين أي استعداد لتقديم تنازلات بشأنها، والنـزاع على جزر (سبراتلي) في بحر الصين الجنوبي، والعلاقة مع اليابان التي لا تجد أي حل لها.

ومازالت الصين تحارب من أجل السيطرة على آسيا بالرغم من احتمالية التصعيد العسكـري في كل الصراعات السابقة، والمســار الأكثر ترجيحاً يبدو أنه سوف يكون اللجوء لاستخدام الأسلحة مع تايوان.

احتواء جنوب شرق آسيا

مـن هو الصديق الأقـرب لتايلاند؟ اقترحت الحكومـة في بانكوك هذا

السـؤال على مواطنيها فقط 9٪ منهم قـال الأمريكيين و 76٪ كان رأيهم الصينيـين وبطبيعـة الحال فإن مثل هـذه الدراسـات والإحصائيات تجعل بكين مطمئنة أن جهودها في جنوب شرق آسيا تظهر أثرها المنشود.

سابقاً في الستينيات والسبعينيات ظهر الصينيون كمصدرين لأيديولوجيات تلـك المنطقة فقد نشروا أفكارهـم الشيوعية بين الشعوب الفقيرة في جنوب شرق آسيا، وعندما كانت هناك حركات تحرر متمردة ومسلحة كانت بكين تقدم المساعدات بالمال السلاح والأفكار لتلك الثورات.

وظهـرت الأنظمة المناهضة للصين كثـيراً في تلك الأوقات وعانى كثير مـن الصينيين المغتربين في ماليزيا وإندونيسيـا حيث كانوا غالباً يعتبرونهم بالخطأ طابوراً خامسـاً للشيوعية الصينية وتعرضوا لهجوم عنيف، وشهد عـام 1979 غـزو فيتنام الذي لم يساعد على زيـادة شعبية الصين في جنوب شرق آسيا.

ولكـن بعـد إصلاحات (دينـج) أصبح للصين صـولات وجولات في جنـوب شـرق آسيا، لكن الأمـر استغرق وقتـاً طويلاً لكـي تأخذ الصين وضعهـا الجديد في المنطقة، وفي الحقيقة فقد بدأت الصين في لعب دورها الجديد في آسيا منذ منتصـف التسعينيات لكي تصبح مهيمنة هناك، وقال رئيس وزراء الصين (ون جيا باو) «إن الصين مثل الفيل صديق مرح وقوي لذلك فإنه لا يمكن لأحد أن يأخذ دورها في جنوب شرق آسيا».

(ديفيد شامباو) خبير الصينيات بجامعة جورج واشنطن يصف التغيرات التي طـرأت على الصين قائلاً: «أصبح ينظر نحـو الصين وبشكل متزايد علـى اعتبارها جارة جيـدة وشريكاً بناء يلفت انتبـاه الجماهير في جنوب

شرق آسيا»، وأصبحت الصين اليـوم -وفقاً لشامباو- لا تصدر الأسلحة والثورات ولكن بدلاً منها تصدر النية الحسنة والأجهزة المنزلية.

وكانـت تلـك السياسـة الآسيويـة الجديـدة للصـين واضحـة تماماً في قمة الآسيـان ASEAN في أكتوبر عـام 2003 بجزيرة بـالي الإندونيسية، حيـث وقعت الصين هنـاك مع دول الآسيان العشـرة اتفاقاً حول الشراكة الإستراتيجيـة، وكان جزء من تلـك الاتفاقية يختص بالتجـارة الحرة بين الشركاء لكي يتم خفض الحواجز الجمركية بينهم حتى يتم إسقاطها بحلول عام 2011 وقد حظيت تلك الجهود في آسيا فجأة بدينامكية حركية سريعة لم تكن واردة قبل بضع سنوات وقد قامت الصين بكل تلك التحركات هناك ولذلـك فإنها أصبحـت مرتبطة الآن بالعديد مـن النقاشات والتجمعات التي تربط بين دول جنوب شرق آسيا:

الآسيان + 3 (الصين وكوريا واليابان).

الآسيان + 1 (فقط الصين).

المنتـدى الإقليمـي للآسيان ARF ويتألـف من 22 دولـة تناقش قضايا المنطقة.

لكـن النية الحسنة فقط لا تكفي وحدها لتكون مقنعة لكل دول جنوب شـرق آسيا. يشير (جوستاف كيمبف) إلى تناقض علاقة الصين مع جنوب شـرق آسيا قائـلاً: «إن الحكومات في جنوب شرق آسيـا لا تزال تختلف في علاقتهـا مـع الصين بين التعاطـف الوثيق والإعجاب حتـى الكراهية والعداء».

تنتهج الصـين إستراتيجية مزدوجة للمنطقة فمـن ناحية -وهي الناحية

المعلنة- تسعى جاهدة لتوثيق التعاون الاقتصادي بينما من ناحية أخرى- غير معلنة- فإن الصين تريد تحييد شبه القارة بأكملها وخاصة جنوب شرق آسيا حتى تضمن دفعاً خلفياً للتأثير الياباني والأمريكي على المنطقة، ويمكن للتعاون الاقتصادي أن ينجح إلى حد ما ولكن أيضاً فإن الأمريكيين لن يتركوا جنوب شرق آسيا للصينيين من دون قتال وبالتالي فإنهم سوف ينخرطون في مضيق (ملقا) طريق الإمداد الحيوي للصينيين.

قطاع طرق وقضايا مزعجة

عندما تسافر لأول مرة بواسطة سفينة ركاب صغيرة من سنغافورة عبر البحر فإنك ستشعر بأن الدنيا مظلمة أمام عينيك، سفن نقل وحاويات في كل بضع مئات من الأمتار على سطح البحر حوالي 50,000 سفينة تمر سنوياً عبر مضيق (ملقا) الذي يقع في المحيط الأطلسي.

جميعها تمر ولكن أيضاً تواجهها مخاطر في باقي بحار العالم وهذا بسبب خطر القراصنة الذي يهدد المنطقة منذ عدة قرون عند أضيق نقطة بين سومطرة (بإندونيسيا) وسنغافورة يوجد مضيق لا يزيد اتساعه عن 2,5 كيلومتر حيث يكون من السهل هناك التقاط أي سفينة.

ومضيق (ملقا) هذا يمر منه حوالي ربع السلع في العالم وتقريباً نصف كمية النفط في العالم أيضاً تمر منه، فمن هنا يجب أن تعبر كل ناقلات النفط التي في طريقها للصين واليابان، وهذا المضيق يعتبر بمثابة شريان حياة بالنسبة للاقتصاد الصيني، لذلك فإن من مصلحة الصين ضمان وجود تدفق في حركة الملاحة به دون أي خلل.

وقد قدم قائد الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ الأدميرال (توماس فارجو) اقتراحاً إلى مجلس النواب الأمريكي في نهاية مارس 2004 بإطلاق مبادرة إقليمية للأمن البحري تنص على أنه ينبغي على البلدان المطلة على مضيق (ملقا) العمل بشكل وثيق مع الولايات المتحدة وينبغي تبادل المعلومات بشأنه بين وكالات الاستخبارات في كل من إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة والقيام بدوريات عسكرية مشتركة وضرورة تمركز قوات خاصة أمريكية بهذا الموقع وكل هذا -وفقاً للأمريكيين- من أجل الحرب على الإرهاب.

إندونيسيا وماليزيا وأيضاً الصين لم تطمئن لهذا وشعرت أن هناك دوافع خفية، حيث إن الولايات المتحدة تريد تواجداً أوسع في جنوب شرق آسيا وخرجت وجهة نظر معارضة للولايات المتحدة واقتراح فقرروا أنهم لا يستطيعون نشر قواتهم ويعتقد (لوجوتشوي) الخبير الأمني في تصريح له إلى صحيفة شباب الصين اليومية أن مضيق ملقا يعد بلا شك أهم ممر مائي حيث تلعب الولايات المتحدة على تفوقها الجيو-سياسي بأن تعمل على تثبيط البلدان الكبرى الأخرى وعدم مواصلتها الصعود والسيطرة على تدفق الطلب العالمي على الطاقة.

ولذلك فإن الصين أصبحت تبحث عن بدائل فمن الممكن أن يكون البديل قناة (بنما) حيث ممر عبر برزخ (كرا) في جنوب تايلاند ولكن هناك عدة معوقات؛ أولاً: سوف تتكلف القناة حوالي 28 مليار دولار حتى يستطيع الصينيون استخدامها وذلك وفقاً لتقدير العديد من الخبراء، ثانياً: هناك علاقات عسكرية قوية تربط بين تايلاند والولايات المتحدة وهذا ما

يكرهه الصينيون، ثالثاً: يوجد في جنوب تايلاند إقليم خاضع للمتمردين.

وهناك بديل آخر يعتبر أكثر واقعية وهو مد حط أنابيب عملاق من ميناء ميانمار (بورما سابقاً) إلى الصين، ويرى العلماء الصينيون أن هده الفكرة هي الأقرب للتنفيذ وصرح بعضهم في مقال نشر بمجلة تطلعات الشرق المستقبلية (أورينت أوت لوك) أن هذا الخط العملاق سيمتد في المياه العميقة من ميناء ميانمار حتى مدينة (كومينج) عاصمة مقاطعة (يون نان) بطول يصل إلى حوالي 1000 كيلومتر وبتكلفة تصل لحوالي ملياري دولار وهذا الحل هو الأكثر أمناً كما يقول البروفيسور (لي شينج يانج) أحد مؤلفي هذا المقال.

وفي يوليو 2004 سافر رئيس ميانمار الأسبق (خين نيونت) في زيارة إلى الصين استغرقت ثمانية أيام لكن قد أعلن في التصريحات الرسمية أنه لم تتم في هذه الزيارة أي نقاشات بخصوص إنشاء خط الأنابيب.

الهدوء في هندوكوش

التأثير المتزايد للصين في حنوب شرق آسيا يجعل منها دولة غير عادية، وهدا أكثر ما يُثير مخاوف الهند وهو أن تتوسع الصين في نطاق نفوذها فتقترب أكثر وأكثر من الهند، وبالرغم من أن هذا القلق لا أساس له غير أنه بالنظر نحو حجم النشاط الصيني الحالي في ميانمار ودول الآسيان ستجد أنها قد أصبحت في موضع قريب جداً من الهند.

وبالنسبة لميانمار -التي كان ينبذها العديد من الدول الغربية لسنوات عديدة بسبب نظامها الديكتاتوري- فقد رحب بها الصينيون كشريك،

وأصبحوا يساعدونها بطرق عديـدة، وذلك بتدريبات عسكرية مشتركة بـين الجيش الصيني وقوات ميانمار، وقد استطاعت الصين من خلال تلك التدريبـات وضع أنظمة رادار على سواحل وموانئ ميانمار تستخدمها في مشاريعهـا العسكرية المشتركة وهـي تسهل للصينيين أيضـاً الوصول إلى المحيط الهندي.

وهـذا التطور الخطير مثير للاهتمام في تلك الفـترة حيث تتصاعد حدة التوتـر بين الهند والصين، وقد كانا أعـداء لفترة طويلة مضت، فقد تقاتلا سابقـاً حـول التبت والمناطـق الحدودية في جبـال الهملايا وقـد تصاعد الخلاف حتـى أدى إلى اشتباك عسكري في أكتوبر عام 1962 وقد تفوقت فيه الصين بشكل واضح.

وتشكلـت العلاقـة بين البلديـن في فترة الحـرب الباردة فقـد تحالفت الهنـد مع روسيـا ولأن السياسة تقتضي أن يكون عـدو العدو صديق فقد تحالفـت الصين مع باكستان، وبعد نهاية الحرب الباردة تمت إعادة ترتيب للجبهـات، وكانـت باكستان في ذلـك الوقت لا تمثـل أي أهمية بالنسبة للصين ولكن تقربـت إليها للتضييق على الهند، ثم سعت الصين في وقت لاحق لإيجاد علاقة أكثر توازناً مع الهند وباكستان.

حتى جاء النصف الثاني من عقـد التسعينيات وتم التوصل إلى اتفاق مع الهند حيث كانـت العديد من النزاعات قد هـدأت واستقرت، ثم بدأت العلاقـات بين الصين والهند تعود طبيعية كمـا كانت وقت (نهرو) الذي كان قـد أعلن قديماً ذلك الشعار الأسطوري: (هندي شيني بهاي بهاي)؛ أي: (الهنـد والصـين إخوة). فقاما بالاشتراك في منـاورة عسكرية للمرة

الأولى، وتم تنظيم اتصالات بينهما على أعلى مستوى في محاولات مستمرة بين المفاوضين لحل الخلاف حول الحدود التي تمتد لما يقرب 3500 كيلومتر في جبال الهملايا، وتشعر أن هناك تقارباً اقتصادياً قوياً بينهما لأن كلاً منهما يكمل الآخر حيث تقوم الهند بإعداد البرمجيات بينما تصنع الصين الأجهزة (انظر: الفصل الرابع – الصين والهند؛ فريق حلم جديد).

ولكن من الواضح أيضاً –كما هو الحال في جنوب شرق آسيا– أن الصين تستخدم سياسة خارجية ذات وجهين، ففي الوقت الذي تُظهر أنها جارة جيدة فإنها تتخذ في المقابل إجراءات سيئة مثل ما يجري في ميانمار، وعلى ذلك فإن العلاقة بين التنين الصيني والفيل الهندي لا تزال هشة، وسوف تعتمد في تطورها على ما سيحدث في آسيا الوسطى.

الاهتمام المفاجئ بآسيا الوسطى

طورت الصين وبدون ملاحظة أحد تقريباً تحركاتها الدبلوماسية المكثفة في منطقة لم تكن تحظى بأي اهتمام من الرأي العام العالمي: آسيا الوسطى، التي تتكون من خمس دول كانت جمهوريات تابعة للاتحاد السوفييتي السابق ثم نالت استقلالها عنه وهذه الدول هي: كازاخستان، وقرغيزستان، وطاجيكستان، وتركمنستان، وأوزبكستان. وهذه الدول ذات أهمية إستراتيجية كبرى، لأنها بمثابة (دول عازلة)، حيث إنها تقع بين القوى الرئيسية الكبرى في المنطقة (الهند، وروسيا، والصين)، ولديهم جميعاً ثروات ضخمة وهائلة من المواد الخام الأولية مثل النفط وغيره، فلا عجب إذن من اهتمام السلطة القديمة بهم (روسيا)، وأيضاً القوة الجديدة

الصاعدة في تلك المنطقة (الصين).

وأيضاً فإن لديهم خصمـاً ثالثاً قوياً وهو الولايات المتحدة، وقد أعطت أحـداث الحادي عشر مـن سبتمـبر للأمريكيين فرصة جديـدة في وضع أقدامهـم مبكراً في تلـك المنطقة من خـلال حرب العـراق وأفغانستان، وقـد أقاموا قواعـد عسكرية من أجل المضي قدمـاً في مطاردتهم لطالبان والقاعـدة، وتردد بعضـ الألسنة الشريـرة أن الدافع الرئيسـي وراء تلك التدخلات هو التواجد بشكل رئيسي داخل منطقة آسيا الوسطى.

والآثار الجانبية المحسوبة لذلك هي عدم ترك الأمريكيين لآسيا الوسطى بشـكل سريـع وخالٍ مـن الصراعات، ويقـول أستاذ الاقتصـاد السياسي بجامعـة زيورح (فيكتور موير) في مقال له منشور تحت عنوان (العواقب الجيو-إستراتيجية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر): «لدى الولايات المتحـدة وقـت قليل جـداً حتى تتمكن مـن فرضـ سيطرتها علـى آسيا الوسطـى»، وهذا التطور لا يسر الصينيين الذيـن يسعون للحفاظ على ما حققوه من نجاح هناك.

وهنـاك نوع مماثل لتلـك العلاقات الوديـة في جنوب شـرق آسيا ينمو حاليـاً في آسيـا الوسطى، يقـول (بيتس حيل) أحد مؤلفـي كتاب (رحلة الصين الجديدة نحو الغـرب): «يرسل الصينيون العديد من المسؤولين إلى بلـدان آسيا الوسطى للالتقاء مع رؤساء الوزراء والرؤساء والجنرالات حتى يحسنوا علاقتهم الإستراتيجية والدبلوماسية هناك».

وكانت محاولة الصين الأولى لجمع تلك الدول بتكوين اتحاد دولي عُرف بـ(خماسي شنجهـاي)، وقد تأسس هذا الاتحـاد في أبريل 1996 بحضور

رؤساء الدول الخمس: الصين وكازاخستان وروسيا وقيرغيزستان وطاجيكستان، وفي يونيو 2001 انضمت أوزبكستان ومنذ ذلك الحين ويسمى هذا الاتحاد بـ(منظمة شانجهاي للتعاون)، والتي يتم اختصارها في الإنجليزية بحروف SCO[1].

وقد تم إنشاء الـ(SCO) في الأساس للتعاون في القضايا المشتركة مثل الإرهابيين والانفصاليين الذين تعاني منهم جميع الدول الأعضاء، ومن خلال تبادل المعلومات والتنسيق المشترك يُمكن صد الهجمات المحتملة.

لكن مع مرور الوقت تطورت الـSCO وتطرقت أيضاً للعديد من المواضيع الأخرى -العسكرية والاقتصادية- من خلال محادثات شاملة بين جميع الأطراف وإن كانت الصين وروسيا يسيطران على أغلبها، وقد بدى هذا واضحاً للغاية في مؤتمر القمة الرابع في يونيو 2004 حيث ظهر في إعلان طشقند أن الـ SCO قد انتقلت لمرحلة جديدة من التعاون الشامل في مختلف الميادين السياسية، وفي الوقت نفسه فإن المقر الرسمي الدائم للأمانة العامة لتلك المنظمة يقع في بكين، والأمين العام (تشانغ دي كوانغ) صيني أيضاً، وهو يقول إن التعاون الاقتصادي بين تلك الدول الست سوف يكتسب أهمية متزايدة تدريجياً.

وبطبيعة الحال فإن الصين ينصب أغلب اهتمامها على النفط، وإن كانوا لا يُصرحون بذلك، فإنهم يحتاجون دائماً إلى المزيد منه، ويريدون العمل على تنويع مصادر الطاقة لديهم، تُرى ما الذي ينتظر خلف الأبواب

Shanghai Cooperation Organization (1)

المغلقة؟ كازاخستان وتركمانستان وأوزبكستان من صمن البلاد التي لديها أكبر احتياطي طاقة في العالم.

كما تعتبر كازاخستان الشريك المفضل للصين حيث إنها جارة قريبة وتحتوي أيضاً على معظم النفط الخام في تلك المنطقة، وقد تم بالفعل توقيع أول العقود بينهما، وبناء أول خط أنابيب صيني في مقاطعة (شينج يانغ) الغربية، وتبدو أوزبكستان أيضاً هي الأقرب للصين بعد تلك الاعتراضات الأمريكية على سياستها في يوليو 2004 بسبب عدم وجود إصلاحات ديمقراطية وحرمتها من المساعدات المالية.

لذلك فقد أصبح النفوذ الصيني في آسيا الوسطى في ارتفاع متزايد للدرجة التي أصبح معها الدب الروسي العجوز لا يقدر على معارضتها.

صداقة جديدة مع روسيا

كانت تجمع بين الصينيين والروس علاقة صداقة وطيدة في السنوات الأولى لإعلان جمهورية الصين الشعبية، حيث كان الاتحاد السوفيتي يُعد النموذج الأكبر للدول الشيوعية الناشئة، وقد استنسخ الصينيون النظام الاقتصادي للروس في أوائل الخمسينيات في تأميم الصناعة والزراعة، وقامت موسكو بإرسال العديد من المساعدات لبناء البلدة الاشتراكية الشقيقة.

ولكن في أواخر الخمسينيات كان زعيما الحزب الشيوعي في كلا البلدين (ماو) و(خروتشوف) على طرفي نقيض، فقد ابتعدا عن المسار الصحيح للشيوعية، وكان هناك أيضاً تنافس اقتصادي فقام خروتشوف

في عـام 1960 بسحب جميع الخبراء الروس من الصين، وتبع ذلك 30 عاماً من العلاقات المتجمدة بين القوتين الشيوعيتين العظيمتين، وكان أسوأ وقت في هذه الفترة لكلا الطرفين الاشتباكات التي وقعت على نهر (أورسوي) الحدودي في نهاية الستينيات.

ثم انهارت الإمبراطورية السوفيتية في بداية التسعينيات وتلا ذلك التحول إلى نوع جديد من الديمقراطية واقتصاد السوق الموجه، وبعض التقارب الحذر مع الغرب والذي كانت الصين تراقبه عن كثب، ولكن لم تجد موسكو لدى الغرب ما كانت تأمل به، لذلك فقد بدأت ترجع علاقات التقارب تدريجياً بين موسكو وبكين.

وكان الأساس لذلك والقوة الدافعة له هو النمو الاقتصادي، لأن كلا البلدين يتكاملان اقتصادياً بشكل نموذجي، فروسيا لديها صناعة تسليح وإنتاج حربي متقدمة للغاية وتستطيع إعطاء الصين ما تحتاجه من أسلحة كذلك لديهم وفرة من النفط والغاز عبر نهر أوبر، والصين لديها اقتصاد قوي يوفر لها المال الذي يُمكنها من شراء النفط والأسلحة بكميات ضخمة من روسيا، كما يُمكن للصين توريد العديد من السلع الاستهلاكية الرخيصة والتي يحتاجها الروس.

ويتجلى هذا التغيير وضوحاً خلال التجارة شرق روسيا، فهناك كميات هائلة من السلع الاستهلاكية التي ينقلها التجار الصينيون عبر الحدود عن طريق نهر آمور بشكل يومي، كما أن هناك حوالي 500,000 صيني يعيشون في سيبيريا الشرقية.

وعلى مر السنين تتشكل وحدة غير أيديولوجية الغرض بين الجارتين

الكبيرتين، ربما لا تكون رابطة حب ولكن يشملها الاحترام المتبادل بين الطرفين، حيث يلبي رؤساء حكومات كلا البلدين الدعوة لحضور مؤتمرات قمة مشتركة كل عام يتم فيها عقد مجموعة من الاتفاقات والعقود، وقد وقع الطرفان على معاهدة عدم اعتداء، ومعاهدة أخرى تقتضي الالتزام بعدم استخدام السلاح النووي في أي خلاف ينشأ بين الطرفين، كما اتفقا على ترسيم علامات الحدود بينهما، وقد قال الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين) عام 1997: «إن حل المشاكل بيننا يُمثل راحة للجميع»، ومنذ عام 1999 تشترك البلدان في العديد من المناورات العسكرية التدريبية.

وتنص المعاهدة المتبادلة عام 1997 على (شراكة تعاونية إستراتيجية)، ولكن هل يشكل هذا تحالف ضد القوة العظمى الوحيدة الولايات المتحدة الأمريكية؟ بعض الساسة الروس يتمنون ذلك، ولكن الصين لا ترجح هذا، فكل ما يهمها الآن أنه قد أصبحت لديها صداقة جديدة وهدوء على الجبهة الروسية، ومن ثم فإنها لم تعد تُمثل لها أي خطورة في الوقت الراهن.

ولكن هذا التحالف له عواقب بعيدة المدى، فقد كتب الخبير الأمريكي في شؤون الشرق الأقصى (لويل ديتمير) قائلاً: «تحييد التهديد الروسي سمح للصين بتوجيه بنيتها العسكرية نحو القوات البحرية والجوية، واستطاعت إعادة نشر وتوزيع قواتها من الشمال إلى الجنوب».

والهدوء في ناحية الحدود الشمالية الغربية سمح للصين بإعادة النظر نحو باقي المناطق المتوترة والتي تُمثل -من وجهة النظر الصينية- أخطر المناطق، وهي: بحر الصين الجنوبي، وتايوان وأيضاً اليابان.

اليابان.. العدو الأزلي

منــذ أكتوبر 2001 يذهب رئيس الــوزراء الياباني (يونيتشيرو كويزومي) لزيارة ضريــح (ياسكوني) بشكل يــكاد يجعل من تلك الزيــارات طقساً معتاداً، وكان آخرهــا في أكتوبر 2005 خلال زيارة رسمية، وقال إن هناك ما يقرب من 2,47 مليون ياباني نالوا شرف الموت في سبيل بلادهم في أثناء الحــرب العالمية الثانية بسبــب 14 من كبار مجرمي الحــرب الصينيين، وفي كل مرة تُثير تصريحاته تلــك غضب الحكومة الصينية، وتتجمد العلاقات والأنشطة بين البلدين لفترة عقب كل تصريح يعلنه كويزومي.

والعلاقات بين هاتين القوتين الآسيويتين قد مرت بكل شيء عدا الصلح والسلام، وسبب التوتر الرئيسي هو كمية المعاناة التي سببتها اليابان للصين في أثنــاء الحرب العالمية الثانية، فقــد تم قتل حوالي 13 مليون صيني على يد جنود يابانيــين، ومازال الشعب الصيني ينتظر حتــى الآن اعتذاراً مكتوباً عن تلك الفظائع.

في نوفمــبر 1998 ذهب الرئيــس الصيني (يانغ تسه مــين) في أول زيارة رسميــة لليابــان، بهــدف توقيع اتفاقيــة شراكة بــين البلدين، وقــد أبدى رئيس الوزراء الياباني (كيــزو أوبوشي) استعداده لكتابة اعتذار خطي عن ارتكاب جرائم حرب ضد الصينيين، ولكن عند التوقيع رفض (أوبوشي) فعل ذلــك، وكانت تلك الحادثة تعد كارثة دبلوماسية من الدرجة الأولى، وإهانة خطيرة للصينيين.

وتم تــداول هذه الأحداث مراراً وتكراراً في جميع وسائل الإعلام حتى زادت حــدة المشاعر المعادية لليابانيين من السكان الصينيين، وكان آخرها

الأحداث التي تمت في أبريـل 2005، كما أن هناك حملات تشهير عدائية واسعة ضد كل شيء ياباني من قبل الصينيين على شبكة الإنترنت.

ويمثـل النفـور والاستياء حالة عامـة في مشاعـر كلا الشعبين على كافة المستويـات، ويجب علينا قـراءة التاريخ القديم المشترك لهـم بتأنٍ وعمق حتى نفهـم أبعاد التوتر في علاقتهما، فمنذ حـوالي ألفي عام كان يسيطر الصينيون على اليابان ويطلقون عليها اسم (أرض الأقزام)، ولم تكن الصين تحتل اليابـان فحسب وإنما كانت تسيطر عليها ثقافيـاً وسياسياً واقتصادياً بقوة.

وقد عُكست هذه العلاقة فقط في منتصف القرن التاسع عشر، ثم بدأت الهيمنـة اليابانية التي تسببت في اندلاع حربين: حرب الصين واليابان من 1894 إلى 1895، والثانية من 1937 إلى 1945، ثم استغرق الأمر طويلاً لتطبيع العلاقـات ثانيةً بين البلدين، حيث بدأت أول علاقة دبلوماسية بينهما بعد الحرب عام 1972 وتجري اتصالات على مستويات عليا فقط منذ عام 1987.

لكن ظلـت العلاقات الصينو-يابانيـة متوترة، ودائماً مـا تنتقد الصين مشاريـع إعادة التسليح اليابانية تحت حمايـة أمريكية حيث يوجد حوالي 60,000 جندي أمريكي متمركزين في اليابان.

وقـد احتجت اليابان أيضاً على تطوير الصـين لقوتها العسكرية بشكل هائـل وغير معلن، والذي من شأنه التسبب في حالة الذعر لدى اليابانيين، لذلـك فإن اليابان تخطط لإنشاء نظام دفـاع صاروخي بحلول عام 2011 والذي يهدف لحمايـة البلاد من الصين خصوصاً، كما أن اليابان تعتبر أن الصين تُمثل تهديداً عسكرياً لها الآن وقد أعلن هذا في أول تصريح رسمي

لـ(كويزومي) في خريف 2004.

والعلاقة بين البلدين مبنية على عدم الثقة المتبادل، وقد كتب (هانس جونتر هيلبرت) و(جودرون ويكر) خبيرا العلوم السياسية: «منذ انتهاء الحرب الباردة لم تجد الصين واليابان أي شكل مستقر لعلاقتهما».

وبينما تظل حالة الجمود السياسي مستمرة بين البلدين فإن علاقتهما الاقتصادية تنمو أكثر، حيث تتنافس كلاهما على فرض هيمنتها في منطقة جنوب شرق آسيا، وهذا ليس منذ زمن بعيد ففي التسعينيات ظهر ما يسمى بنظرية الإوز المحلق فقد بدأت اليابان بالتحليق فوق بلدان جنوب شرق آسيا، ولكن اليوم تظهر أنف الصين بوضوح في تلك المنطقة.

وعلى الرغم من أن الصين واليابان تسعيان نحو اتفاقية تجارة حرة بين دول الآسيان حيث تقول وزيرة التجارة الماليزية (رفيدة عزيز): «كانت اليابان على بعد خطوات من المنطقة ثم فوجئنا بسرعة التحرك الصيني فيها».

وتظهر القوة العالمية الصاعدة (الصين) تقدماً كبيراً على اليابان في قيادة المنطقة الآسيوية وسيكون من المثير معرفة كيف استجابت اليابان ومعها حليفتها الولايات المتحدة لهذا التطور الذي يجري في المنطقة، ووفقاً للدبلوماسي الأمريكي المخضرم (هنري كيسنجر) فإن اليابان قد أصبح لديها فقط ثلاثة خيارات:

مواصلة سياستها الخارجية القائمة على التحالف مع الولايات المتحدة.

تشكيل مجتمع آسيوي على غرار الاتحاد الأوروبي.

عقد شراكة مع الصين.

وحتى الآن لا توجد إستراتيجية يابانية واضحة، فتبدو تلك القوتان

الآسيويتان مثل الملاكمين داخل الحلبة في جولتهما الأولى يدوران حول بعض ويتبادلان اللكمات في ساحة المعركة التي هي عبارة عن عدة جزر بين اليابان وبحر الصين الجنوبي، وتأتي مجموعة جزر (سينكاكو) التي تسيطر عليها اليابان وتطالب بها الصين في المقام الأول من الأهمية، حيث إنه من الواضح وجود العديد من المواد الخام هناك -وخصوصاً الغاز- وفي نفس الوقت فإن تحديد ملكية تلك الجزر أمر غير واضح، وتلك ليست المشكلة الوحيدة للصين مع الجزر المتنازع عليها.

من يملك بحر الصين الجنوبي؟

في الثامنة صباحاً يوم 20 أبريل 2004 غادرت سفينة ميناء مدينة (هوشي منه) التي كانت تسمى سابقاً بـ(سايجون) وقد كان على متنها حوالي 100 سائح فيتنامي وأيضاً ممثلون لعصبة الشبيبة الشيوعية، وقد غادروا لمدة أسبوع واحد، وقال مرشد الرحلة الفيتنامي (دونج شوان هوي): «كان لدينا الشمبانيا منذ البداية»، لأن الرحلة كانت متوجهة إلى جزر (سبراتلي) حيث أراد ذلك الفريق صيد الأسماك وتبادلها.

ولم تكد السفينة تمر حتى أدلت وزارة الصين الخارجية بتصريحات تدين هذه الرحلة كرد فعل مبدئي حيث رأت أن الهدف من وراء تلك الرحلة لم يكن مجرد نزهة ممتعة ولكن مظاهرة سياسية لادعاء تبعية تلك الجزر للسيادة الفيتنامية.

وفي الواقع فإن جزر (سبراتلي) هي واحدة من أكثر المناطق المرغوب فيها والمثيرة للجدل أيضاً في جنوب شرق آسيا، حيث يقع حولها وفي

نطاقهــا ما يزيد على 100 جزيرة صغــيرة مليئة بالشعاب المرجانية والرمال الثريــة بالنفط والغــاز والعديد من المواد الخام الأخــرى، ويمكن أن تصبح (سبراتلــي) خليجــاً عربياً آخر كما يتوقع الخــبراء الإستراتيجيون في بكين فإنها جزر قاحلة ومنسية من العالم فتكون مغرية وتنافسية.

وعلاوة علــى ذلك فإن جــزر (سبراتلي) ذات أهميــة جيو-إستراتيجية بارزة فهنا تتقاطع خطوط الشحن الرئيسية بين المحيطين الهندي والهادئ، وكذلك فإنه يطلق على تلك المنطقة المسار الشمال جنوبي، وناقلات النفط العملاقــة التي تحمله إلى البــلاد المتعطشة إليه مثل الصــين واليابان تمر أيضاً من هنا، وتعتبر تلــك المنطقة حيوية للغاية بالنسبة للصين واليابان حيث يمر عبرها حوالي 70٪ من احتياجاتهم النفطية و من المواد الخام والغاز المسال.

ولذلــك فإن جــزر (سبراتلي) والمناطق المحيطة بهــا تعتبر منطقة ساخنة مــن شدة التنازع عليها لذلك تتطلع إليها -بجانب الصين- تايوان وفيتنام وماليزيــا والفلبين وسلطنة بروناي وتدعي كل منهــم أحقيتها بهذه الجزر القاحلــة وقامــت بعض الدول بالفعــل بإنشاء قواعــد عسكرية هناك منذ بداية السبعينيات -كما ذكــرت دراسات الأمم المتحدة- وبدأت تتصاعد المشاحنــات في مياه بحــر الصين الجنوبي وفي عــام 1974 وقع أول صدام بين الصــين وفيتنام، و في عام 1988 تصادمت سفن حربية صينية وفيتنامية بالقرب من الشعاب المرجانية بجزر (سبراتلي) مما أدى إلى غرق حوالي 70 فيتناميــاً، وفي 1995 قامت قوات من الجيش الصيني بطرد صيادين فلبينيين من منطقة (ميشيف-ريف) التي تقع في المنطقة الاقتصادية التابعة للفلبين.

وقد كانت الصين حاضرة دائماً في كل المناوشات العسكرية التي تحدث

في بحـر الصين الجنوبـي وهذا يؤكد أهميـة هذه المياه بالنسبـة للصينيين وأنهـم أيضاً لا يتوقفون عند مجرد التهديـدات اللفظية فقط ولكن يمضون قدمـاً حاشدين كل قوتهم إذا لـزم الأمر، فالصين تنظـر نحو بحر الصين الجنوبي باعتباره ملكية خاصة لها.

وليـس واضحاً مـا إذا كان للصين سند قانوني يعطيهـا الحق في المطالبة بتلك الجـزر، وقد كتب علمـاء السياسـة (باترك راستسلنـبرج) و(هانز شـيرر) في دراسة موسعة لهما ما يلي: «يزعم الصينيون بأحقيتهم في جزر سبراتلـي وكذلك تعلن بكـين في مواقف رسمية لها، بينمـا طبقاً للقانون البحري ليس لديهم أي حق في المطالبة بها».

وظلـت بكين تتجاهل هذه الحقيقة لفـترة طويلة وهم يرون أن لهم حقاً في تلـك المنطقة وفقاً لقانون الغاب وليـس القانون البحري، وفي الوقت نفسـه تحولـت الصين إلى تطبيق القانـون الدولي كأساس للتفاوض بينما يرى المراقبـون أن هذا التحول فقط مجرد منـاورة تكتيكية ومحاولة صينية لاسترضـاء دول الآسيان ولكن هذا لن يستمـر طويلاً فسيادة الصين على جزر (سبراتلي) غير قابلة للتفاوض.

وجزر (سبراتلـي) –التي ستظل مصدراً مستمـراً للصراع المستقبلي في آسيا– ليست سوى وسيلة لتفجير الصراع حول تايوان.

النزاع الدائم حول تايوان

في كل عـام يكون أمـام آلاف الجنود الصينيين مهمـة واحدة فقط هي جزيـرة (دونجشان) التي تقع قبالة تايـوان بحوالي 280 كيلومتر، ومنذ عام

1996 يتمرن الجيش الصيني في هذا البر الرئيسي على (إعادة) تايوان تلك الجزيرة الانفصالية للأمة الصينية، حيث إنها مازالت في نظرهم مجرد مقاطعة صينية، في مرة كانوا 18,000 جندي (كما في يوليو 2004) ومرة 100,000 كما حدث (في عام 2001) ويبدؤون في ممارسة تدريبات تكتيكية برية وبحرية وجوية.

وفي كل مرة في تلك التدريبات القتالية تكون هناك إشارة واضحة إلى حكام تايوان (حليفة الولايات المتحدة) أننا مستعدون لإرجاع تايوان بالقوة إذا لزم الأمر ونحن جادون في ذلك.

بعد أن حلت سلطات بكين معظم مشاكلها في استعادة أراضيها بطرق سلمية وخالية تماماً من العنف كما حدث في المستعمرات السابقة: هونج كونج (التي كانت مستعمرة بريطانية) وماكاو (التي كانت مستعمرة برتغالية)؛ فإنهم يتطلعون الآن نحو قطعة رئيسية واحدة كانت جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الصينية: جزيرة تايوان التي يقطنها حوالي 22 مليون نسمة أي تعادل تقريباً مدينة (بادن فورتمبيرج) ومتقدمة اقتصادياً وتقنياً بحيث إنها تمثل نموذجاً مصغراً للدولة الصينية.

ومنذ نهاية الحرب الأهلية في عام 1949 وتايوان هدف رئيسي لحكام بكين في ذلك الوقت فر كثير من قوات ماو إلى الزعيم القومي (تشيانج كاي شيك) مع مليونين من أتباعه وقاموا هناك ببناء نموذج بديل لجمهورية الصين الشعبية فأنشؤوا جمهورية تايوان وظلت تايوان لفترة طويلة تحت قيادة (تشيانج كاي شيك) تطبق نظام الديكتاتورية التنموية الذي كان متبعاً لفترة طويلة في كوريا الجنوبية أيضاً وتدخلت هناك الدولة في الناحية

الاقتصادية بشكل موسع وتحول الاقتصاد التايواني تجاه التكنولوجيا العالية، اليوم أصبحت تلك الجزيرة واحدة من أغنى البلدان الآسيوية (حيث إن دخل الفرد حوالي 13,000 دولار).

مع تزايد حالة الرخاء زاد الوعي السياسي لدى السكان وتطلب الأمر مزيداً من الحريات الديمقراطية فشهد عام 1988 أول انتخابات هناك وحصلت عملية انتقال سلمي للسلطة من خلال حزب الكومنتانغ وفي عام 1996 تمكنت تايوان من التحول إلى تغيير ناضج للسلطة عبر الانتخابات واختير مرشح حزب الكومنتانغ في أول انتخابات رئاسية ديمقراطية حيث فاز (تشن شوي بيان).

وكان هذا يعد اختياراً خاطئاً بالنسبة لحكومة بكين حيث إنهم ينظرون إلى (تشن شوي بيان) كشخص متحد لهم بينما هو يسعى جاهداً للحصول على استقلال كامل لجزيرة تايوان وهذا يمثل إهانة شديدة لبكين وسياستها التي يتبعونها منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية تحت عنوان: (سياسة صينية موحدة) ورسالتهم واضحة لا توجد سوى دولة صينية واحدة في القانون الدولي وهي جمهورية الصين الشعبية.

والذي يقيم علاقة دبلوماسية مع بكين لا يتمكن من إقامة علاقة مماثلة مع تايبيه في الوقت نفسه وتقريباً جميع بلدان العالم المتقدمة تؤيد موقف بكين، بحيث لم يعترف بتايوان سوى عدد قليل من البلدان في أمريكا الوسطى وجنوب المحيط الهادئ وفي الغالب تشتري تايبيه ولاء تلك الدول في شكل مساعدات تنمية سخية.

ونجحت بكين في إبعاد تايوان عن جميع المنظمات الدولية تقريباً،

وفي عـام 1971 كان من الممكن حصول تايوان على مقعد في الأمم المتحدة ولكـن حالت الصين دون ذلـك كما فشلت تايبيـه في اللجوء للمجتمع الـدولي في الوصول إلى حل وسط مع بكين وأصبحت تايوان شبه معزولة دبلوماسياً وهذا يـدل على مدى النفـاق في السياسة الخارجيـة الغربية: تايـوان الديمقراطية أصبحت دولة منبوذة بسبب تملـق الصين الاستبدادية فسياسة القوة تنتصر على المثالية السياسية.

فقط الولايـات المتحدة هي التي حافظت على علاقتها مع تايوان حيث انتهجت سياسة مزدوجة فمن ناحية يعترفون بحق الصين في اتباعها لنظام (سياسـة صينية موحدة) في إعـادة أراضيها وهم لا يريـدون أن يخسروا أعمالهـم في بلد تعـد من أكبر وأقوى الأسواق في العـالم، كما أنها تمد يد الحماية للجزيرة من ناحية أخرى كما أن الولايات المتحدة تعهدت بضمان تقديم مساعدة عسكرية لتايوان وتوريد الأسلحة الدفاعية لها.

ويستمرون في تسليم الأسلحة لتايوان وفي نفس الوقت يتهمون الصين برفـع مستوى مواجهتها ضد تايوان وذكر تقرير الكونجرس الأمريكي في يونيو 2004 ما يلي: «نظراً للتغير الجذري في التوازن العسكري بين تايوان والصين -لصالح الصين بالطبع- فـإن الولايات المتحدة تساعد تايوان»، ويشير الخـبراء الإستراتيجيون العسكريون في أمريكا إلى العدد المتزايد من الصواريـخ متوسطة المدى الصينية التي تستهدف تايوان ما بين 500 و 550 حتى الآن وتزيد حوالي 75 في كل عام.

وفي الوقـت الحالي فإن هنـاك سباق تسلح قوي يجـري بين الخصمين الصينيـين وتكتسـي لغة الحـوار بينهما بنـبرة أقوى، ومـن الملفت للنظر

خطابــات أعضاء الحكومة في بكين التي تكتســي بلهجة مناهضة لتايوان ودعــوا رئيس الجزيرة غير المحبوب لديهــم (تشن شوي بيان) قبل تنصيبه رسمياً بأيــام قليلة في مايو 2004 إما بالخضوع لـ(سياسة صينية موحدة) أو أنه سيؤدي بشعبه إلى التهلكة.

وأيضــاً على ساحة الصراع المجاورة هنــاك حرب أخرى يقودها رجال الأعمــال التايوانيين بقــوة، حيث إنهم يتحدثون علنــاً عن أهمية حصول تايوان على استقلالها الكامــل وإزالة جميع المعوقات لذلك، وأيضاً نجمة البــوب التايوانية (إيمــاي) كان لديها حفلة في (هــانج تشو) ولكنها قامت بإلغاء رحلتها للصين ودعت الصين للاعتراف باستقلال تايوان.

ولكــن هل من الضــروري أن يصل هــذا الصــراع إلى مواجهة عسكرية حتمية؟ يقول خبيرا السياسة الأمريكيين (ديفيد لامبتون) و(كنث ليبرثال) في مقال لصحيفــة واشنطن بوست: «تصبح الحــرب دائماً هي الاحتمال الأرجح»، وفي الحزب الديمقراطي التقدمي برئاسة (تشن شوي بيان) يرون أيضــاً إمكانية حدوث سيناريــو الحرب، 258,000 رجــل تايواني يرابطون على مدار الـ 24 ساعــة، وإمكانية حدوث هذه الحرب –وفقاً لإستراتيجية الطرفين– بين عامي 2005 و 2010. وأيضاً شارك الأمريكيون في تلك اللعبة العسكرية ودعوا بجدية في تقرير صادر عن البنتاجون أنه ينبغي على تايوان إنشــاء سد دفاع ثلاثي، وجاء الــرد سريعاً من بكين على لسان الجنرال (ليو يوان) في صحيفة تشينا ديلي (الصين اليومية): «أن هذا سوف يثير رد فعل عكسي يهز العالم كله»؛ وبصرف النظر عن سمك السد الذي يبلغ 100 متر فإنه لا توجد أي قوة صاروخية في العالم قادرة على اختراقه.

الفصل الحادي عشر

غزو سلمي

الرياضيون والسياح الصينيون يغزون العالم

«ليست مشكلة أن يبذل الصينيون جهوداً كبيرة في مجال الرياضة بل إن هذا يُعد أمراً مثيراً للإعجاب، ولكن المشكلة أنهم بهذه الطريقة لن يتركوا لغيرهم الفرصة للفوز بأي ميدالية في بكين 2008 وسيكون هذا شيئاً في غاية الصعوبة بالنسبة لنا».

جيم شير

رئيس اللجنة الأولمبية الأمريكية

أثينا في صيف 2004، حيث تجمع -كما يقولون- شباب العالم في العاصمة اليونانية للتنافس من أجل الحصول على الميداليات الأولمبية، فمن ناحية كانت هناك نظرة للماضي بالنسبة للقيمة التاريخية في التنافس على الفوز في تلك الألعاب الأولمبية وسباقات الماراثون حيث إن تلك الألعاب ترجع لأكثر من ألفي عام ثم أعادتها تلك البطولة إلى مسقط رأسها الأسطوري.

ومن ناحية أخرى كانت هناك نظرة مستقبلية فقد أعطت منافسات أثينا إشارة واضحة بمن سيهيمن على الألعاب الأولمبية في القرن الحادي والعشرين: الصينيون، ومع ذلك فقد هبط الرياضيون الصينيون فقط إلى المركز الثاني بعد الولايات المتحدة (في حصد الميداليات الذهبية)؛ أو المركز الثالث (عند حساب جميع الميداليات).

وهكذا أصبحت دول العالم الغربي تنظر نحو الصين بدهشة وإعجاب، حيث قدمت أثينا الدليل على أن الصين ليست مجرد قوة سياسية أو اقتصادية فقط ولكن أيضاً قوة رياضية عالمية عظمى، وخرجت مجلة (لايف ويك) في بكين بعنوان ضخم: (أولمبياد الصين - عصر القوة).

ولم يكن هناك فقط الرياضيون الصينيون الناجحون الذين تألقوا في أثينا،

ولكــن كان هناك أيضاً آلاف من السيــاح الصينيين الذين جاؤوا من أجل تشجيع بلادهم في الأولمبياد وأيضاً للنزهة والتسوق في العاصمة اليونانية.

ولم يعد السفر للخارج يمثل عبئاً ومشقة كما كان في السابق، أو مقصوراً فقط على الموظفين ذوي الدرجات العليا، فاليوم أصبح يمكن لأي شخص تقريبــاً السفر إلى أي مكان يريــده، وهناك الكثير مــن الصينيين لديهم ما يكفي من المــال للسفر خارج الحدود، وقد سافــر للسياحة الخارجية عام 2005 حــوالي 20 مليون صينــي، ولذا فإنهم قد تجــاوزوا اليابان لأول مرة كأكثر بلد آسيوي يسافر سكانه للخارج.

ونحــن الآن في بدايــة غزو سلمــي للسياحة الصينية حيــث سيربح كل العاملــين في مجال السياحة والسفر، من شــركات طيران وفنادق ومطاعم وتجار جميعهم سوف يستفيدون من السياحة الصينية.

قبل بضــع سنوات كان السائحون حول العالم فقــط من أثرياء الولايات المتحدة واليابان والشرق الأوسط، ولكن الآن جاءت أفواج جديدة قادرة على تحمل أعبــاء السفر؛ حيث تكلف الرحلة للفرد الصيني الواحد مابين 1700 إلى 2500 يورو.

وفي كل عام يــزداد عدد السياح الصينيين بنحــو 20٪ ووفقاً لتقديرات منظمة السياحة العالمية فإن عــدد السياح الصينيين الذين سوف يسافرون للخارج عام 2020 سيصل إلى حوالي 100 مليون سائح صيني، ويقول (هي كــوانج وي) مدير إدارة السياحة الوطنية لصحيفة (بيوبلز ديلي): «إن هذا قد جاء كنتيجة للنمو السريع لاقتصادنا ورغبتنا في مشاهدة العالم».

ويسمح للصينيين الآن السفر إلى 73 بلدة من البحر الجنوبي حتى (فيجي)

و(تونجا)، حيث إن حميع تلك البلدان قد وقعت اتفاقيات ثنائية مع بكين وكذلك باقي الأماكن السياحية المشهورة في انتظار توقيع اتفاقيات مماثلة.

وقد أصبح الجميع الآن يتنافسون على الفوز بهذه الأعداد من السياح الصينيين، ولذلك فقد قامت لجنة السياحة بولاية (نيفادا) بفتح مكتب لها في بكين للعمل على جذب السياح الصينيين إلى الولايات المتحدة، ويذهب محبو لعب القمار من الصينيين إلى (لاس فيجاس) حيث يضعف العديد من الصينيين أمام إغراء القمار لأنه يُعد التسلية المفضلة لديهم بجوار التسوق.

هونج كونج الهدف القريب

ينطلق القطار بين هونج كونج وقوانجتشو أربع مرات يومياً ذهاباً وإياباً، ويستغرق حوالي ساعتين أو أكثر قليلاً في قطع تلك المسافة التي تبلغ 140 كيلومتر، وتكون معظم تلك العربات الزرقاء ممتلئة في أثناء المسافة بين كولون-كانتون، وهناك عدد قليل من السياح الغربيين يجلسون في تلك المقاعد الضيقة لكن أغلب المسافرين من الصينيين الذين يحملون حقائب تسوق ممتلئة.

في منتصف 2003 سمحت حكومة بكين لرعاياها بالسفر والانتقال إلى إقليم هونج كونج والمقاطعة المجاورة قوانجدونج بعد أن كان من غير المسموح السفر إلى تلك المستعمرات السابقة إلا ضمن أفواج سياحية جماعية.

ومنذ ذلك الحين يتدفق شهرياً نحو هونج كونج أكثر من مليون صيني،

ينتقلـون عبر مطـار (شيك لاب كوك) أو محطة (لـو وو)، وبعد وصولهم لهـونج كونج فإنهم يبحثون عن مكان للإقامـة وينبغي أن يكون في حدود إمكانياتهـم بداية من نجمتين أو ثلاث نجوم حتى أعلى درجة، ولكن حتى لـو أن بعض الصينيين لديهم المقدرة على تحمـل تكاليف الفنادق الفاخرة فإنهم لديهم أولويات أخرى لأنفاق المال.

والتسـوق هـو النشـاط المفضل لديهـم عندما يكونـون في هونج كونج وتؤكـد هذه الحقيقة إحصائيات مجلس السياحة في هونج كونج حيث ينفق الصينيون هناك 12,3٪ من ميزانياتهم للنوم و68,5٪ من أجل متعة التسوق.

وتنتعش تجارة التجزئة في هونج كونج بعـد سنوات من الضعف؛ حيث عانـت لفترة من حالـة الركود الاقتصـادي بعد تسليم السلطـة للصينيين حيـث قل عدد السائحين الغربيين، وانتشر وبـاء الـ(سارس)[1]، ولكن يتم تعويض هذا الآن ملايين المرات فالمواطنون الصينيون يأتون ويتسوقون.

وعندمـا تأتـي لتتسوق من هـونج كونج يجـب عليك أن تفكـر جيداً. منـذ وقت قريب تمـت مناقشة رسالة ماجستير تتحـدث عن فوائد تجاهل أصحـاب المتاجر للعمـلاء، لأن العديد من الأثرياء يظنـون أنه ينبغي على البائعين معاملتهم ببرود منذ النظرة الأولى، وقد استجاب أصحاب المحلات التجاريـة في هونج كونج لغـزو المشترين الصينيين، حيـث اكتشفوا وجود

(1) سارس: بدأ ظهور فيروس سارس في الصين واحد ينتشر في بلدان العالم ولاسيما في دول جنوب شرقي آسيا ليصيب ضحاياه بصعوبة التنفس والتهاب رئوي حاد غامض عرف لاحقا بمتلازمة الالتهاب الرئوي (اختصار SARS) اتخذ اسمه للوباء. لا يوجد له حتى الآن لقاح فعال للوقاية منه. ظهر كتهديد عالمي في مارس من عام 2003م وسجلت أول إصابة في شمال الصين في شهر ديسمبر من عام 2002م. (المترجم)

فئـة جديدة في المجتمـع يستهويها الإنفاق، لذا فـإن التجار هناك يقبلون التعامل بمختلف العملات مثل دولار هونج كونج واليوان الصيني وبطاقات الائتمان.

والعديـد مـن الأشخاص هنـاك يرغبون في شـراء السلـع الاستهلاكية والكماليـات مثل الساعات والمجوهرات والملابس، تقول (لورا وينكي) مديـرة التسويق لمتجر (لين كروفورد) الفخم في حوار لصحيفة فاينانشال تايمز: «إنهم لا يعرضون السلع فقط ولكنهم يبيعونها بكميات هائلة».

وينبغـي أن تكون تلك المنتجات مكلفة حيث إنها تحمل أسماء ماركات عالمية مشهورة مثل: كارتييه، ولانفين، وباتيك فيليب، وبرادا، وزيسجا.

أوروبا في خمسة أيام

يعتـبر الأول من سبتمبر 2004 تاريخـاً مهماً لدى 27 دولة أوروبية؛ فمنذ ذلـك الحين سُمح للأفواج السياحيـة الصينية السفر إلى هناك، فقد وقعت هـذه البـلاد -بما فيهم ألمانيـا- اتفاقاً مـع حكومة بكين لتبـادل الأنشطة السياحية.

ويمكن للأفواج السياحية الصينية الآن زيارة جميع دول الاتحاد الأوروبي باستثناء الدنمارك وبريطانيـا العظمى وأيرلندا، حيث مازالت تلك البلدان تتفاوض بشأن هذا، وفي مقـال نشرته الفاينانشال تايمز يقول: «يعتبر فتح أوروبا أمام الصينيين هو الحدث الأكثر دراماتيكية منذ أن بدأت الصين في تخفيف القيود المفروضة على السفر في بداية الثمانينيات».

ومنـذ اثني عشر عاماً لم تكن هناك رحلة واحدة بين شنجهاي وأوروبا،

اليوم تحلق طائرات تحمل جميع شعارات شركات الطيران الأوروبية تقريباً فوق نهر اليانختسي، فعلى سبيل المثال: لوفتهانزا (تقريباً مرتين يومياً)، والخطوط الجوية الفرنسية، وKLM، والخطوط الجوية الأسترالية، وSAS، وطيران فنلندا، والخطوط الجوية البريطانية، وفيرجن. وليس من شنجهاي فقط ولكن أيضاً يُقلع يومياً من مطار بكين آلاف السياح الصينيين إلى أوروبا، أكثر من 600,000 عام 2003 ومازالت الأعداد تتزايد.

وكما كانت رحلات اليابانيين إلى أوروبا في أفضل أوقاتها السابقة؛ ثلاثة بلدان في 12 يوماً، وهذا النظام يعتبر أكثر اقتصاداً، وجرت العادة على البدء بلندن ثم باريس وبعدها روما، وكل هذا من خلال حافلة يستأجرونها فتكون أوفر وأكثر راحة.

كذلك يمكن أيضاً شراء تذاكر قطارات أوروبية من بكين ولكن بيعها أقل نظراً لارتفاع ثمنها، ويشير (بان جانج) من وكالة (صن رايز) لخدمات السفر والسياحة في حديث لصحيفة (تشاينا ديلي) حيث يقول: «تكلف تذكرة الفرد بالقطار حوالي 100 يورو، بينما تكاليف استئجار حافلة من نوع مرسيدس بنز تكلف فقط 400 يورو في اليوم وتتسع لـ 54 شخصاً».

والأماكن السياحية الأكثر شعبية في رحلات الصينيين إلى أوروبا هي: برج إيفل ومحلات ديور في فرنسا، ومعالم روما القديمة ومحلات جوتشي في إيطاليا، وميادين الساعات والجبال في سويسرا.

ويسعد سكان هذه البلدان بتدفق الزائرين عليها، حيث يقول نائب وزير الخارجية الإيطالي (أودولفو أوروسو) مبتهجاً بذلك: «هذه فرصة تاريخية فريدة لإيطاليا، ويمكن للسياح الصينيين الجدد الذين تجاوزا عدد

السياح اليابانيين أن يعوضوا نسبة الانخفاض من السياح الألمان».

وفي غضون العقد المقبل -كما يتوقع (بول رول) رئيس هيئة السياحة في باريس- سوف تكون الصين أكبر أو ثاني أكبر قوة سياحية قبل البريطانيين والأمريكيين أو حتى اليابانيين.

وتمتلئ باريس بالفعل بأعداد هائلة من السائحين الصينيين، حيث يتم توزيع العديد من الكتيبات باللغة الصينية التي تحتوي على أشهر المعالم السياحية مثل (متحف اللوفر) ومعارض (لافاييت)، وأصبحت فنادق باريس تقدم الشاي الأخضر والصحف الصينية وأيضاً وجبات الفطور الصينية التي تتكون من حساء الأرز المائي.

كما أنها تستعد لألمانيا أيضاً

تقلع طائرة الجامبو التابعة لشركة لوفتهانزا مرتين يومياً فوق نهر الراين من الصين إلى فرانكفورت، ويهبط منها في كل مرة من 300 إلى 400 راكب معظمهم سياح صينيون حيث يستقبلهم هناك موظفو الخطوط الجوية الألمانية ويتكلمون معهم باللغة الصينية ويقدمون لهم كل الرعاية اللازمة.

وتكون فرانكفورت هي المحطة الأولى للسائحين الصينيين، حيث يقول (فرانك ألبريشت) متحدثاً لصحيفة (فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج) عن برنامج رحلة الأفواج الصينية: «يأتون من آسيا ثم يهبطون في باريس أو لندن أو فرانكفورت».

و(ألبريشت) لديه محل لبيع العطور في شارع جوته بفرانكفورت، ويشتري منه العديد من الصينيين، ومن كثرة تعامله مع الآسيويين تعلم

بعض الكلمات الصينية مثل: ني هاو (يوم سعيد)، شيه شيه (شكراً)، زي جيان (إلى اللقاء).

ويوجد حوالي 650,000 مكان لمبيت الصينيين تم حصرهم من قبل مكتب السياحة بألمانيا، ويتوقع أن يصل عددهم عام 2009 إلى حوالي مليون، وعادة لا يأتي الصينيون لزيارة الأماكن السياحية أو الثقافية بل إلى الأماكن التي يوجد فيها محلات رخيصة للتسوق من هناك؛ مثل منطقة كاتدرائية كولونيا.

وبالطبع يتوقفون أثناء جولتهم بألمانيا لمشاهدة بحيرة (تيتي) عند الأكواخ المبنية من خشب الوقواق، و(ميتسنجين) أيضاً أحد المحطات الصينية المهمة في ألمانيا، حيث تقدم الوجبات الصينية هناك ويمرون عليها في رحلتهم التي تستغرق ستة أيام في الأراضي الألمانية، كما يزورون أيضاً (روتنبورج أوب دير تاوير)، ومصانع: BMW، وأودي، ومرسيدس بنز، وبوس.

ولكن ما هي أكثر الأشياء التي يفضلون شراءها؟ يقول (مانج تشن) من أحد مكاتب السفريات في هامبورج: «من أكثر الأشياء التي تحظى بشعبية كبيرة ويشتريها السياح الآسيويون سكاكين من ماركة زولينجن، والساعات والعطور الباهظة الثمن، وأسطوانات الموسيقى الكلاسيكية».

كما يوجد في ميونخ محلات تبيع المنتجات الحرفية الألمانية خصيصاً للسياح الصينين، حيث إن أصحابها صينيون ويدركون جيداً ما الذي يفضل أبناء وطنهم شراءه من هذا البلد.

ويعتبر المركز الألماني للسياحة DZT بمثابة دليل الصينين للتسوق، وقد

افتتـح مكتـب لـ DZT في العاصمة الصينيـة ليتعاونوا مـع وكلاء السفر وأصحـاب الفنادق في القيام بحـولات ترويحية لألمانيا مـن الصين كما يقومـون بتوزيع نشرة شهرية يتم فيها عمل لقـاءات مع بعض العاملين في مجـال السياحـة الصينية وينشرونهـا أيضاً في موقع علـى الإنترنت خاص بالصينيين.

عندما يسافر الصينيون

الصينيـون ليسوا ضيوفاً بسطاء، فهم لديهـم عاداتهم التي تحير غيرهم، خاصةً عندمـا يتم حدوث تصادم بينهم وبين آخريـن من ثقافات مختلفة، ولكن ينبغي أن نتكيف مع أولئك الضيوف الجدد ومعاملتهم كما ينبغي.

فـإن الصينيين مثـلاً صوتهم عـالٍ؛ أعلى بكثـير من السيـاح اليابانيين أيضـاً لدرجة أنه يمكن لأحدهم فتـح غرفته في الفندق والتحدث مع باقي أصدقائه وهم في آخر الردهة، وهم أحياناً يتناولون الحساء داخل غرفتهم، وأحياناً أخرى يتركون المياه تفيض من أحواض الاستحمام.

نعم، وممـا يزيد الصين بلة شراهتهم الكبيرة للتدخين، فالصينيون يعدون هم أبطال العالم في التدخين، ولذلك يوصي (بنيامين فوتوت) -صاحب محل مجوهرات (فان كليف آند أربيلز)- كل من يتعامل مع الشعب الصيني ينبغـي أن يحتفظ دائماً لديه بمنفضة سجائر حيث إنهم مدخنون من العيار الثقيل ولا يشعرون بالراحة في أداء أعمالهم إلا وهم يدخنون.

ودائماً تقـال نصائح مهمة للعاملين في مجال السياحة ويحتكون بشكل مباشر مع الأفواج الصينيـة لدرجة أن المكتب السياحي في سويسرا أصدر

كتيب تعليمات لأعضائه يحتوي على الدليل المباشر للتعامل مع الزوار القادمين من الشرق الأقصى وفيه تحذير لأصحاب الفنادق بأن لا يعطوا أبداً غرفة بها رقم (4) للنزلاء الصينيين لأنهم يعتقدون أن هذا الرقم جالب لسوء الحظ وفقاً لثقافتهم.

ولكن الصينيين لا يفضلون النزول في تلك الفنادق الفاخرة حيث إنهم يختارون دائماً الفنادق والمطاعم الرخيصة، كما أنهم أيضاً يدسون أنوفهم في كل شيء ويظلون يتفحصون قائمة الطعام لفترة طويلة وربما يعودون إلى منازلهم بدون تناول الطعام ليقوموا بإعداده بأنفسهم، وكل هذه العادات غريبة على المجتمع الأوروبي.

وتقدم أيضاً وكالة السفر الصينية الرائدة CYTS كتيباً إلى عملائها من الصينيين يحتوي على نصائح سلوكية مثل: «ليس من اللائق التحدث بصوت عالٍ، والبصق على الأرض، أو إلقاء النفايات في كل مكان».

وفي دورة الألعاب الأولمبية في أثينا كانت حقائب السياح الصينيين تحتوي لأول مرة على كتيب قواعد السلوك واللياقة.

التنافس في أثينا

ظهر حجم الصينيين الحقيقي في دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في أثينا، ففي أثناء مباريات المصارعة كان حامل راية المنتخب الصيني المصارع العملاق (ياو مينج) الذي يبلغ طوله 2,26 متر، وكذلك أظهر المنتخب الصيني في كرة السلة تفوقاً كبيراً على محترفي كرة السلة الأمريكيين أبطال الـ NBA.

وكان الرياضيون الصينيون في أثينا صغار السن، فقد كانت متوسط أعمارهم 23 سنة، وكان بطل الصين في تنس الطاولة يبلغ من العمر 21 عاماً وقد ذهب لأثينا وهو يحدوه الأمل الكبير في الفوز بالميدالية الذهبية.

وقاعدة الاعتماد على الشباب من أجل إعطائهم فرصة لاكتساب الخبرة والتجهيز لدورة الألعاب الأولمبية بكين 2008، حيث ينبغي أن يبذلوا حينها أقصى طاقتهم في اللعب على أرضهم، وقد قاموا بالفعل بإعداد إستراتيجية جيدة لذلك.

وقد حصد الشباب الصينيون في أثينا على العديد من الميداليات، وربما كان الدافع وراء ذلك الأموال التي تمنحها الحكومة للفائزين حيث يحصل أصحاب المراكز الأولى على ما يعادل حوالي 25,000 يورو، و15,000 للمركز الثاني، بينما يحصل أصحاب المركز الثالث على حوالي 10,000 يورو تقريباً، كذلك أيضاً يحصل الفائزون على عقود إعلانات تجارية مربحة تستخدمها العديد من الشركات الصينية التي تعرف منذ فترة طوية قيمة ترويج منتجاتها بواسطة الرياضيين الناجحين.

وبالطبع كان حصول الصين على العديد من الميداليات في أثينا أمراً غير متوقع، ويحاول (يوان وي مين) -مسؤول اللجنة الأولمبية الوطنية- تهدئة الأوضاع فيقول: «نحن لسنا قوة رياضية عظمى فمازالت هناك فجوة كبيرة بيننا وبين الولايات المتحدة وروسيا»، ويضيف أيضاً: «إننا مازلنا ضعفاء»، وقد شملت الميداليات التي فاز بها الصينيون الألعاب الشعبية المشهورة مثل: ألعاب القوة والسباحة والجمباز، بينما حصلوا على عدد أقل في التخصصات الجانبية مثل: رفع الأثقال والرماية، بينما

في التخصصات الرئيسية لم يحصلوا سوى على ميداليتين ذهبيتين فقط.

وقد حصلت (لو شيويه جيان) على إحدى تلك الميداليات في السباحة وصارت بعدها بطلة قومية في الصين، كما فاز أيضاً شاب نحيف من شنجهاي يدعى (لو شيانغ) في سباق العدو لمسافة 110 متر حواجز؛ وقد كان فخوراً جداً بنفسه وأمته وهو يقول: «لقد أثبت أن ذوي البشرة الصفراء يمكنهم العدو بسرعة كبيرة مثل ذوي البشرة البيضاء والسوداء».

اللعب مع الفريق القومي

ربما تكون فقط مجرد لعبة كرة قدم، ولكنها تمثل للبعض أهمية خاصة، وقد كانت المباراة النهائية لكأس الأمم الآسيوية لكنها لم تكن مباراة على اللقب فقط بل كانت صراعاً من أجل هيبة وكرامة الوطن حيث كان فريق الصين يلعب النهائي مع الفريق الياباني، وتحولت المباراة إلى مبارزة سياسية بين الخصمين.

وقد لعبا معاً في صيف 2004 في إستاد العمال ببكين، ولم تكن مباراة جيدة على الإطلاق، حيث فاز المنتخب الياباني على نظيره الصيني بنتيجة 1/3 وأعقب ذلك وقوع اشتباكات عنيفة بعد المباراة، حيث هتف المشجعون الصينيون بشعارات عدوانية للغاية مثل: «يسقط القراصنة اليابانيون»، وقد تم تحطيم سيارة تابعة للسفارة اليابانية.

وفي بداية المباراة عندما تم عزف النشيد الوطني الياباني أدار الصينيون ظهورهم للملعب، وكانوا يصيحون على اللاعبين اليابانيين إذا ما حصلوا على الكرة، ثم أخذوا يتراشقون مع المشجعين اليابانيين بالخضار وقاموا

بإحراق الأعلام اليابانية خارج الملعب.

لا، لم تكن هنـاك أي روح رياضية بالمرة، وقد انتقـد (بيتر فيلابان) – الأمـين العام للاتحاد الآسيوي لكرة القدم– بشدة تلك الاستضافة الصيبية (وفقاً لما نشرته صحيفة اليابان تايمز) قائلاً: «لم تكن هناك أي روح رياضية في اللعـب، إن الشعب الصيني لديه حضارة عظيمـة وتعليم راقٍ وتاريخ مشـرف ولكن اليوم... لست متأكداً إذا مـا كانت بكين ستقدم استضافة جيدة لدورة الألعاب الأولمبية أم لا».

مـع تزايد النهضـة الاقتصاديـة والسياسية للصـين ازدادت حدة النزعة القوميـة في البلاد، وبعد عقـود عديدة من الذل والحرمـان فقد أصبحوا فخورين للغاية بما وصلوا إليه من إنجازات ويريدون إظهارها للعالم أجمع.

ويضيـف (بيـتر جريسـ) حبير العلـوم السياسيـة الأمريكـي في كتابه (القوميـة الصينية الجديدة: كبرياء وسياسة ودبلوماسية) أن حكومة الصين الشيوعيـة كثيراً ما تلعب على نغمة تعزيز الروح القومية للصينيين، وذلك لقمع الأصوات المعارضة هناك.

وهـل تذكرون أعمـال الشغب المناهضة للولايـات المتحدة بعد قصفها (بالخطـأ) السفارة الصينيـة في بلجراد أثناء حرب البلقـان، كذلك يظهر الأمـر نفسـه في أثناء المسيرات المتكـررة المعادية لليابانيـين؛ حيث كانت الشرطة تقف بعيداً ولا تتدخل إلا متأخراً في أغلب الأحيان.

الفصل الثاني عشر

لا جديد في الشرق

متى ستصبح الصين ديمقراطية؟

«أنـا متأكـد من أن الصين سوف تحتاج في يوم من الأيـام للديمقراطية من أجل نظام حكومي متقدم، ولكن يلزم للصين فقط حكومة قوية لكي يمكنها الوصول إلى هذا؛ لأن الديمقراطية إذا جاءت فجأة سيحكم عليها بالفشل».

تشانغ تشاو يانغ

رئيس شركة sohu.com للإنترنت

إنهـا ليلة الخميس؛ بين الساعة الواحـدة والثانية صباحـاً، المكان: أي ملهـى ليلي أو ديسكـو في (شنيانغ)؛ وهي مدينـة في شمال شرق الصين، وقـد اشتهرت مدينة الستة ملايين نسمة تلـك بالصناعات القديمة المندثرة وارتفـاع معدلات البطالة مما جعلهـا تنبض بالحياة ليلاً، حيث تكتظ تلك الملاهي الليلية والديسكو بالناس كل ليلة.

وتمتلـئ المناضد بزجاجات البـيرة ماركة (هايكن)، ويتـاول الشباب الصينيـون تـراب الشيكولاتـه الأيرلنديـة الساخنة على البـارات، ومع صخـب الـ DJ يبدأ الشبـاب في الرقص والتمايل ويظهـر الوشم الذي وضعـوه علـى مناطق مختلفـة من أجسادهـم وهو يرتـدون سراويل تشبه الملابس العسكرية وتظهر الفتيـات في سراويل الجينز الضيقة الساقطة من عنـد الوسط وتكشـف طرف البكيني الذي تظهر ألـوان العلم الأمريكي عليه، ومع ارتفاع الموسيقى الصاخبة يزداد الرقص سخونة.

ومـن خلال النظر إلى هذا المشهد يتبـادر إلى أذهاننا السؤال التالي: هل مارالـت تلك بلد شيوعية، أم أن الصين وصلت إلى (انحطاط) الرأسمالية الغربية؟

ويرى كثير من باحثي وخـبراء التسويق أن الصين اليوم في طريقها نحو

دولـة رأسماليـة غربية، ولكـن سيظل يطرح خلال سنـوات العقد القادم سـؤال مثير ورئيسـي: هل سوف تصبـح الصين -عندما تتحـول للنظام الغربي بالكامل- مهتمة بتطبيق الديمقراطية أيضاً؟

وللجـواب على هذا ينبغي النظـر نحو النموذج التايـواني، تلك الجزيرة المنشقة التي سلكت طريقها من ديكتاتورية حكم الحزب الواحد الاستبدادي إلى الحكـم الديمقراطـي، ويقول المنظرون المعاصرون لتلـك القضية إن هذا الطريق يعد بمثابة مسار إجباري؛ فمع تزايد حالة النمو والرخاء الاقتصادي تنشـأ طبقة متوسطة والتـي من شأنها النهوض للمطالبة بحقوق ومطالب سياسية، وهكذا جرى الأمر في تايوان وكوريا الجنوبية أيضاً.

ويشير النقاد المعاصرون نحو نموذجين آسيويين آخرين وهما: هونج كونج وسنغافـورة، حيث إن كلاهما بعيد عن الظروف الديمقراطية المثالية، ومع ذلك فإن معدل ارتفاع نصيب الفرد من الدخل لا يساوي نسبة مشاركته هناك.

والسباق مفتوح لذلك، فهـل ستذهب الصين العظيمة في طريق تايوان الديمقراطيـة الصغيرة، أم ستأخـذ نظام الحكم الاستبـدادي في سنغافورة كنموذج لها؟

وبالرغـم من كل هذا فـإن الحزب الشيوعي الحاكـم في الصين به نظام كادر حزبـي لا يسمح بحدوث أي تغيرات سياسية بجانبه، كذلك النظام السياسـي في الصين هو القمع الاستبـدادي واضطهاد المعارضين، لذلك فـإن حكومة بكين تسيطـر على الصحافة والإعلام هنـاك حتى يرى كل أولئك الذين يبهرهم المظهر الخارجي المتلألئ لبكين وشنجهاي.

مظهر خادع

الزوار الأجانب الذين يسافرون إلى الصين لبضعة أيام يجوبون في أثنائها المدن الرئيسية مثل بكين وشنجهاي فإنهم يلتفون هناك ثم يقولون: ليست كما كنا نعتقد إنها تبدو مثل مدننا تقريباً، وفي كل ركن تجد مطعم لماكدونالدز وكنتاكي فرايد تشيكن أو مقهى ستاربكي، ويمكن للألماني هناك الذهاب لأحد بارات (باولنر) لاحتساء الجعة الطازجة بمقابل حوالي سبعة يوروات.

وفي طريقه بين المحلات التجارية لكلا البلدين يجد تعامل اقتصادي منفتح وتقابله ضحكات ودودة على وجوه باسمة لأشخاص لديهم لغة تواصل وتفاهم جيدة، ثم يذهب السائح الألماني بعد ذلك نحو غرفته في أحد الفنادق الفاخرة ليشاهد قنوات BBC، وCNN، وDW (الدويتشه فيلله)، وربما يتناول أيضاً شراب الويسكي من ماركة جوني ووكر.

وعبر قناة CCTV يتابع الأحداث الرياضية حيث يتم بث مباشر على الهواء لحوالي خمس ساعات من ملاعب كرة القدم في ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا وأسبانيا، وإذا كان مهتماً بكرة السلة فيمكنه متابعة –مباشرة على الهواء أيضاً– مباريات الدوري الأمريكي لمحترفي كرة السلة NBA، العالم الغربي وكل وسائل الرفاهية يمكنك الحصول عليها في أي غرفة معيشة بالصين.

كل ما هو غربي وخاصة كل ما هو أمريكي يُعتبر (شيك)، وكذلك الحال بالنسبة لأولئك الذين يتناولون (إسبرسو) أو (إتيه ماكياتو) في ستاربكس، حيث يتصرف الكثير من الصينيين بالفعل مثل الأمريكيين والأوروبيين

ويتطورون وفقاً لذلك.

ولذلك فـإن الأطفال الذين يُعانون من السمنة قـد أصبح عددهم كثيراً للغايـة في الصـين، فحوالي 70 مليـون شاب صيني يعتمـدون في غذائهم بشكل رئيسي على الوجبات السريعة مثل ماكدونالدز وغيرها، وكل عام يزداد عددهم بنسبة 10٪.

وترتفع أعـداد الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالاً في المدن الصينية الكبرى كمـا هو الحال في الغرب، وكثير من الأزواج ينتظرون مدة قبل أن ينجبوا الأطفال وبعضهم يرغب في الامتناع عن ذلك من البداية، وعدد الشباب الأعزب أيضاً يزداد، وفي دراسة أكاديمية لإحدى الجامعات الصينية وكان معظـم المشاركين فيها تحت سن الـ 30 ومازالوا بدون زواج؛ فوجدوا أن نسبة 23٪ من بين النساء ليس لديهن صديق.

ولذلك فإننا يمكن أن نتصور منذ النظرة الأولى أن الصين في طريقها للتحول إلى النظـام الغربي فقد أصبحت تحكمها ثقافة الاستهلاك وليست الشيوعية، لكـن هذا الانطباع ربما يتغـير، فإن بكين وشنجهاي يمثـلان الصين الحديثة، ومـن يستقل القطـار الليلي الذي يتحرك في تمام السادسـة مساءً متوجهاً من بكين إلى شنجهاي سوف يرى صورة أخرى للصين غير تلك المعروفة.

بعد ساعة واحدة فقط وعندما يتجاوز القطار ضواحي بكين تبدو مراكز التسوق متألقـة والبيوت المبنية من الطوب الملـون متراصة بجوار بعضها لتكون قـرى صغيرة، عدد قليل من السيارات، وعدد كثير من الدراجات البخاريـة وعدد أكثر من الدراجات العاديـة، والناس، وغروب الشمس، ومساحـات شاسعة مـن الأراضي الزراعية، وذلك اللـون الرمادي الذي

يسيطر على معظم المدن القديمة.

وهكـذا فإن تلك الرحلة التي تستغـرق حوالي 14 ساعة تقريباً من بكين إلى شنجهـاي تعتبر بمثابة رحلة عبر الزمـيـن الحاضر والماضي، وعبر تلك الرحلـة نجد ذلـك التناقـض في هذه البلـدة يظهر بشكل واضـح للغاية، هنـا ناطحات سحاب وهناك أكواخ طينية، تماماً مثـل سياسة الدولة فهي شيوعية من الناحية الرسمية بينما تنغمس بأكملها في الرأسمالية.

ويتجلى هذا التناقض بين الخطـاب الشيوعي والحياة الرأسمالية بشكل أكـثر وضوحاً في (زيتياندي) -منطقـة ترفيهية تقع في وسط شنجهاي- حيـث العديد من الحانـات والمتاجر الكبرى والمطاعـم الراقية وفي المساء يخرج الصينيون حديثي الثراء للتنزه هناك بجانب السياح الأجانب.

كذلـك أيضاً بين مراكز التسوق الفخمة توجد متاحف صغيرة من نتاج العمل الثوري، وهنا كان مهد الحزب الشيوعي الصيني حينما قام الشاب الصيني (ماو تسي تونغ) مع أحد عشر من زملائه بتأسيس الحزب الشيوعي الصيني في 23 يوليو عام 1921.

وقـد شُرعت أغلب قوانـين الحزب هنا في (زيتيانـدي)، إلا أن الحزب الآن قـد أصبح مجرد ظاهـرة هامشية في الصين، وهو يحكم حوالي ملياراً و300 مليون نسمة بقبضة حديدية.

الانتقال الثلاثي الديمقراطي لتايوان

تايـوان ليست بلداً نموذجياً من الناحيـة الاقتصادية فحسب ولكن أيضاً من الناحية السياسية، وهذا أيضاً لا يعرفه غير القليلين، وقد تطورت تايوان

مــن ديكتاتورية الحزب الواحد الشمولي إلى نظــام ديمقراطي سليم وذلك بــدون أي عُنف، وقد تم الانتقال السلمــي للسلطة من خلال الانتخابات الرئاسيــة الديمقراطية للجزيرة في مارس 2000، وقد فاز فيها رئيس الحزب الديمقراطي التقدمي (تشن تشوي بيان) على منافسه (لي تنج هوي) رئيس حــزب الكومينتــانج الذي كان يحكم منــذ عقود، وفي أبريــل 2004 كرر (تشن تشوي بيان) فوزه، وبدأت شمس الديمقراطية تسطع على تايوان.

وقــد ظلــت جمهوريــة تايــوان تعاني لفــترة طويلــة تحت نظــام قمعي استبدادي حيث كانت تسيطر حكومة الكومينتانج منذ أواخر الأربعينيات عن طريق سن التشريعات التي تُمكنها من إعطاء الحرية للأجهزة الأمنية في مطــاردة غير المرغوب فيهم من المعارضين ومنتقدي النظام، ورأى البعض ممارســات حزب الكومينتــانج كـ(إرهــاب موجّه)، ثم بــدأت الأصوات المنادية بالديمقراطية في العودة تحت حماية الولايات المتحدة حتى صارت تايوان بمثابة حصن ضد الشيوعية إبان فترة الحرب الباردة.

وكانت البداية عند حدوث اضطراب في العلاقات بين الولايات المتحدة والصــين حيــث تم الضغط علــى النظــام الديكتاتوري الحاكــم في تايوان للسمــاح بممارسة بعض الحريات الديمقراطيــة، وبالتوازي مع ذلك بدأت في السبعينيــات تشــكل حركة ديمقراطية أطلقت علــى نفسها (دانجواي) أي: بعيداً عن الحزب.

وقــد أصبحــت (دانجواي) في عــام 1986 حزب سياســي رسمي وهو: الحزب الديمقراطي التقدمي، وكان هــذا التاريخ بداية لتحرير النظام، فتم رفــع الحظر عــن المعارضة وسُمحَ بحريــة الصحافة وشهــدت البلاد أول

انتخابات برلمانية حرة في بداية التسعينيات، اليوم أصبح لدى تايوان نظام برلمـاني ورئاسي قوي وراسخ، أستـاذ العلوم السياسيـة الألماني (إيبرهارد ساندشنايـدر) يقول: «يعتبر النظام السياسي في تايوان اليوم متوافقاً بشدة مع المعايير الغربية للديمقراطية».

وكان الأمر مماثلاً لما حدث في كوريا الجنوبية؛ حيث ظلت الديكتاتورية التنمويـة تسيطـر هنـاك لفترة طويلـة، وفي البدايـة كانت تُحكـم بقبضة (سينجمان ري) القوية، ثم الجنرال (بارك تشونج هي) الذي وصل للسلطة عـبر انقـلاب 1961 وظل فيها حتـى تم اغتياله في أكتوبـر 1979، وبعد أن شهـدت البلاد حالة من الازدهار الاقتصادي اشتدت المطالبة بتوفير المزيد مـن الحريـات السياسية التي تمت الموافقة عليها أخـيراً في أكتوبر 1987 مع الإصلاحات الدستورية الأساسية.

لـدى (ديتر سنـج هاسـ) -الحاصل على درجـة الماجستـير في العلوم السياسية- وجهة نظر واضحة من خلال تجربة كلتا البلدين: «يمكن تطوير أنظمة الدولة أو التقـارب من نظام اجتماعي متطور من خلال المرور عبر نظام الديكتاتورية التنموية الذي هو بمثابة استبداد عادل، كمرحلة وسيطة ومؤقتة كما فعلت تايوان وكوريا الجنوبية».

وقام بعض زملاء (ديتر) من متبعي نفس تلك النظرية برصد حجم الدخل السنوي للسكان في البلاد التي تمر بمرحلة التحول من الحكم الاستبدادي للديمقراطي؛ فوجدوا أنه يتراوح ما بين 400 و500 دولار للفرد، بينما على العكـس فـإن متوسط دخل المواطـن في هونج كونج يصل لحـوالي 25,000 دولار سنوياً وهي مازالت غير ديمقراطية

درس هونج كونج

كان يسود جو من الحرارة الحارقة في الأول من يوليو عام 2004، فقد بلغت درجة الحرارة الصغرى 35 درجة مئوية في الظل بمنطقة هونج كونج، وبالرغم من ذلك فقد غادر 530,000 شخص منازلهم المكيفة وخرجوا لشوارع المستعمرة السابقة، حيث أرادوا الاحتفال بذلك اليوم الذي يوافق ذكرى الانتقال من الحكم البريطاني إلى الصيني فقد عادت هونج كونج إلى الصين في مثل هذا اليوم عام 1997 إلى موطنها الأصلي جمهورية الصين الشعبية.

وفي الأول من يوليو 1997 خرجت المظاهرات تؤيد العودة للصين بينما في الأول من يوليو 2004 خرجت نفس الجماهير تحمل لافتات وتردد شعارات عن حرية الكفاح من أجل الديمقراطية ويهتفون جميعاً بـ(عودة السلطة للشعب).

وأثارت تلك الاحتجاجات الشاملة موقف القيادة الصينية المتجمد، وقد بقيت أسابيع على اختيار بكين لرئيس وزراء من هونج كونج والذي سيتم في عام 2007 ويبدو أن بكين سيكون موقفها الرفض.

وانتقد الديمقراطيون في هونج كونج بقوة موقف الحكومة الصينية وانضمت الولايات المتحدة والقوة الاستعمارية السابقة بريطانيا العظمى للمنتقدين، لكن تلك المزاعم الغربية والنفاق السياسي هناك يصعب التغلب عليه، وقد ظل البريطانيون على مدى عقود طويلة خلال فترة حكمهم هونج كونج يعدون أهلها بإدخال هياكل أكثر ديمقراطية للنظام، ولكن لم يحدث شيء تقريباً.

وفي أثناء المفاوضات النهائية لتسليم هونغ كونغ لبكين قام (كريس باتن) –آخـر حاكم لمستعمرة هونغ كونغ وكان ذو شخصية قوية– بمطالبة الصين بما كانت تحجبه حكومـة الاستعمار البريطاني عن رعاياه لسنوات طويلة: الديمقراطية، وقد كانوا جميعاً وقتها مبتهجين لتخلصهم من البريطانيين.

ولكـن أولت الحكومة الصينية اهتماماً قليلاً للغاية بالديمقراطية في هونغ كـونغ، وخافـوا من نشـر المزيد منها هنـاك حيث إن تلك الحـدود يسهل اختراقها بصورة متزايدة.

وقد أخذ الحكام في بكين من هونغ كونغ درساً جيداً في أن إعطاء البلاد القليل من الديمقراطية ليس بالأمر الجيد، وإذا كنت ترغب في رؤية نموذج آخـر فهو يقع أيضـاً هناك على بعد عـدة آلاف من الكيلومـترات جنوباً وتسيطر عليه الصين أيضاً، إنه: سنغافورة.

الحكم المطلق في سنغافورة

في وسط الحدائق التي تقـع في قلب المدينة هناك مبنى استعماري أبيض رائـع كان في السابق المقر الرسمي للحاكـم البريطاني وهو الآن مقر إقامة رئيـس وزراء سنغافورة، ويقع مكتبه أيضاً في الطابق الثاني من نفس المبنى حيـث يجلس هنـاك (لي هسين لونغ) منـذ أغسطـس 2004 ويحكم 4,2 مليون نسمة من أبناء شعبه.

وعلى بعد طابـق واحد يقيم (لي كوان يو) والد (لي هسين لونغ)، وهذا الرجـل ذو الشعر الأبيض يتجاوز سنه الثمانين ويلقب بالوزير الأكبر –أياً كان ما يعنيه هذا– وبدون (لي كوان يو) لا يتم أي شيء.

وهو مؤسس تلك الجمهورية التي استقلت عام 1965 في نزاع مع الاتحاد الماليـزي والطرف الجنوبي من شبـه جزيرة الملايو، ثـم أصبحت معجزة اقتصاديـة واليوم صـارت سنغافورة واحدة من البلـدان الأكثر تطوراً في العـالم من خلال شركات التكنولوجيا الفائقـة والصناعات المتقدمة والبنية التحتية المتطورة للغاية.

ولم يكن ممكنـاً حدوث هذه الطفرة المذهلة لتلـك البلد الصغيرة إلا من خـلال عـدة عوامل: مزايـا الموقع؛ نظـراً لوقوعها في جنوب شـرق آسيا علـى طريق الملاحة الرئيسي هنـاك، والكونفوشيوسية التي استمدوا منها النظـام والانضباط، واستثمارهم الجيد في مجـال التعليم العالي، والكفاءة، والبيروقراطيـة والحكومة الخاليان من الفساد، ويسيطر على تنظيم العملية الاقتصاديـة هنـاك مجلس التنميـة الاقتصادية EDB[1] الـذي يشغل أغلب وظائفه أشخاصـ درسوا في أهم جامعات النخـب في الولايات المتحدة وإنجلترا.

اليـوم أصبحت سنغافورة واحدة من أعلـى البلاد في العالم في معدلات دخـل الأفـراد الـذي يصـل لحـوالي 30,000 دولار، وبـدون ديمقراطية (بحسـب النموذج الغربي للديمقراطية)، (لي كـوان يو) الوالد أحد أتباع ووعـاظ المذهـب الكونفوشيوسي الذي يرى -مثل جـاره رئيس الوزراء الماليزي السابق (مهاتير محمد)- أن المذهب العقائدي يمثل النموذج البديل للديمقراطية الغربية.

Economic Development Board (1)

ولذلــك فإن البيروقراطيــين في سنغافورة يعملون بشــكل علني ويرون أيضــاً أن الديمقراطية أكثر خطورة مع التغيرات الحكومية المتكررة، ويقول أحد الدبلوماسيين من تلك البلد بشكل صريح: «ما الذي ينبغي تغييره كل بضــع سنوات في الحكومة فقط من أجــل الحفاظ على مظهر الديمقراطية؟ نحــن في حاجة لتنفيذ سريع للقرارات، لذلك جــرت العادة الصينية على مؤازرة الحاكم الجيد من قبل جميع طوائف شعبه».

ويهيمــن على تلك الميزات السابقة لسنغافورة أنه لا يوجد سوى حزب واحــد منذ تأسيس الدولة هــو: حزب العمل الشعبــي PAP[1] حيث فاز بجميع المقاعد البرلمانية منذ عام 1968 وحتى عام 1980 ولم يسمح بوصول أي معارض (سوى لمقعدين عام 1984).

وقــد كان حزب الـ PAP في السابق حــزب اجتماعي ديمقراطي وأيضاً اشتراكي قومي –مثل الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني– لكن برنامجه اليوم تحول نحو الحرية الأيدلوجية.

واستطاع إقناع الناخبــين أن سياسات الحزب وحكومته تنجح في رفع مستــوى معيشتهم، وفي هذا الصدد وعلى غرار الحزب الشيوعي الصيني الــذي حقق شرعيته عبر ازدهار الحياة الاقتصادية للشعب الصيني، وهناك سمة أخــرى مشتركة بينهما وهي أن حزب العمــل الشعبي في سنغافورة يعمل أيضــاً بنظام الكادر الحزبــي المتبع في الحــزب الشيوعي الصيني في سياسات صنع القرار من أعلى إلى أسفل.

(1) Peoples Action Party

وعموماً فإن كلا النظامين في الصين وسنغافورة ليسا بعيدين عن بعضهما البعض، ولا عجب أن يكون (لي كوان يو) شخصاً مُرحباً به في الصين وأيضاً فإنه كثيراً ما يطلب استشارة السلطة هناك حيث كان أجداده عمالاً صينيين فقراء هاجروا إلى سنغافورة.

وقد ظهر نموذج مصغر من سنغافورة في مدينة (سوتشو) التي تقع بالقرب من شنحهاي، حيث أنشئت هناك -بدعم من سنغافورة- حديقة صناعية حديثة وضخمة يعمل ويسكن بها حوالي 400,000 نسمة.

الصين وسنغافورة تمضيان سوياً على نفس الطريق، العديد من احتجاجات النقابات العمالية والإلقاء بالمعارضة في السجون بدون أي تهمة أو دليل وهذا بموجب قانون الأمن الداخلي.

تقييد لحرية الرأي ورتابة في المشهد الإعلامي، وتوجد هناك ثلاث صحف يومية هي: ستريتس تايمز، وبيزنس تايمز، ونيو بيبر، ويتم طبع الثلاثة داخل دار نشر تسيطر عليها الحكومة، ويقول (كلاوس ريختر) الذي كان يعمل مراسلاً لصحيفة ZDF في سغافورة: «إنها جميعاً تعتبر دعاية رسمية لبلدان الكتلة الشرقية السابقة».

ضجة فارغة

تعتبر مجلة (دير فار إيسترن إيكونوميك ريفيو) (استعراض اقتصاد الشرق الأقصى) أفضل مجلة اقتصادية في منطقة آسيا والمحيط الهادئ، فهي متخصصة وناقدة وتصل منذ عقود من كوريا الشمالية حتى سريلانكا، ويقع مكتب تحريرها في هونغ كونغ، وهي تتبع مجموعة (داو جونز)

الأمريكية.

و(ريفيـو) لها مراسلون في بكين وشنجهاي وهـم يعرضون وينتقدون بشـدة ويحللون مع باقـي زملائهم في كافة البـلاد، وهي في نظر الحكام الصينيـين تواصـلاً في النقـد لمجرد جـذب المزيد من القـراء، ولكن عند الذهـاب لشراء عدد من (ريفيو) من أحد الباعـة بجوار فندق فخم أو في منطقـة راقيـة يجيبك البائع بقوله: «آسف يا سيـدي لم تصل بعد»، ولكن «لماذا»، فيهز كتفيه بلا مبالاة.

والسـؤال هو مـا الذي تفعله الرقابـة الحكومية بالضبـط؟ ولكن البائع لا يملـك أي جواب على هـذا السؤال، فإن هناك القليـل فقط من وسائل الإعـلام الأجنبية المطبوعـة هي التي يُسمح بتداولهـا داخل البلاد بسبب الانتقادات اللاذعة لمعظمها ضد سياسات جمهورية الصين الشعبية.

ويوجد بالفعـل العديد من المراسلين الأجانب داخل الصين ولكن تضع الحكومة عليهم رقابة صارمة وتقيد الأجهزة الرقابية هناك حرية حركتهم، وإذا حـاول أحدهم عصيان تلك الأوامر ولو مـرة واحدة فإنهم يتهمونه بارتـكاب سلوك غير مشروع وتصل العقوبة إلى الطرد والترحيل في بعض الأحوال.

وبالتـالي فإن كل المراسلـين الأجانب يعملون تحت سيـف ديموقليس[1]

---

(1) سيف ديموقليس كان ديموقليس عضواً ببلاط ديونيسوس الثاني حاكم سيراكوسة بصقلية من سنة 367 الى 344 ق م وكان شخصاً متملقاً محتالاً وكانت أسمى مطالبه أن يصبح ملكاً ولو ليوم واحد، ولتلمس ديموقليس الفرص دعاه ديونيسوس الى حفل كبير على شرفه، وعلى فوق مقعده سيفاً مربوطاً بشعرة من ذيل حصان وجعله ملكاً طالما هو جالس على هذا الكرسي، وهكذا عاش ديموقليس يومه الملكي تحت رعب أن تنقطع الشعرة ويسقط السيف عليه ويقتله وأصبح سيف ديموقليس مثلاً يضرب للتهديد بالخطر (المترجم)

وهو الطرد هنا، (ولكي نكون منصفين فينبغي أن نعترف أن الصينيين لم يستخدموا هذا في تلك السنوات الأخيرة)، ولكنهم يحرصون للغاية على انتقاء المطبوعات المتداولة خاصةً في الفنادق الفخمة للمدن الكبرى مثل بكين وشنجهاي، وغالباً ما يندر الحصول على مطبوعات أجنبية في سلاسل فنادق الدرجة الأولى والمطارات بالمدن الكبرى مثل: نينجبو، وتشيج تاو، وشيانغ، حيث يبدوا أنه من العبث محاولة البحث هناك عن (إنترناشونال هيرالد تريبيون) أو (آسيان وول ستريت جورنال) أو (ساوث تشاينا مورننج بوست) حتى في مطار شنجهاي الجديد ومطار (بودينج) الدولي.

وفي الوقت نفسه يتم توزيع العديد من الصحف القومية التي تمتلئ بالأكاذيب، فعند خروجك من صالات المغادرة في مطار شنجهاي تجد كتلاً ضخمة من نسخ مجانية لصحيفة (تشاينا ديلي)، وهي عبارة عن نشرة مختصرة من ثماني صفحات تخضع لرقابة صارمة وتعرض ما حدث في الصين والعالم الخارجي، وتقدم محتوى مملاً، وهي توزع على الصعيد الوطني وأغلب عناوينها الرئيسية وتقاريرها تأتي من وكالة (شينهوا) للأنباء.

ويقدم المشهد الإعلامي في الصين صورة غير صادقة، فأغلب اهتمامات الصحف والمجلات غير سياسية مثل السيارات والمرأة، لذلك فإن أعمال الصحافة الصفراء تزدهر هناك.

وبالرغم من كل هذا فإن التغطية الإعلامية هناك قد تحسنت بكثير عما كانت عليه قبل 10 أو 15 عاماً في الماضي، حيث أصبح من المستحيل

السكوت عـن أي حوادث تقع داخل هذا البلـد العملاق، ويتم الحديث كثيراً عـن العديد من المشـاكل الاجتماعيـة والبيئية، مثل مـا تتناوله مجلة التحقيقـات (تساي حينج)، ولكن مازال لا يسمح للصحفيين بكشف ما يحدث في مؤسسات الدولة من فضائح البنوك والمسؤولين الحكوميين.

وإذا تم إهمـال ذلـك مـن قبل المراسلـين فإنه يتم التعامـل معهم بقسوة شديـدة كما حدث من قبل في صحيفة (ساوثـرن ميتروبوليتان ديلي) في مدينـة قوانجتشو عندما أدين بعض المحرريـن وتم اعتقالهم بسبب نشرهم لبعض وقائع التعذيب في أقسام الشرطة.

ولكن، هل يمكن الحفاظ على مثل هذه الرقابة في عصر الإنترنت؟ وهل تتمكـن الدولة من مراقبة كل ما يتم نشره عـبر شبكة المعلومات؟ وبعد أن بلغ عدد مستخدمي الإنترنت في الصين 90 مليون مواطن وهو أكبر مجتمع علـى الإنترنت بعد الولايات المتحدة، فلن يمكـن للحكومة السيطرة على هذا الحشد؟

نعم يمكن كل ذلك في الصين، ويستطيعون فرض رقابة شاملة عليه، فإن حركة مرور شبكة المعلومات تتم عن طريق مُلقمات (سيرفرات) حكومية، ووفقـاً لصحيفة (انترناشيونال هيرالد تريبيون) فهناك ما يزيد على 30,000 شرطي إنترنـت يراقبون ويرصدون جميع البيانـات في الصين، وكثيراً ما تمكنوا من عرقلة الوصول إلى بعض المواقع الحساسة، لذلك فإن الـ CNN هي أحد ضحاياهم المفضلين، وأيضاً يصل الأمر في بعض الأحيان لدرجة حظـر محـركات البحث العملاقة (جوجـل) و(ياهو)، ويقـول (كارستن جيـزي) من معهد الدراسات الشـرق آسيوية التابـع لجامعة هامبرج: «لا

يمكــن للمرء التأكد من تدخل الحكومة الصينية باعتبارها رقيباً أو أن يكون المستخدم يواجه فقط بعض الصعوبات التقنية في أثناء تصفحه».

وتراقــب السلطات أيضاً مقاهي الإنترنــت، وقد قامت بإغلاق الآلاف منهــا عــام 2002 لأسبــاب تتعلق بالأمــن بالطبع، ويتم رصــد أي شخص يتصفــح أو يتابع مواقع معارضــة للنظام حتى يتم استخدام هذا ضده، فإن العديديــن يستخدمــون الإنترنت كوسيلة إعلام مهمــة وأداة محفزة للتغيير السياســي، ويعلق أستاذ العلوم السياسيــة (سيباستيان هايلمان) على ذلك بقوله: «تساهم وسائل الإعلام وشبكة الإنترنت في ظهور نقاشات تعددية ومراقبة عامة في تقييم الأوضاع الحالية».

حكم الحزب الواحد

إنه أكبر حزب في العالم؛ الحزب الشيوعي الصيني، حيث تضم سجلاته عضويــة حــوالي 70 مليون مواطــن، ولا يزال الحزب يجـذب العديد من الصينيــين لعضويته، حيث توجد عدة مزايا عنــد الانضمام للحزب؛ فهو يساعــد على منح شهادات مهنية كما يسهــل الحصول على شقة أو رحلة للخارج.

ولم يعــد الأعضــاء هناك مجــرد عمال وفلاحــين من أولئــك الذين كان يضمهم الحــزب في السابق من بين الطبقات الفقيرة والمعدمة، ولكن بدل ذلــك أعضاء من الطبقــة الوسطى الجديدة، وعلى سبيــل المثال فإن معظم أعضــاء الحزب الجــدد في الـ 15 عاماً الماضية تقــل أعمارهم عن سن الـ 35 والعديد منهم حاصل على الشهادة الثانوية، ويقول (سيباستيان هايلمان):

«أصبحت الطبقة الوسطى الجديدة من السكان والمستفيدين من تلك الإصلاحات الاقتصادية هم الأساس الرئيسي والاجتماعي للحزب الشيوعي الصيني».

وعلى الرغم من أن قوة الحزب لم تعد شاملة كما كانت منذ 20 عاماً ولكنه مازال يحتفظ بشعبيته واحتكاره للسلطة، وقد وضع أذرعاً له مثل الأخطبوط في جميع أنحاء المجتمع وينتشر أعضاؤه في كافة الأماكن الرئيسية في الإدارة الصينية سواء في المناصب القضائية والإدارية والنقابات ومؤسسات الدولة والجمعيات الخاصة أو أجهزة الأمن العام كالشرطة والجيش وكلها تخضع لرقابة الحزب الصارمة.

وينتظم الحزب بشكل محكم كحزب كادر نموذجي حيث يرجع القرار النهائي إلى المكتب السياسي والذي يتألف حالياً من سبعة أعضاء ويعد بمثابة عصب الحياة للحزب، ويرأسه حالياً (هو جين تاو) رئيس الدولة والأمين العام للحزب، وبالرغم من كون (هو) رجلاً قوياً إلا أن قراره لا يكون دائماً حاسماً بالنسبة للحزب.

وذلك على العكس من العهود السابقة فترة حكم (ماو) و(دينج)، فلم يعد الحزب الشيوعي الصيني اليوم يسيطر عليه شخص واحد وبالتالي فإن قراراته لا تعتمد على آراء فردية، ويحافظ الحزب اليوم على أسلوب قيادة إدارية جماعية واستشارية، حيث يجتمعون بانتظام لتبادل وجهات النظر في (تشونغ نانهاي) وهي منطقة حكومية معزولة بجوار المدينة المحرمة.

هل تذكرون تبسيط الهياكل التنظيمية الذي اعتمد عليه حزب الكادر اللينيني، هـدا ما فعله الحزب الشيوعي الصيني واستمده من الأفكار

النموذجية لـ(لينين) ومن قبله (كارل ماركس) و(فريدريك إنجلز)، الديكتاتورية البروليتارية -الهدف النهائي الغامض للشيوعية- أصبحت الآن أبعد من أي وقتٍ مضى ويتم العمل في اتجاه مغاير لذلك تماماً.

لقد أصبحت ديكتاتورية الاستهلاك تحكم الآن كبديل عن ذلك حيث صار الحزب الشيوعي الصيني يستمد شرعيته فقط من خلال زيادة رخاء الشعب الصيني وتحقيق الكثير من فرص العمل، ومن خلال هذين الهدفين فقط يتبع الصينيون سياسة الحزب البرجماتية وليست الأيديولوجية.

وتمثل الشيوعية اليوم بالنسبة للحزب الشيوعي الصيني فقط مجرد اسم ومظهر، (لورانس براهم) الخبير الأمريكي بالشئون الصينية والذي يعيش في الصين منذ 30 عاماً يتحدث عن الحزب الشيوعي الصيني الجديد قائلاً: «يعكس الحزب في هذه الأيام وجهة نظر أقرب إلى الاشتراكية الجديدة التي تشهدها أوروبا».

وفي بعض الأحيان يختفي الدور الاجتماعي للحزب؛ فقد شاهدنا منذ سنوات كيف وقف الحزب عاجزاً أمام تلك الفجوة الاجتماعية الكبرى بين الأغنياء والفقراء، وكيف أن المزارعين هناك قد أصبحوا يزدادون فقراً، الآن فقط ومع الجيل الرابع للقيادة أصبحت مشاكل الفوارق الإقليمية والاجتماعية على لائحة اهتماماتهم بعد أن أدركوا أن الصراعات سوف تزداد حدة حتى تصل ذروتها في أعمال الشغب إذا لم يتمكنوا من إعادة تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة.

ولا يوجد الآن بديل للحزب، فلا أي منظمة أو جماعة أو حركة أو أي قوى اجتماعية أخرى قادرة على التصدي لديكتاتورية الحزب الشيوعي

الصيني ومواجهة احتكاره للسلطة.

ومع ذلك يأتي نفس السؤال المتكرر دائماً: إلى متى سيظل الحزب الشيوعي الصيني محتكراً للسلطة في بلاده؟ وهل ستكون الحكومة الصينية مثل نظيراتها في كوريا الجنوبية وتايوان في مرحلة ما قبل صعود الطبقة المتوسطة؟

أين المعارضة؟

الطبقة المتوسطة في الصين تنمو وتزداد، واستناداً للأرقام الصادرة عن الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية عام 2000 وبحسب (سيباستيان هايلمان) فإن هناك سبعة ملايين صيني ينتمون لطبقة النخبة، و123 مليون للطبقة العليا، و250 مليون للطبقة المتوسطة.

وستكون هناك تحولات كبرى إذا ما تحركت هذه الجماهير سياسياً ولكنها لا تزال فيما هي عليه حالياً، لأن مقاييس الأولوية في الصين تبدو مختلفة، حيث إن رغباتهم الأساسية تنحصر في الحصول على سيارة ومسكن أوسع ثم إنجاب طفل وتربيته ليصبح مثل أبويه في النهاية، وتبدو هذه القائمة من الأمنيات مشابهة إلى حد كبير تلك التي كان يحلم بها الألمان في فترة ما بعد الحرب في الخمسينيات والستينيات عندما ازداد احتياج الناس إلى السلع الاستهلاكية بجميع أنواعها، كذلك الأمر لا يختلف الوضع كثيراً في الصين اليوم، وتعلق على هذا النيويورك تايمز قائلة: «إن الحماهير اليوم هناك مشغولة بجمع المال لإنفاقه في متطلبات الحياة الأساسية لديهم».

وبالرغم من اتباع الصين اليوم لمسار تايوان وكوريا الجنوبية في نمو الطبقة المتوسطة وزيادة نسبة مشاركتها في المجتمع حتى تتمكن من القضاء على النظام الاستبدادي وإقامة نظام ديمقراطي إلا أن هذا أمر مشكوك في حدوثه للغاية، فقد رأينا ما تم بعد أحداث عام 1989 عندما تم قمع انتفاضة ميدان السلام السماوي (ساحة تيانانمين)، وبالرغم من إثارة ذلك للجدل إلا أن تكراره مازال مطروحاً.

والطبقة المتوسطة ليست غير مبالية بالأمور السياسية فحسب ولكنها أيضاً تعطي الأولوية لكسب المال والحصول على لقمة العيش، وبالإضافة لذلك فإن العديد من مواطني تلك الطبقة لديهم إيمان راسخ بالنظام السائد فمعظمهم كانوا يعملون في مؤسسات حكومية أو منظمات وشركات ذات مصالح مشتركة مع الحكومة لذلك فهم مازالوا يعتمدون على الدولة ولا يرغبون في عصيانها.

وأيضاً أصحاب المشاريع الخاصة فإنهم لا يستطيعون الاحتجاج بسبب المصالح المشتركة مع الدولة، وكما يقول (هايلمان) فإنهم لا تجمعهم هوية مشتركة غير المصالح، وهم يفضلون الاتصالات الفردية مع كوادر الحزب والحكومة، وهذا ساهم في عدم وجود أي احتجاجات سياسية طوال الـ 15 عاماً الماضية، لأنه لا يوجد أشخاص من بين الطبقة المتوسطة لديهم دخل مرتفع.

ولكن كان يدعم حركات الاحتجاج القليلة المختلفة شخصيات مثقفة من الأوساط الفكرية والفنية وأغلبهم يعيشون خارج البلاد، ويوجد الكثير منهم في الولايات المتحدة، وتطور وضع حركتهم الديمقراطية بعد أحداث 1989، كذلك فإن آراء المعارضة تختلف حيث إنها تنقسم إلى

قسمين: معرضة معتدلة وأخرى متطرفة.

المعتدلـون يريدون تحقق الديمقراطية في البلاد بشكل سلمي وتدريجي، ويدعو إلى إلغاء أو تقليص دور الحزب الشيوعي الصيني حتى تتمكن باقي الجماعـات السياسية والأحزاب الأحرى من أخـذ فرصتها، والمتطرفون يعملـون من أجل التوصل إلى تغيير فـوري في النظام بالقوة إذا لزم الأمر، ولـذا فـإن المعارضـة الصينيـة في المنفى تشهـد تنافساً شديـداً بين هذين الموقفـين، ومن أبرز الشخصيات المعارضة في الخارج: (وي جينج شينح) وهـو الذي يدعو دائمـاً لإيجـاد إستراتيجية مزدوجـة للمعارضة بحيث تكون متاحة وسرية.

وقـد ساد نهج معتدل بين المعارضـين الصينيين الذين يعيشون في داخل البـلاد، حتـى وقت قصـير، فقـد تم إنشاء حزبـين معارضـين في أواخر التسعينيـات: (تشونجهـو مينتشـو دانج) (الحـزب الديمقراطـي الصيني/ CDP[1])، و(تشونجهـو فاتشـان ليانيهـوي) (الاتحـاد الصينـي للتنمية/ CDU[2]) ولكن لم يتسامح النظام الرسمي معهما.

وتتبع الحكومـة موقفاً متشدداً، حيث ترى أنـه ينبغي قمع أي معارضة وهـي في مهدها، وتستخـدم لعملية القمع تلك نفسـ الأدوات المعتادة: السجـن، ومعسكـرات التعليـم والعمـل، والتجسس علـى كل صغيرة وكبـيرة، ومن خلال عمليات القمع اليومية تلـك فإن الصين تسيطر على

---

(1) Chinesische Demokratische Partei

(2) China Development Union

الأعداد القليلة من منتقدي النظام هناك.

(دينــج دينج) أستاذ العلــوم السياسية في جامعة برلين الحــرة يعتقد أن: «أنشطــة المعارضة في الصين تقتصر إلى حــد كبير على مجموعة قصيرة من الناس»، حيــث كان أعداد الشخصيات الصينيــة المعارضة والمعروفة عام 1993 لا يزيــد على 50 شخصاً، وقد أصبحوا اليوم وبعد كل ما جرى فقط مجرد بضع عشرات من الناشطين داخل المدن الرئيسية.

ولكــن نفوذهم لا يكاد يصــل إلى الحد الأدنى وهــم كذلك لا يجدون دعمــاً اجتماعياً قويــاً، وعدم وجود معارضة قويــة لا ينبئ بأي تغيير قادم للنظام نحو الديمقراطية، ولكن هل (سيستمر) ذلك الوضع؟

لا فوضى ولا ديمقراطية

(جــوردون تشانــج)؛ محام يعيــش في الصين مند 20 عاماً، وقــد كان يعمل في السابق لحساب مكتب المحامي الأمريكي (بول فايس)، وبجانب هذا كان يكتب عــن الصين لدى بعض الصحف الأمريكية، وقد كتــب في نهاية التسعينيات كتاباً بعــوان: (الانهيار القــادم للصين)؛ وذكر فيــه السيناريو المــروع للانهيار المتوقع للنظام الصيني، وقد ظهر هدا الكتاب عام 2001 ولكن حتى الآن لم يحدث شيء.

(بروســ جيلي)؛ صحفي، عاشــ أكثر من عشر سنوات في هــونج كونج وبعض المــدن الصينية الأخرى حيــث كان يعمل لصالــح مجلة (فار إيســترن إيكونوميك ريفيو)، وقام بتأليف العديد مں الكتب ظهر آخرها في عام 2004 بعنوان: (مستقبل الديمقراطيــة في الصيں)، ويتوقع فيه نهاية حكم الحــزب الشيوعي الصيني وبداية عهد الديمقراطية في الصين، لكں مازال الحزب يحكم البلاد بقبضة مں حديد.

ولكن ماذا سيحـدث؟ هل سيكون (تشانج) محقاً وتأتي تلك النهاية؟ أم سيكون (جيلي) على صواب وتنتقل الصين لمستقبل آخر مجيد؟

كمـا أن هناك بعض السيناريوهات الأخرى المحتملة لتحـول النظام السياسي لجمهوريـة الصين الشعبية في السنوات والعقود المقبلة إلى شيء عظيم، ويرى ذلك طائفة واسعة من أصحاب الرأي والمنظرين اعتماداً على النهضة الاقتصادية القوية التي حدثت للعملاق الصيني.

بعض المفكرين الآخرين أكثر حذراً في توقعاتهم، فلم يلتزموا باتجاه معين ولكن بدلاً من ذلك قاموا بوضـع سيناريوهات مختلفة وتوقع احتمال حدوث كل منها، ويقارنون بين سيناريو سيـئ وآخر أفضل، ويكون استغلال الأمن هو الأمر الأكثر احتمالاً في كليهما.

السيناريـو الأول الأسوأ، وهو توقع حدوث فوضـى عارمة في الصين، ويطلق (سياستيـان هايلمان) على روايته المروعة للنهاية الصينية اسم (سيناريو التدهور)، حيـث سيتفكك الحزب الشيوعـي الصيني إلى عدة أجنحـة وفصائل وجماعات متناحـرة مع بعضهـا البعض، وسيؤدي ذلـك أيضاً بالضرورة إلى زيـادة الفوارق الاجتماعية والإقليمية وحركات الاحتجاج والصراعات العرقية.

ووفقاً لهـذه التوقعات فإن الحكومة المركزية الضعيفة ستجد نفسها في مواجهة التدمرات السياسية والعسكرية في الأقاليم، وسوف يسحب المستثمرون الأجانب استثماراتهـم، وستضطر الحكومة للجوء إلى الخيـار العسكري في بعض المشاكل السياسيـة مثل مشكلة تايوان، وسوف يكون الوضع وقتها شبيهاً بتلك الحالة التي مرت بها روسيا في العشر سنوات الأولى بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

وهـذا هـو سيناريو النهاية كما يصفـه (جوردن تشانج)، حيـث يمزج في تحليله

كل شيء سلبي ويقلبه معاً داخل إطار لوحة مظلمة، تتزايد المشاكل المالية والآثار السلبية المترتبة على الانضمام لمنظمة التجارة العالمية، وتصبح الحكومة غير قادرة على مواجهة المزيد من الاحتجاجات الاجتماعية التي تشتعل في كل مكان، وكل هذا سيؤدي في النهاية إلى سقوط النظام الحاكم، ويختم (تشانغ) كلامه بالحديث عن البديل لذلك الأمر: «إن الشيء الوحيد القادر على إنقاذ الصين من كل هذا هو اللجوء للإصلاح السياسي».

وفي المقابل لذلك فهناك أيضاً وصف دقيق للسيناريو الأفضل، وهو الذي سيؤيد حدوثه العالم الغربي وبعض الدول المجاورة للصين، حيث ستتحول من خلاله جمهورية الصين الشعبية إلى بلدة ديمقراطية، ويتم ذلك بطريقة سلمية نسبياً بدون تمرد أو إراقة دماء، ليس من الأسفل حيث تقوم الجماهير بالتغيير ولكنه سيأتي من قبل الحكام أنفسهم ومن داحل النظام الحالي.

ويطلق (هايلمان) على هذا اسم (سيناريو التطوير من القمة)، حيث ستبدأ منحيات زعماء الحزب التكوقراطي السياسية في التحول التدريجي، ويبتعد الحزب الشيوعي الصيني تماماً عن منهج الماركسية اللينينية ويتغير اسمه ليصبح الحزب الشعبي، ويتزايد أعضاؤه الجدد من بين عامة الشعب ويتم تطوير أطرافه لتضم باقي المنظمات الاجتماعية الجديدة، وتصبح النتيجة الحتمية لذلك هي التحول للديمقراطية الدستورية.

وهناك عملية أخرى لازمة لا مفر منها كما يقول (بروس جيلي) وهي: «أن تتحسن الضوابط والقيود الموضوعة على حرية الرأي في الصين أكثر من السابق»، حيث يرى أن قمع انتفاضة ميدان تيانانمين عام 1989 هو تمهيد لانطلاق الديمقراطية كما حدث في (بودابست) عام 1956، و(براغ) عام 1968، و(وارسو) عام 1981،

حيث سـوف تزداد الصعوبات التي يواجهها قادة الحـزب الشيوعي الصيني ولن يتمكنوا من حل مشاكل البلاد.

ولكـن كيف ستكون المطالب الديمقراطية إذا جاءت من خارج الطبقة المتوسطة أو المعارضـة أو الحزب الشيوعـي الصيني، وهنا يرى (جيلـي) جناحاً آخر للقوة الإصلاحية مـن شأنه أن يجمع بين نخبة من رجال الأعمال والمفكرين السياسيين لإحـداث هذا التغير المنشود، و(جيلي) غـير متأكد من وقت حدوث أي من هذه التغـيرات: «ربمـا يحدث هذا غـداً أو قد يستغـرق الأمر العقد القـادم بأكمله»، ويضيـف إنه يؤمن فقط بضرورة الإصـلاح بشفافية شديدة وعلى أنظار كل الناس حتى تتم إعادة تقيـيم كامل لمذبحة ميدان السلام السماوي (ساحة تيانانمين).

ويبـدو هذا جيداً إذا تحقق ولكن من ناحية أخرى فإن السيناريو الآخر المتشائم يبدو هو الأكثر واقعية.

البرجماتية تستمر في الحكم

هذا هو المسار الذي سلكته الصين منذ 25 عاماً منذ أن بدأت سياسة الإصلاح وتجربـة الصواب والخطأ، فتتقدم خطوتين أو أكثر نحو الأمام ثم تتقهقر واحدة للخلف، ولكن الصين الآن تمضي للأمام.

وتبـدو الصـين اليوم خاليـة تماماً مـن أي أيديولوجية؛ فلا توجـد شيوعية أو اشتراكيـة أو رأسماليـة ولم يعد يسـود هناك سوى البرجماتيـة، وهذا هو شكل الحكومة التي تهيمن على الصين في القرن الماضي، من الإمبراطور وحاشيته في بداية القرن وحتى الحزب وكوادره في نهايته.

وسيواصـل الحكم الحزب الشيوعـي الصيني -وهو مازال يسمى هكذا فقط

لبعض الأسباب التاريخية- لكن قادة الحزب سيكون لديهم من الحكمة والواقعية ما يكفي لمعرفة متى يلزم تقديم بعض التنازلات كما حدث في السنوات الأخيرة الماضية، فإن إصلاحات النظام غير محسوسة للغرباء أو الذين في خارجه، (كاي شتريت ماتير) المراسل الصيني لمجلة (رود دويتشه تسايتونغ) والذي ظل يتابع هذا المشهد لعدة سنوات يقول: «إن دولة حكم الحزب الواحد الشمولي لا توفر أي حريات إلا عندما تشعر بأنها قد أصبحت مهددة سياسياً».

ولذلك فإن الحزب الشيوعي الصيني يُدخل بعض العناصر الديمقراطية بشكل تدريجي ولكن لا يُتوقع من ذلك أن النظام سوف يصبح ديمقراطياً ولكن الحزب يتقدم (فقط) بضع خطوات صغيرة للأمام، وأيضاً فإن الأصوات المنادية بالديمقراطية وتأتي من داخل الهيكل الحزبي تكون أعلى، كما أن رئيس الحزب (هو جين تاو) يطالب أيضاً بالمزيد من الشفافية والمساءلة داخل حزبه.

وبالكاد يتم إصلاح الحزب والنظام، ليس مثل تايوان أو سنغافورة ولكن تقدم الصين نموذجاً جديداً للدولة الاستبدادية، وهكذا فإنها ترسم برنامجاً جديداً وواسع النطاق للعمل على تطوير البلد وحمايته.

وهناك العديد من المشاكل التي تنتظر من الحكومة حلاً سريعاً لها في المرحلة الحالية، ولكن هل سيتم ذلك بشكل أفضل بدون أن تلجأ الحكومة إلى سلطتها المباشرة في فرض الحلول من أعلى.

وهل ستواجه الحكومة الصينية الاستجوابات المعارضة؟ في حين أن القرارات تأخذ وقتاً طويلاً في مناقشتها في الغرب -وكما هو الحال أيضاً في ألمانيا- فإن ما يخفف اضطراب الآراء في الصين هو أنه لا يوجد سوى عدد قليل من النساء والرجال في المكتب السياسي للحزب ولذا فإن الاتفاق يكون أسرع بكثير.

ومن المفارقات الشديدة أن السوق الاقتصادي الليبرالي يُشيد باحترام للحكم الاستبدادي الصيني، ولذلك يقول البروفيسور (ليستر تورو) في كتابه (مستقبل الاقتصاد العالمي): «لدى الصين حكومة نشطة يمكنهـا وضع الإستراتيجيات لخلق وتنفيذ القرارات».

وهنـاك رأي مشـترك للعديد من كـبار الأساتذة والمتخصصـين تم إعلانه في سبتمبر 2004 عندما اجتمع أكبر عدد من الحاصلين على جائزة نوبل في الاقتصاد عندما أجرت بينهم صحيفة (وول ستريت جورنال) استطلاعاً عن أي بلد لديها أفضـل سياسة اقتصادية في الوقت الراهن؟ فأجاب معظمهم أنها الصين بجانب الولايات المتحدة.

وأرادت الصحيفـة معرفـة رأي أولئـك الخبراء في أي اقتصـاد سوف يكون الأعظم خلال الـ 75 عاماً القادمة، وكانت آراؤهم كالتالي:

وليـم شـارب: «50٪ الصـين، و30٪ الاتحـاد الأوروبـي، و20٪ الولايـات المتحدة».

لورانس كلاين: «الصين على الأرجح».

كينيث آروو: «ستكون الصين هي أكبر اقتصاد في العالم».

رونالـد كوس: «لـدي شكوك قليلـة في أن تصبح الصين خـلال الـ 75 عاماً القادمة كأعظم قوة اقتصادية عالمية قبل أمريكا والاتحاد الأوروبي».

وأخيراً كاره الشيوعية؛ (ميلتون فريدمان) يجيب باقتضاب: «الصين».

وهكذا فإنه لا يمكن أن يكون مثل هذا العدد من الحائزين على جائزة نوبل في الاقتصاد على خطأ، لقد بدأ العصر الصيني.

العربية

نحن الآن على أعتاب تحول تاريخي في الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية؛ عندما تضع إمبراطورية كبرى كالصين أقدامها على الطريق الصحيح لتصبح قوة عالمية عظمى اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، وللمرة الأولى في تاريخ البشرية تعود قوة عالمية سابقة للظهور مرة أخرى، حيث كانت الصين حتى القرن الثامن عشر واحدة من أكثر الدول تقدماً في العالم، وهاهي تستعيد وضعها من جديد لتسيطر على الاقتصاد العالمي المعاصر في الوقت الحالي.

لماذا ترتفع أسعار النفط والحبوب الغذائية بشكل جنوني؟ ولماذا يزداد الطلب على الصلب الخام؟ ولماذا تكثر حالات البطالة في الدول الصناعية الغربية؟ ولماذا يتسع ثقب الأوزون؟ ولماذا يتصاعد الخوف المستمر من نشوب حروب في المنطقة بين وسط آسيا والمحيط الهادئ؟ والجواب يكون دائماً هو نفسه في كل الأحوال.. (الصين).

والنتائج المترتبة على هذا الصعود التاريخي ستكون هائلة، وسوف يشعر بها كل مستهلك وعامل ومدير في الدول التي تأثرت سواء ألمانيا أو أمريكا أو اليابان، وسيكون للصين (الجديدة) دور مهم وخطير أيضاً في تغيير حياتنا.